AYAAT ILM ACADEMY
أكاديمية آيات للعلوم الإسلامية

المستوى الأساسي

منهج

السيرة والتاريخ

الفصل الدراسي الرابع

سير ٢٥٢

إعداد

د. عماد حسين

دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

مقرر الفصل الدراسي الرابع

قصص الأنبياء- القسم الأخير

حال بني إسرائيلَ بعد عصيانهم تعاليم الأنبياء:

قصة طالوت وجالوت:

تدورُ أحداثُ قصَّة طالوتَ وجالوتَ حولَ ظروفِ بني إسرائيلَ وأحوالِهم؛ لمَّا انقَطَعَ فيهم نسلُ الأنبياءِ، فأبدَلَهم اللهُ بحُكم الأنبياءِ حكمَ المُلوكِ، فسلّط عليهم ملوكاً جبَّارينَ، أذاقوهُم من الظُّلمِ والجورِ ما أرهَقَهم، فسَفَكوا دِماءَهم، وبَدَّلوا أحوالَهم، حتَّى تَكالَبَ عليهِم غيرَ المُلوكِ أعداؤُهم، فظَهرَ الأعداءُ عَليهم فأوغلوا فيهم، وكانوا من قَبلُ لا يَقدِرونَ عليهِم؛ إذ كانَ فيهم تابوتُ الميثاقِ الذي كانَ في قُبَّة الزَّمان، فَكانوا إذا قاتلوا الأعداءَ هَزَموهم وانتصَروا عليهِم؛ وقد جعل الله في التَّابوتِ من السَّكينةِ والبَقيَّةِ ممّا تَرَكَ آلُ موسى وآلُ هارونَ ما يُعظِّمُ أَمرَهُ، ويُشرِّفُ قَدرَهُ، ويُظهِرُ البَرَكةَ فيه، وكانَ ضياعُ التَّابوتِ مِنهم سبباً في تخلُّفِهم وانكِسارِهم، وإنَّما كانَ ذلكَ فيهم جزاءَ ما قَتلوا من الأنبياءِ، وانحرَفوا عن دَعوتِهم ومَسارِهم، فلمَّا كانَت بعض حروبِهم مع أهلِ غزَّة وعسقَلانَ هُزِموا، وأظهَرَ اللهُ أعداءَهم عليهِم، فانتَزعوا منهم التَّابوت، حتّى إذا عَلِمَ مَلِكُ زَمانِهم من بني إسرائيلَ مالَت عُنُقُهُ كَمَداً فمات، فأصبَحوا شتاتاً مثل الغَنَمِ بِلا راعٍ، فسلَّطَ اللهُ عليهِم أعداءَهم، فكانَ هذا حالهم طوال أربَعمئةٍ وسِتّينَ سنةً، حتَّى بَعثَ الله فيهم شَمويلَ بن بالي نبيّاً.[١]

بَعثُ النَّبيّ شمويل بن بالي

لمَّا ضَعُفَ حالُ بني إسرائيلَ وطالَ بلاؤُهم، وذُلُّوا بعدَ عِزَّةٍ، فَخسروا التَّابوتَ وما بهِ من بَركةٍ، وأذلَّتهمُ المُلوكُ من غَيرِهم، فخرَّبوا دِيارَهم، وغَنِموا أموالَهم، وقَتلوا رِجالَهم، وسَبَوْا نِساءَهم، وفُرِضَت عليهِمُ الجِزيةُ حتَّى جَزِعوا، رَغبوا إلى الله عزَّ وجلَّ يستنصرونَهُ بنبيٍّ يُقاتِلونَ معه، وكانَ قِتالُ العَمالِقةِ وفيهِم مَلِكُهم جالوت أشدَّ ما يَجِدونَ من هوانٍ، وليسَ لبني إسرائيلَ قبيلٌ لِجالوتَ ولا كُفء، فسألوا الله أن يُرسِلَ فيهم نبيّاً يُقاتِلونَ مَعَه، وما مِن أثَرِ الأنبياءِ وأسباطِهم حينَها سوى جنين بِبطنِ أمِّه؛ ذلكَ أنَّهم عُرِفوا بقتلِ الأنبياءِ من قبل، فلمَّا كانَ ما في بَطنِ المرأةِ أمَلَهم وتمنّيهِم، جَعلوها حَبيسَةَ بيتٍ تَلِدُ فيهِ؛ خشيةَ أن تَلِدَ جاريةً فتُبدِلهاغلاماً؛ لِما ترى من حاجةِ بني إسرائيلَ ورَغبَتِهم في وَلَدِها واستِبشارِهم بنبوَّتِه، فتضرَّعتِ المرأةُ لربِّها أن تَلِدَ غُلاماً، فرَزَقها الله ما تمنَّت، فأسمَت غُلامَها سَمعون؛ إذ سَمِعَ الله دُعاءَها، فجَعَلَهُ

[١] إسماعيل بن كثير، البداية والنِّهاية، صفحة: ٥، جزء ٢.

غُلاماً.[٢] أرسَلت المرأة غُلامَها إلى بيتِ المَقدِسِ ليَتعلَّم التَّوراة، فكانَ في كفالةِ شيخٍ من علماء بني إسرائيلَ تبنَّاهُ، فلم يكن يأمَن عليهِ غيرَه، حتَّى إذا كَبُرَ الغُلامُ وبَلَغ من رُشدِهِ ما يَحمِلُ أمرَ النُّبوَّةِ، جاءهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ وهو نائمٌ إلى جوارِ شيخه، فناداهُ جبريلُ بِلحنِ الشيخ: يا شَمُويل، فَفَزِعَ الغُلامُ إلى شيخِهِ يَنظُرُ حاجَتهُ، فقال: دَعوتَني أبتاه؟ فَكَرِه الشَّيخُ أن يَقول لا؛ فيفزَعَ الغُلامُ، فأرجَعهُ لِيَنام، ثمَّ ناداهُ جبريلُ ثانيةً، فلبَّى الغلام: دَعوتَني أبتاه؟ فأرجَعهُ الشَّيخُ إلى نومِهِ، وقالَ: إن دعوتُكَ الثَّالثة فلا تُجِبْني، فَظَهر له جبريلُ في الثَّالثةِ، فقال: اذهب إلى قومِكَ فَبلِّغهم رِسالةَ ربِّك، فقد بَعثَكَ اللهُ فيهم نبيّاً، فلمَّا دعاهُم أعرَضوا، فَكذَّبوه، وقالوا: إنَّما استَعجلتَ النُّبوَّة.[٢]

تنصيبُ طالوتَ ملكاً

طَلَبَ بنو إسرائيلَ من نبيِّ الله شمويلَ بن بالي آيةً تُعزِّزُ نُبوَّتَهُ؛ ليُصدِّقوهُ بِها، فقال: عَسى إن كُتِبَ عليكُم القِتالُ وفيكُم ملكٌ إلَّا تُقاتِلوا، وتفوا بِما التزَمتم، فقالوا: وما لنا ألّا نُقاتِلَ في سَبيلِ اللهِ، وقد أُخرِجنا من دِيارِنا؟ فأرسَلَ اللهُ لهَ عصاً يَكونُ المَلِكُ بِطولِها، فتَقايسوها حتَّى لم يَكن أَحدهم بِقياسِها، وكانَ طالوتُ سقَّاء يستقي الماءَ على حِمارٍ له، فضلَّ حِمارُهُ، فَجعَلَ يَبحثُ عنهُ ويَلتَمِسُ أثرَه حتَّى وَصَلَهم، فلمَّا رأَوْهُ دَعوهُ لِقياسِ العَصا، فكانَ مِثلَها، فاختارَهُ شَمويلُ ليكونَ عليهم مَلِكاً، فأنكروا عليهِ ذلكَ؛ إذ ليسَ فيهِ نَسَبُ المُلوكِ ولا مالهم، فعزَّزَهُ اللهُ بآيةٍ تُثبتُ مُلكَه؛ إذ جَعلَ التَّابوتَ بينَ يَدي طالوتَ، أو قيلَ في بيتِه، وفيهِ سكينةٌ من الله وبقيَّةٌ ممّا تَرَكَ آلُ موسى وآلُ هارون، فلمَّا كانت الآيةُ، صَدَّق بنو إسرائيلَ نُبوَّةَ شَمويلَ ومُلكَ طالوتَ، فاتَّبعوهم.[٣]

نَصرُ بني إسرائيل ومقتل جالوت

خَرَجَ المَلك طالوت لِقِتالِ العمالِقةِ بجيشٍ يَبلُغُ ثمانينَ ألفَ مُقاتلٍ، خَرجوا معهُ كارِهين، فقالَ طالوت: (إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي)،[البقرة:٢٤٩) فلمَّا بَلَغَ نَهرَ الأردنّ وهو نهرٌ بينَ الأردنّ وفلسطينَ عَذبُ المِياه، كانَ النَّهرُ مُبتَلاهم؛ ذلكَ أنَّهم شكَوا العَطَش، أو قيل: إنَّهم طَلَبوا أن يَفصِلَ الله بينَهم وبينَ جالوتَ بِنهرٍ، فكانَ ابتِلاؤهم بالنَّهرِ ألَّا يشربوا من مائِه، إلاَّ من اغتَرَفَ الماءَ بكفِّهِ فمعفيٌّ عنه، فجعلَ عامَّتُهم يشربونَ الماءَ ولا يروون، أمَّا علماؤهم ومن آمنَ فكانوا يغترفونَ الغرفةَ فيروون، فثَبَت مع طالوتَ أربعةُ آلافِ مُقاتلٍ، ورَجعَ عنه ستّةٌ وسبعونَ ألفاً، حتَّى إذا عَبرَ طالوتُ

[٢] محمد بن جرير الطَّبري، تاريخ الرُّسل والمُلوك، صفحة: ٤٦٦-٤٦٩.

[٣] أبو الفداء بن كثير، تفسير ابن كثير ، صفحة: ٥٠٨، جزء ١. محمد بن جرير الطَّبري، تاريخ الطَّبري، صفحة: ٤٦٨، جزء ١.

النَّهر بمن مَعه، قالوا: (قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)،[البقرة:٢٤٩]فلم يبقَ معَ طالوت سوى ثلاثمئةِ مُقاتِلٍ وبِضع عشراتٍ منهم، وفيهم أبو داودَ عليهِ السَّلامُ ومَعهُ من أبنائِهِ ثلاثة عَشَر، أصغَرُهم داود، وكانَ الله قَد أجرى على يدِيه مُعجِزاتٍ أو كَراماتٍ رغمَ سنِّه، ومن ذلِكَ تَسبيحُ الجِبالِ، وتَسديدُ قذافتِه، فلمَّا كانَ القِتالُ واصطفَّ الجيشان، رَمى داودُ جالوتَ بِقذافَتِه، فأصابهُ بينَ عينيهِ، فأسقَطَه قتيلاً، فَلم يَزل حَجرُ داودَ يَقتُل كلَّ من أصابَهُ، ينفَذُ من الجندِ إلى غيرِهم، حتَّى هُزِمَ عَسكَرُ جالوت بإذن الله تعالى، فأنفَذَ طالوتُ عَهداً كانَ قَد قَطعهُ، فأنكَحَ ابنتَه داودَ قاتل جالوت، ثمَّ أجرى خاتَمَهُ في مُلكِه، فمالَ النَّاسُ إلى داود وأحبُّوه.[٤].

بين طالوت وداود(*)

انعقد لداود النصر، وتم له الظفّر، فائتَلَفَتْ على محبته القلوب وتأكدت له أواصرُ الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديث القوم، وموضع الإشارة، ومحوَر الحديث.

أما طالوت فقد وفَّى بشرطه، وبرَّ بعهده، وصدق في يمينه، فزوَّجَه ابنته، وأحلّه بين نفسه وقلبه، وأضحى موضع نصحه، وعَيبَةَ(٥) سرِّه. وجمعت بينهما أواصرُ نسب، وألَّفتْ بينهما غايةٌ من جهاد، فتهيأ لداود بذلك فتح مبين، وفوز كبير، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولكن القلوب مهما تكن صافية لا يؤمَن على الدهر كدَرُها، والنفوس وإن كانت منخولةً نقية قلّ أن يَبقى على الأيام نقاؤها، فقد أصبح داود يوماً، فإذا طالوت عابسُ الوجه، لاوي العِذَار(٦)، مقطبُ ما بين العينين، ابتسامُه تكلف وقولُه تحفظ، وحديثُه ينمُّ عن حقْدٍ وافد، وضغْن جديد! فماذا غيّر من قلبه ورنق من صَفو مودّته؟ وما عسى الواشي أن يكون قد بلغ عنده، ألم يكن داود –ولا يزال– سيفاً سلَّهُ الله حديداً قاطعاً، مجاهداً لا يكلّ، غازياً لا يمل، مظفّراً في الحرب، ميمون النقيبة في ساح القتال! ألم يجعل من نفسه وعافيته دِرعاً لطالوت يدفع عنه البلاء، ويصدّ عنه كيد الأعداء! أليس هو صهره وراعي ابنته، ومن يوم أن بنى بها لا يزال بينهما مَحض الود، وخالص الوفاء؟ فما عسى أن يكون قد غيّر قلبك يا طالوت!

[٤] أبو الفداء بن كثير، تفسير ابن كثير، صفحة: ٥٠٨-٥٠٩، جزء ١. أبو الحسن ابن الأثير، الكامل في التاريخ، صفحة: ١٩١-١٩٢، جزء ١.

(*) البقرة: ٢٥١.

(٥) عيبة سره: موضع سره.

(٦) العذران: جانبا اللحية.

فأخبرته زوجته: أن أبي –وإن كان مؤمناً خالص الإيمان، عالماً وافر العلم– مَلِكٌ تنتابه سَورة الملوك، وسلطان تختلج في صدره هواجس السلاطين. وقد علمت أخيراً –وإن لم أكن أجزمُ بصحة ما علمت– أنه يفكر في التخلص منك والقضاء على سلطانك، والقصّ من جناحك. والرأي عندي أن تأخذ بالحزم نفسَك، وتتحوّط لحياتك، فإن كان ما توقعتُه حقاً ظفرتَ بالسلامة وإن كان بعيداً لم يضرّك الحزم شيئاً.

قال داود –وقد أشجاه ما سمع: ما أنا إلا جندي مقاتل تحت راية السلطان ومؤمن أدافع عن بَيْضة الإيمان، ولعلّ ما دخل على طالوت كان من وسوسَة الشيطان، أو تسويل النفس الأمّارة بالسوء، وربما أخزى شيطانه وقهرَ هواه. ثم أغمض أجفانه على نوم هادئ، كأنه لم يعرف من دخيلة نفس طالوت شيئاً.

واستيقظ داود يوماً على دعوة طالوت، ومَثَلَ أمامه، فقال له: يا داود، إن بي اليوم همّاً ناصباً، وأمراً حازماً، قد بلغني اليوم عن كنعان أنهم عادوا، فجمعوا جموعهم، وألَّفوا أحزابهم، فاستحصد[٧] أمرُهم، وأصحب متوقعاً شرُّهم، وليس لي عون إلا بك، وليس لهذا الأمر سواك؛ فخذ سيفَك، واختر مَنْ ترى من جندك، واذهب إليهم، وإياك أن تعود إلا منصوراً، يَرْعُف[٨] سيفك بدماء أعدائك، أو مقتولاً محمولاً على أعناق رجالك.

وحسِب طالوت أنه كُفي أمر داود، ولكن داود على الرغم مما عَرَف من أمرِ صاحبه، واختلاط إرادة البشر بإرادة الخير في دعوَته – أطاع طالوت، وذهب إلى الكنعانيين ومقاتلاً بسيفه، مُرخصاً حياته، لا يبالي أوقعَ على الموت أو وقع الموت عليه؟ ولا يعبأ أيخرجُ من الحرب سليماً معافى، أم تفلِتُ الحياة من بين جنبيه. وكتب الله له النصر، وعاد إلى طالوت مظفَّراً منصوراً.

فما زاد ذلك طالوت إلا ضغناً، وما أكسبه عنده إلا حنَقاً وكرهاً، فأضمر له القتل، وبيّت النكال! وعلمت زوج داود بما أضمر أبوها، وما يُراد بزوجها فذهبت إليه لهيفة حزينة، وحدثته بلفظ خاطف، وقلب واجف: أن انجُ بنفسك، وأهرب بحياتك، وإلا أكسبتَنِي حسرة بموتك، وضاعفت همي بمصرعك.

فما وجد داود بدّاً من الهروب، وركوب مَتْن الاغتراب، واتخذ الليل جملاً، وهرب طريدَ الحسد وطريد الحِقْد، عامر القلب بالإيمان، عظيم الثقة بالله.

---

(٧) استحصد أمره: قوي.

(٨) يرعف: يسيل.

وانتهى إلى مَفَازة أوى إليها، وألقى بهمومه فيها. وفزِع إليه إخوتُه، وعلم بمكانه مريدوه من بني إسرائيل، فَهُرِعوا إليه جماعات، وانثالوا عليه زَرَافات.

أما طالوت فقد ضعُف أمرُه في قومه، وكثر الخارجون عليه والهاربون من جنده، وخاف العاقبة، فأعمل السيف، وعاقب بالظن، وأخذ البريء بذنب المسيء والمؤمن بالعاصي، ثم آذى العلماء، واضطَهد القُرّاء[٩] وألقى الرعب في قلوب الجنود. واستوى له بذلك جيش محاط بالقوة على سياج من بطش وجَبروت.

ولكن داود لا يزال حيّاً ينافِسه في ملكه، ويتحدّاه في قومه، ولا يأمنه على نفسه، وقد كشف له صحيفة ضِغْنه، ورَاشَ له سهام مكره، فلا بد أنه مُضغِنٌ عليه، مريدٌ الشرَّ له. إذن فلينهض إلى حربه، وليتهيأ لقتاله، مهما يقفُ في سبيله من عقبات.

وخرج داود من مفازته، يتحسس أمر طالوت، فإذا هو قد انتهى إلى واد ومعه ثُلّة[١٠] من شيعته وجنده، وقد عقدوا، لما أصابهم من جهد وما أدركهم من أيْنِ[١١] المسير. فمشى داود وَئيداً، حتى استلّ رمح طالوت من بين جنبيه وعاد. ونهض طالوتُ يتفقد رُمْحَه، ويبحث عمن أخذه، وبينا هو حائر مضطرب وافاهُ رسول داود يقول: هذا رُمْحُك، وقد مكن الله لداود من رأسك ولكنه كان أعزّ نفساً، وأكرمَ قلباً، وأدنى إلى الله إيماناً.

ونالت كلماتُ رسول داود من نفسه، ولمست مكانَ الإحساس من قلبه، فأخذته عَبرة من الأسى، ونالته حُرْقة من الندم، ورجع باكياً مستعبراً، نادماً أنه قد غدر بداود، وما كان أهلاً للغدر، وقتل العلماء والقُرّاء، وما استحقوا القتل، فما يفعل غداً بين يدي جبَّار السموات!

فرجع أدْراجه وثم هام على وجهه ومضى في الغلوات يُعلِن الندامة، وينشد من الله التوبة، حتى وافاه الحِمام[١٢].

أما بنو إسرائيل فقد هُرعوا جميعاً إلى داود مبايعين، وشدّ الله ملكه، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب.

---

(٩) القراء: طائفة من علماء بني إسرائيل.

(١٠) الثلة: الجماعة من الناس.

(١١) الأين: الإعياء والتعب.

(١٢) الحِمام: الموت.

فتنة داود[*]

قرّت عينُ داود بحياته ومملكته، وهو من بعد قد سار على منواله فكان يتبع نظامه الذي شَرعه لنفسه منذ حين من الدهر، قد قسم الدهرَ أرباعاً، واحداً لنفسه، وآخر لعبادة ربه، وثالثاً للفصل والقضاء بين الناس، والرابع لبني قومه يعظهم ويشردهم إلى سواء السبيل.

وداود كذلك ملك ونبيّ، أقام على منازله الحرّاس والجند، وهو لا يغيّر أنظمته تلك ولا يحيد عنها، بل هو يسلك الطريق الذي يسوّي بين تلك القسمة العادلة، وهذا الحساب الحكيم.

وفي ليلة من ليالي التعبد ظهر رجلان لهما كل ما للرجال من خِلقَةٍ وصفات، إلا أنهما يختلفان عن رجال بني إسرائيل قوم داود، فأولئك تعوّدوا أنظمة مَلِكهم فأطاعوها راضين مختارين، وذانِ خَرقاً سياج العُرْف، وخرجا على المتبع المألوف، فتقدما إلى الجند طالبَين أن يَدْخلا على داود، وذلك في غير وقت القضاء ومقابلة الناس. فليس للحراس إلا أن يذودوهما، وأن يمنعوهما عن الحمّى المنيع، حتى يحين الوقت الذي يباح فيه لأمثالهما أن يتقدّما بين يدي نبيّ الله الكريم.

وما كان للحراس أن يدركوا هذه القدرة الخارقة المعجزة، فليس هذان إلا مَلَكين في صورة الناس، وهما سيَصِلان حتماً إلى داود، وسيكون لهما شأن لديه مشهود، وسينفذّان إليه بتلك الحكمة الصادقة، والحجة القاطعة، وسيكون من أمرهما عبرة ناجحة لنبي الله داود.

تسوّر الملكان المحراب، ودخلا على داود. ففزع منهما، وقد رآهما بين يديه جالسين بغير إذن ولا شفيع، فقال: "لا تخَفْ، خَصمانِ بَغى بَعْضُنَا على بعَض فاحْكُمْ بَيْننا بالحقِّ ولا تُشْطِط[١٣] واهْدِنا إلى سواء الصِّراط".

وجد داود نفسه أمام أمر واقع، فتهيّأ لهما، واستعدّ للحكم بينهما، واستمع لجدالهما، فإذا أحدهما يقول: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً، ولي نعجة واحدة، ولكن أخي امتدّت به أطماعه فلم يقهر نفسه، ولم يُغالب هواه، بل قال: أعطنيها. فلما ناقشتُه غلبني نقاشُه، وأفحمني حِجاجه وجداله، لأنه أفصحُ مني لساناً، وأقوى حجةٍ وبياناً.

تلفَّت داود إلى الرجل الآخر، فاستوضحه الأمر، وسأله رأيه فيما يقول خصمه:

---

[*] سورة ص: ٢١- ٢٦.

(١٣)

فقال: إن لي تسعاً وتسعين نعجة، وله نعجةٌ واحدة فأردت أن آخذها منه حتى تكمل نعاجي مائة. فقال داود: أوَ أخُوكَ يكره ذلك؟ قال: نعم! فاستشاط داود غيظاً، ورماه شذَراً؛ وقال: إذن فإنا لا نَدَعُك، وإن رُمت ذلك ضربنا منك أنفَك وجبهتك. فقال الرجل:فاعدل في حياتك واقض بالعدل في خاصة نفسك لتخضع الرعية لقولك فيهم. وقد كان داوود خص نفسه بميزة فوق أتباعه ورعيته لم يكن الله أذن له فيها، فتلقّت داود بعد هذا القول الحكيم المنبعث عن نفس خبيرة بصيرة، فلم يجد أحداً حوله، فعرف سِرَ الأمر، وفطِن إلى حقيقة الحال. فاستغفر ربه، خرّ راكعاً، وجاهد نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو والصفح والغُفْران. فتاب الله عليه وغفر زَلَّته، وأبقى له منزلة الأنبياء المكرمين.

وما كان يدورُ بخلد نبي الله داود أنه بعمله مقدمٌ على ما يستوجب اللوم والعتاب، ولكن الله حاسبه فألزمه الحجة، على عُلوِّ كعبه وعظم منزلته، حتى يوقن الناس أن الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنه يؤاخذ الناس جميعاً بأعمالهم، سواء في ذلك عامتهم وأنبياؤهم، فلا يدع مؤاخذة نبي لنبوّته، ولا يَغْفُل عن حقّ مظلوم أقعده ضَعفُه عن بسط ظلامتها.

أصحاب السبت(*)

كان من تعليم نبيّ الله الكريم موسى أن ينقطع قومُه عن أعمالهم يوماً في كل أسبوع، فلا يركَنُون إلى مزاولة ما تشغلهم به دنياهم، بل يفرغون فيه إلى عبادة ربهم، ويَعْكفون على حمده، وتعداد نعمه وآلائه، حتى تطهر قلوبُهم بذكر الله.

كان يومُ الجمعة هذا اليوم الذي أمِروا أن يعبدوا الله فيه، ولكنهم رغبوا أن يكون يوم عبادتهم يومَ فرغَ الله من عبادة الخلق(١٤)، وهو يوم السبت. ولمّا اختاروه قبِلَ الله اختيارهم، فكان موسى عليه السلام يَزَعُهم ويعظهم، وَيُقبل إليهم فيه مذكراً مرشداً.

مرّت الأيام وقوم موسى على عاداتهم يقدّسون يوم السبت، ويفردونه لطاعة يتقرّبون بها، أو لعبادة يسبحون الله فيها، وتكاثرت أعقابهم، وتوالت أيامُهم، وهم على هذا مقيمون، وعلى تلك السُّنة دائبون.

(*) الأعراف: ١٦٤- ١٦٦.

(١٤) انظر التعليق رقم ١.

وفي قرية على شاطئ البحر الأحمر –قد يقال لها أيلَة– كان يسكن قوم من سلالة بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام[١٥]، وكان عليهم أن يلتزموا سُنّة آبائهم وأجدادهم، فيسيروا على عبادة الله في يوم السبت. فكانوا لا يزاولون فيه عملاً من أعمال دنياهم من صيد أو متاجرة أو صناعة.

وكان على ساحل البحر هناك حجَران أبيضان، تخرج الحِيتان إليهما ليلة السبت ويومه، إذ قد أمنت أن تصاد، فهي تأنس في هذا الزمن وتأمن، فتتكاثر وتتزاحم، والقومُ حينئذ لا تمتدّ أيديهم إلى ترويع هذه الحيتان بصيد، لأنهم مشغولون بتسبيح خالقهم، محرّمٌ عليهم أن يفزَعوا صيداً، أو يمارسوا في الدنيا عملاً. وإذا جاءت ليلة الأحد تسرَّبت الحيتان إلى البحر، فانبعثت إلى باطنه، فتعذّر على القوم أن يصطادوها في أيام هي حِلٌّ لهم.

تحرّكت دواعي الطمع، وثارت عوامل الجشع في نفوس الفُسّاق من أهل هذه القرية، فغفلوا عن تعاليم أنبيائهم، ونسوا حظاً مما ذُكِّروا به، فتشاوروا فيما بينهم وتبادلوا زمام الرأي، وقالوا: ما بالنا نترك هذه الحيتان في يوم تكثر فيه وتزيد، وتتزاحم متسابقة إلينا، ونأتي إلى صيدها في أيام تُحجم عنا وتدبر! فلا سبيل إليها إلا بمشقة وجهاد، إننا بذلك لحائدون عن طريق الصواب.

لا رأي إلا أن نقبل على هذا الصيد في يوم السبت، فنأخذ منه ما نشاء، ونصل فيه إلى ما نبغي ونريد.

أقبلوا على الصيد، فاصطادوا كثيراً بلا تعب ولا عناء، ثم صنعوا به ما شاءوا وما اشتهوا من مطبوخ ومشويّ، وأقبلوا يُشبعون همهم ويملأون بطونهم.

علم المتّقون منهم ما فعل هؤلاء الفُسّاق المستهترون، فخرجوا إليهم ووعظوهم وحذّروهم، فما زادهم ذلك إلا استهتاراً وإمعاناً في غيّهم، وانسياقاً في ضلالهم. فثارت ثائرة المؤمنين، وحاصروا القرية بسلاحهم يمنعون هؤلاء المارقين من دخولها، لأنهم خارجون عن طاعة الله آثمون فاسقون.

اشتدّ ذلك على الفساق، وشقّ عليهم أَن يمتنعوا عن الصيد في يوم السبت، مع كثرة الحيتان فيه، دون غيره من الأيام. فقالوا للمؤمنين منهم: إن القرية لنا ولكم، ولا حق لكم في دفعنا عنها، والانفراد بها دوننا، ولا أحد يُلزمنا بتركها لكم. إنها موطننا وموئلنا ومحط رزقنا، لا سبيل إلى تركها، ولا مفرَّ لنا إلى غيرها، فإن صممتم على رأيكم، ولم تحيدوا عن عزمكم فلتقاسمونا القرية، ولْنبْن حيطاناً بيننا وبينكم، حتى يعيش كل منا على ما يشتهي وكما يريد.

---

(١٥) تفسير الكشاف: ١–٣٥٥.

ارتضى المؤمنون أن يقاسموهم القرية، وأن يقيموا سدّاً يحجب عنهم هؤلاء المارقين.

انفردت كل طائفة، وشُغل الفساق بلهوهم وصيدهم، وحفروا نهيرات تصل البحر بقريتهم، فإذا كانت ليلة السبت سارت الحيتان فيها إلى أبواب دورهم، فإذا غربت شمس السبت وهمّت الحيتان بالرجوع حجزوها بسدود أقاموها تعترض مجرى النهيرات، فلا تملك الحيتان أن تتسرب إلى البحر.

ولكن المؤمنين لم يغفلوا عن زجرهم وتخويفهم عذاب الله. فلما طال النصح، ولم يزدهم إلا تمادياً وعنواً (قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)[١٦]!

فتركوهم في غيّهم يَعْمَهون، وانصرفوا عن وعظهم لأنهم لا يتعظون.

استمر الفساق في لهوهم، وسدروا في غُلوائهم. وكثرت أموالهم، وتغالوا في فسوقهم وعصيانهم حتى ضاق بهم داود. فاتجه إلى ربه يستنصر به، ويطلب اللعنة لهم. فأجاب الله سؤله، وحقق أمله فَزُلْزلت قريتُهم زلزَالاً عظيماً، ففزع المؤمنون من ذلك وخرجوا من بيوتهم، (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[١٧].

سليمان

سليمان وبلقيس[*]

اتجهت همةُ نبي الله سليمان إلى بناء هيكل في بيت المقدس، تسهيلاً لأسباب العبادة، وقرباناً إلى الله، فنشط حتى أقامه عالي الأركان، شامخ البنيان. ولما تم له ذلك اطمأن قلبُه، وسكنت نفسه، ثم نزعت إلى أن يؤدّي فريضة الله، فلا بد له إذن أن يتهيأ للحج في حشد عظيم.

يَمّم النبيُّ شطرَ الحرم وفوافاه، وأقام به ما شاء، حتى إذا وفي نذره شدّ رَحله وفارقه. ثم حدّ به السير نحو أرض اليمن، فدخل أرض صنعاء، وأخذ يتفقد الماء، ويتلمس منافذه، ويسبر أغواره، فأعياه البحث، واستعصى عليه المنال.

لذلك خفّ سليمان، فتفقد الطير باحثاً عن الهدهد ليدلّه على الماء، فوجده من الغائبين، فأقسم لَيعذِّبنَّه أو ليذبحنّه، إلا أن يأتي بحجة واضحة، يمهد بها لعُذْره ويزيل ما يخالج النفس في أمره. لكن الهدهد غاب غيبة قصيرة، وعاد يخفض رأسه وذَنبه تواضعاً لسيده، وتقدم إليه ينزع من نفسه ما عسى أن

---

(١٦) بئيس: شديد.

(١٧) الأعراف: ١٦٥.

(*) الأنعام ٨٤، الأنبياء ٨١ و٨٢، سبأ ١٢-١٤، النمل ١٥- ٤٤، البقرة ١٠٣، سورة ص٣٠-٤٠.

يكون قد ألمَّ بها من غضب عليه، أو كيد إليه.. تقدم الطائر فقال : لقد اطلعت على ما لم يمتد إليه علمك، ولم تصل إلى إحاطة به أسبابُ قوتك وملكك، وكشف سراً ندَّ[١٨] عنك أمره، واختفى خبره.

فخفض هذا الحديث المشوق من حدة سليمان، وبعث إلى نفسه كثيراً من التلهف والاستعجال، فاستحث سليمان آنذاك الهدهد أن يأتي بخبره، وأن يُدْلي بحجته وعذره. فقال الهدهد: وجدت في أرض سبأ امرأة تملكهم، وقد أوتيتْ من كل شيء ولها عرش عظيم، إلا أن الشيطان قد استبطنهم، وخالط منهم اللحم والدم، والمسامع والأطراف، فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون... وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فهالني أمرها وروّعني شأنها، وما كان أجدرهم، وأولى بهم – وهم أولو القوة والمجد – أن يسجدوا لله الذي يعلم ما تُكِن الجوانح، لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

دُهِش سليمان لهذا الأمر العجيب، وقد رأى ألا يفجع الهدهد في خبره، وألا يرد عليه قوله، بل قال له: سننظر في نبئك، وتحقق أمر صدقك من كذبك. وإذا كان الأمر كما وصفتَ، والحق كما صورتَ، فهذا كتابي، إذهب به فألْقه إليهم، ثم تنتحَّ إلى مكان تنتظر رأيهم، وترتقب جوابهم.

حمل الهدهد الكتاب، ثم سار إلى بلقيس، فألفاها بقصرها في مأرب، فطرح الكتاب أمامها، فتلقَّفته وقرأته، فإذا فيه: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ).

فجمعت الملكة وزراءها وأمراءها، وأكابر دَولتها إلى مشورتها، لتطيِّب نفوسهم، لاعتدادها بهم ورُكونها إليهم، ولكي تعتصم بحكمهم، وتستظهر برأيهم. فقالوا: نحن أبناء حرب وجِلاد، لا أهل رأي وسداد، وقد تركنا أمورنا لتدبيرك وشؤوننا لتفكيرك، فانظري ماذا تأمرين، نكن طوْعَ بنانك، ورَهْن كلامك.

لمحت الملكة في كلام رجالها ميلاً إلى الحرب والمدافعة، فزيّفت كلامهم، وخطَأت رأيهم، وأبانت لهم أن الصلح خير، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة أن يبدءوا بالتي هي خير لهم وأحسن، فقالت: إن الملوك إذا غلبوا قرية، ودخلوها عَنوة خَربوها: فأبادوا حضارتها، وجعلوا أعزتها أذلة، وتحكموا في الرقاب، واشتّطوا في الاستبداد... ذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام، وتوالت الأزمان. وإني مرسلة إلى سليمان بهدية، فيها من كل غال وثمين، ونفيس وكريم، أصانِعُه بها على مُلكي، وأتبين بها سبيله، وأتعرف منها نَهجه.

ثم جمعت هدية بعثت بها مع رجال من كرام القوم. فانتقل الرسل بالهدايا وأقبل الهدهد إلى سليمان يبثُّه الخبر. فاتخذ سليمان للأمر عُدته، وقدم لما بعده أهبته، لذلك أمر الجن فزينوا له بناءً عجيباً، وصرحاً مشيداً، يهزُّ الأفئدة، ويبهر الأعين، ويدهش القلوب.

([١٨]) ندَّ: غاب.

فلما دنا القوم نظروا فَبهِتوا، وأقبل عليهم سليمان بوجه طلْق، يرحَّب بقدومهم ويتهلل للقائهم. ثم بدأ يستشفُّ غرَضهم، ويتعرف رأيهم، فقال : ما وراءكم؟ فتقدّموا بما حملوا من هدايا ونفائس، يبتغون بها رضاً وقبولاً من النبي الكريم. فتعفف سليمان وتلطف، وقال للرسول: ارجع إليهم بهديتهم، فإن الله أعطاني الرزق السخيّ، والعيش الرضي، ومدّ لي أسباب النبوّة والملك، وأتاني ما لم يؤتِ أحداً من العالمين. وكيف يرضي مثلي أن يَمُدَّ بمال يصانع به، أو كيف يلهيه عن نشر دعوته ملْءُ الأرض ذهباً! إنكم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فأنتم بهديتكم تفرحون. ارجع أيها الرسول إليهم، فلنَأتينَّهم بجنود لا قِبَل لهم بها، ولا قدرة على احتمالها، ولنخرجهم من سبأ أذلة، ذاهباً عنهم العزُّ والملك والسلطان.

ذهب الرسلُ فأخبروا بلقيس مما رأوا وسمعوا، فقالت : ليس لنا بدٌّ من السمع والطاعة، ولنبادر إلى إجابتهْ، ونسارع لقبول دعوته.

فلما سمع سليمان بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن سُخِّر له من الجان: (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن ينقضيَ مجلسُ حكمك، فتقوم من مقامك، وإني لذو قوة على إحضاره، وأمينٌ على ما فيه. قال الذي أوتي العلم والحكمة: أنا آتيك به قبل أن يرتدَ إليك طَرْفُك[١٩].

أراد سليمان عرش بلقيس عنده فكان، فقال : هذا من فضل ربي عليّ، وتلك نعمة من نعمه إليّ، ليبلوَني[٢٠] أأشكر أم أكفر. ومَنْ حسنتْ النعمة لديه، وصادفت من قلبهِ مكاناً طهرتْ حواشيه، وسكنت نَوازيه، فشكر ربه فإنما يشكر لنفسه، لأن مرجع الشكر إليه وأما من كفر بنعمة ربه، وخبُثت سريرة نفسه فإنما هو من الذين خسروا الدنيا والآخرة، والله غني عن العالمين. ثم قال سليمان لجنوده: نكِّروا[٢١] لها عرشها، وغيَّروا رُواءه لنظر: أتهتدي إليه أم تكون من الذين لا يهتدون.

فلما جاءت قيل: أهكذا عَرْشُك! فاستبعدت أن يكون عرشَها، وقد خلَّفته في أرض سبأ، ولكنها رأت معالمه، وتبينت آياته ومحاسنه، فدهشت لذلك الأمر الغريب، وقالت: كأنه هو، ووقفت مشتتة الفِكر، حائرة القلب، والهة الفؤاد.

---

(١٩) الطرف: العين.

(٢٠) ليبلوني: ليختبرني.

(٢١) نكره: غيره إلى مجهول.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض، ثم دعا ملكة سبأ إليه. فلما رأته حسبته للجَّة، فكشفت عن ساقيها، قال: إنه صرح ممرَّدٌ[٢٢] من قوارير. فانكشف حجابُ الغفلة عنها، وقالت: ربِّ إني ملتُ حيناً عن عبادتك، وضللت حَرْساً[٢٣] من الزمن رحمتك، فظلمت نفسي، وحبستُها عن نورك ورحمتك، والآن قد أسلمت مع سليمان، خالصة لك، متوجهة إلى طاعتك وأنت أرحم الراحمين.

حكمة سليمان[*]

هذا داود عليه السلام قد استوى ملكاً على عرش بني إسرائيل، يحكم فيما شَجَر بينهم، ويصرِّف أمورهم، ويرعى وحدتهم ومعاشهم، وهم يغدون إليه يقصون قصصهم، ويبسطون خصومتهم، ويُدْلون بحججهم، وهو يفصل في كل ذلك بالعدل والقِسطاس.

وهذا ابنه سليمان لما يكتمل، فهو في الحادية عشرة من عمره، ولكن أباه قد أصبح شيخاً همّاً، أوشكت شعوب أن تَخترم أجله، فهو دائب التفكير في أمر قومه، مهتم بمن تكون له الولاية من بعده، يرى أبناءه من حوله، وسليمان –وإن كان صبياً– إلا أنه يفضلهم علماً وحكمة: قد نضجت شمائله، واكتملت بوادره، يصرّف الأمور تصريف الناقد الحازم، البصير النظَّار[٢٤].

جرت سنةُ داود على أن يحضر خصومته ابنه سليمان، حتى تزداد قوته، ويَستحصِف[٢٥] رأيه، فكان سليمان ملازماً لأبيه في مجلسه، حتى يكون له من آرائه نور يمشي به، ودستور يسير عليه في مشكلات الملك ودقائق التدبير.

وفي مجلس من مجالس القضاء جلس الملكُ داود، وجلس إلى جانبه ابنه سليمان، فأتى خصمان، قال أحدهما: إن زرعاً له قد آتى ثمره، ودنت قطوفه، وصار بهجة الناظر، وعتاد الزارع، انتشرت فيه غنم خصمه، ولم يردّها رادّ، أو يُحكِم وثاقها راعٍ، بل سامت، وانسابت في الزرع ليلاً، فأهلكته وأبادته، حتى صار أثراً بعد عين.

قال صاحب الزرع ما قال: ولم يدفعه صاحب الغنم بحجة ولا دليل، فلزمته الخصومة، وحقّت عليه كلمة القضاء، حكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصةً له، كِفاء زرعه، وجزاء إهمال

---

(٢٢) ممرد: مطول أو مملس.

(٢٣) حرساً: دهراً.

(*) الأنبياء: آية ٨٩ وما بعدها.

(٢٤) النظار: الممعن النظر في الأمور.

(٢٥) استحصف رأيه: استحكم.

أصحابها الذين تركوها، فنَفشَتْ[٢٦] في الزرع بالليل. ولكن الصبي سليمان – وقد آتاه الله علماً وحكمة، وأوقفه على دقيقات هذه الخصومة، وجمَّله بالرأي فيها تهيئة منه ليتولى ذلك الملك العريض– انبرى في مجلسه؛ وفكَّ عقال صَمته، وانفلتت إلى القوم حجته، غيرُ هذا أرْفَق، ودون هذا أوفق.

فدُهش القوم لجراءة الغلام، وانتظروا صامتين ما وراءه، فقال: تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها، وتسلّم الأرض إلى أصحاب الغنم يقومون على زراعتها، حتى تعود كما كانت، ثم يترادّان، فيأخذ كلٌّ ما كان تحت يمينه؛ وبذلك لا يكون هناك غُنْم ولا غرْم؛ فهذا أقرب إلى العدل، وأصح في الحكم، وأولى في القضاء. كان هذا مبدأ لظهور أمر النبي سليمان، الذي كان خير خلف لأبيه.

سليمان على عرش أبيه[*]

داود يهيئ ابنه سليمان، ليكون خليفةً من بعده مع ما هو عليه من حداثة السن وغضاضة الإرهاب. ولعله قد أخِذ بأبهة العرش، وازدهى بعزته، فخالط قلبَه الفخر، وامتدّ أمله إلى التعليق بغرض من أغراض الحياة. وذلك –وإن يكن غَرَزيًّا في بني الناس– إلا أنه كثير على مَن مُنح هبة النبوة، واصطفاه الله لهداية العالمين. وهذا ابنٌ آخر لداود: هو أبشالوم قوي عتيد، قد استوى ساقه، وعرَك تجارب الدهر، وعرف دخائل الأمور، ومع ذلك فهو مُقْصى عن المُلك، مبعد عن الخلافة والسلطان.

وذلك تدبير لا يرضي أبشالوم، ولا يطمئن إليه: فهو لذلك سيشق عصا الطاعة خارجاً على أبيه وأخيه، وسيكافحُ ويناضل في سبيل هذا الملك، مهما يكلفه ذلك من عزيز.

استمر أبشالوم ردحاً من الزمن يتقرب إلى قومه اليهود، ويغمرهم بعطفه، ويقضي بينهم، ويصلح أمورهم، ويجمع شملهم حوله. وذلك انتظاراً لأمر يدبره وعمل يُبيِّته، حتى لقد غالى في أمره فكان يقف بباب أبيه الملك يصدّ عنه كل صاحب حاجة، ليقضيَها له بنفسه؛ ليكون له على كل إسرائيلي منة ويد، وليعرفهم أنه صاحب حول وطَول، حتى يكونوا إليه نازعين ولرأيه خاضعين.

وبعد أن أعدّ أبشالوم عُدّته، ودبر مكيدته، واطمأن إلى أنه استرق قلوب اليهود، واستولى على زمامهم –بعد ذلك استأذن أباه داود في أن يخرج إلى "جدون"[٢٧] ليُوفي بنذرٍ نذره هناك. ثم أرسل جواسيسه في أسباط بني إسرائيل قائلاً: إذا سمعتم بُوقاً يُنذر بجمعكم فانفروا إليّ وأعلنوا الملك لي، فذلك خير لكم، وأوَفي لحقوقكم وأمكن لسلطانكم.

([٢٦]) نفشت الغنم: رعت ليلاً بلا راع.

[*] سورة ص: ٣١ وما بعدها.

([٢٧]) جدون: بلد.

ثار الشعب، واشتدّت الفتنة، وتزايد الصّخَب، وهبت على عاصمتهم ريح هَوْجاء تُوشك أن تأتي على الأخضر واليابس.

علم داود بالخبر، فكان شديداً، إلا أنه ربط جأشه، وملك نفسه، ثم قال من حوله: هيّا بنا نهرُب، لأنه ليس لنا نجاة من بطش أبشالوم. ثم عبر هو ورجاله وأهل بيته نهر الأردن وصعد داود إلى جبل الزيتون باكياً حافياً هو والذين معه.

وكان نَفرٌ قد شمتوا بداود، فتألبوا عليه يسبّونه، ويؤلونه بقوارس الكلم، فهمّ بهم خلصاؤه إلا أنه منعهم في ألم وحسرة قائلاً: إذا كان ابني يطلبني فما أحرى غيره بذلك!

ثم تقدم داود إلى الله في ضراعة وذلة: أن ينجيه مما حاق به، وأن يكشف عنه البلاءَ المحيط.

دخل أبشالوم بعد مخرج أبيه المطرود إلى العاصمة وامتلك نواصي الأمور.

ثم أرسل داود قوّاده، وأوصاهم أن يعالجوا الأمر بالروية والحكمة، وأن يحقنوا دم ابنه أبشالوم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل. إلا أن القدر قد دبر غير ما اشتهي الوالد الرحيم، فقد دخل القوّاد إلى أبشالوم ولم يروا إلا قتله، فسكنت الفتنة، واستراح الناس.

ورجع المُلك إلى داود ومن بعده لابنه سليمان.

قرّ سليمان في ملكه، ووهبه ربه ملكاً عريضاً، وجاهاً وسيعاً، وسخّر له الريح تجري بأمره، وتسير بمشيئته ورأيه، وعلمه منطق الطير، فكان يتفاهم بأصواتها، ينتفع مواهبها، ويطمئن إلى أخبارها.

وأسال الله له عيناً مُنصهرة، تقذف النحاس من باطن الأرض، فيقبل عليه صنّاعه من الجن للانتفاع به في شتى أعمال الإصلاح والتعمير، ومن الجن من يعملُ له ما يشاء من محاريبَ وتماثيل وجِفانٍ كالجوابي[٢٨] وقدور وراسياتٍ.

ورث سليمان داود في نبوّته[٢٩] وملكه، وآتاه الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمه منطق الطير، وسخر له الشياطين، وأطلق بأمره الريح، فكان يعرف تخاطُبَ الطير بلغاتها، ويعبَر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

([٢٨]) الجوابي: الحياض الكبار.

([٢٩]) النبوة لا تورث، ولكن الله يتفضّل بها على من يشاء.

ولقد ركب نبي الله الملك يوماً في حَشد عظيم من الإنس والجن والطير، حتى نزل أرضاً بَراحاً، فأتى على وادي النمل. فَبصُرت به على بُعد نملة من المال، فارتاعت لذلك الحشد، وخافت على قومها أن تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم، فأهابت بهم أن ادخلوا مساكِنكم حتى لا تذهبوا ضحية سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

سمع سليمان قولها، وعرف مرادها في ندائها، فتبسم ضاحكاً لقولها، سروراً بما ألهمه الله من قوة يدرك بها هذا المنطق العجيب، وإعجاباً بما تجلّى في قول النملة من شعور وإدراك، لأنها أيقنت أنه نبي، والأنبياء لا يؤذون خلق الله إلا إذا كانوا لا يشعرون.

طلب سليمان من ربه أن يقيّضه لشكره على ما أنعم عليه من عطية، وما خصه به من مزية، وأن ييسر له سبيل الأعمال الصالحات، فيهيئ له من أمره رشداً، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين.

قضاء الله في بني إسرائيل(*)

اسْتَشرى(٣٠) الفساد في طبيعة اليهود، وتهافتُوا في حَمأة الضلال، وفشا بينهم العِصيان، واضطرب حبلُ الأمان، ولم تعد للرحمة مكان في نفوسهم، ولا هيبة الأنبياء نصيبٌ من قلوبهم. أما أحبارُهم وقُرّاؤهم فقد أنكروا حَق الله، وأما ولاتهم فقد كذبوا الرسل، ونَبَذوا وراء ظهورهم الكتاب، كتاب الله فاستحقوا من الله أن يُذيقهم العذاب، وأن يوقع عليهم شديد العقاب، ولكنه –سبحانه وتعالى– أعدَلُ من أن يأخذ قوماً بالعذاب قبل أن يرسل إليهم النذير، أو يعاقب طغاة ظالمين قبل أن يبيّن لهم وجه الطريق..

وكان "أرمياء" نبيّاً من أنبيائهم، ورجلاً من صميم بيوتهم، فوقف بينهم يصيح بكلمة الحق، ويَصدع(٣١) بأمر الله: أي قومي وأبناء عشيرتي، لقد طال فسادكم وعمّ داؤكم، وسخط عليكم ربكم. هذا كتاب الله وراء كم قد نبذتموه، وذلك حقه فيكم قد جحدتموه، وقد علمتم نِعَمَه عليكم سابغة، وأبرَاد خَيره فوقكم ضافية، وآلاءهَ عليكم ظاهرة وباطنة.. قد مكن لكم في أرضه وأنزلكم إلى حمي بيته، وفضلكم على العالمين في زمانكم.

(*) سورة المائدة: ٧٤ و٧٦، وآل عمران ١٣١.

(٣٠) استشرى: استطار.

(٣١) يقال صدع بالأمر: أصاب موضعه، جاهر به.

لقد كان لكم بالأمس القريب عظة، وفي رحمته بكم عبرة. هذا سنحاريب[٣٢] نزح إليكم من بابل في عَسفه[٣٣] وبطشه، وفي جنده وحزبه، وفي قوته وصبره، حاول أن يغزوَكم في عُقر دارِكم، وأن يتغلغل في صميم بلادكم، ولو خُلي بينه وبين ما يريد لأفنى عددكم. وأذهب جَمْعكم، لكنّ الله رحمكم بنبيكم شعيا، فوقف إلى الله داعياً مُتَحنّثاً، وإليه راغباً متطلباً: أن يصْرِف عنكم السوء، ويدفَع الأذى، ويردّ ما يراد بكم من كيد، فاستجاب الله دعوته، وتقبّل كلمته، ورجع عدوكم مذموماً مدْحوراً، يتعثر في ثوب الخِزْي، ويتسربلُ سرْبَال الهوان، بعد أن هلك جندُه، ودبّت إليهم الأمراض وتحوَنتهم[٣٤] الأسقام.

وماذا كان جزاء شَعيا فيكم[٣٥]؟ وماذا كان مقامه في نفوسكم؟ لو كان في قوم غيركم يَرْعَوْن الجميل، ويحفظون يد الكريم – لظل دهرَه بينهم مرعيّ الجانب مسموع الكلام. ولكن يا حسرة عليكم، ويا بؤساً عليكم لصنيعكم! لقد أهَنتُموه وخذلتموه، ثم قتلتموه وذبحتموه، فأرقتم منه دماً ذكيّاً، وأهنتم كريماً وأبيّاً!! وصعدت روحُه طاهرة وقدّسة، مبرورة مكرمة، تشكو الجوْر والطغيان، وتبرأ إلى الله من العقوق والكفران.

ثم ما زلتم أنتم هؤلاء: تَظاهرون بالإثم، وتواصوْن بالعدوان، ولا تتناهون عن منكر تفعلون كأن التوراة لم تُهَذَّب نفوسكم، وكأن الرسل تنادي في غير دياركم.

اسمعوها كلمةً صادقة، وتلقوه إنذاراً حاسماً: لقد أوحى الله إليّ أن أدعوكم إلى الحق وأنذركم العذاب، والعقاب. لئن لم تُفيقوا من سَكْرَتِكم، وتزجُرُوا غرابَ جهلكم، وترجعوا إلى كتابكم تَستَمْسِكون بعروته، وتحتكمون إلى آياته، وتعودوا قوماً صالحين، ليبعثنّ عليكم عبيداً أشدّاء وجنوداً أقوياء، بأسهم شديد، وعزمُهم حديد، لا تسكن الرحمة في نفوسهم، ولا تعرف الرأفة سبيلَها إلى قلوبهم، يأخذون بناصيتكم، ويُرْغِمون أنوفكم، ثم يجوسون هذه الديار، فإذا تلك القصور التي تَنعمون في ظلالها قد استحالت خراباً يباباً[٣٦]، وإذا تلك الآطام[٣٧] المتراصة أصبحت شِعاباً[٣٨] وحدائقكم التي ترونها ذات بهجة تُضحي عرَّيسات[٣٩] أسود، وحقولُكم تلك التي تجنون ثمارها تمسي مرابض نمور وفهود، والمعابد

([٣٢]) سنحاريب: كان ملك بابل، أراد أن يغزو بني إسرائيل ولكن الطاعون أباد جيشه.

([٣٣]) العسف: الظلم والجور.

([٣٤]) شعيا بن أموص: كان نبياً من أنبياء اليهود.

([٣٥]) تحونتهم: أضعفتهم.

([٣٦]) اليباب: الخراب.

([٣٧]) الآطام: الحصون.

([٣٨]) الشعب: الطريق.

([٣٩]) العريسة: بيت الأسد.

التي خلقها الله روحاً لقوبكم، ومثابة لنفوسكم، ليَنْتَهِكنَّ حرماتها وليستبيحُنَ عَرَصاتها... وهكذا تُصْبحون حَرماً مستباحاً، وكلأ مباحاً، وأنتم بعد ذلك بين أسير وقتيل.

وقد نصحتُ لكم ما وسعني النصح، وأفصحت لكم ما استطعت الإفصاح وأنتم بعد ذلك مُفوضَون في الطريق التي تسلكون، وفي النهج الذي تنتهجون.

قال كبيرهم: أهذا الذي جمعت إليه حشدنا، ودعوت إليه لفيفنا! لقد كذبت على الله، وأعظمت الفِرْية عليه! أكان الله الذي اختارنا من بين خَلقِه، واصطفانا لتلقي كتابه أن يُذهب مُلْكنا على يدّ كفّار لا يعبدون إلا النار ولا تعنو جباههم إلا للأوثان! إنما ترجمُ بالعيب، وتتظنّى بالمنكر، وتضرب في أودية الوهم والضلال.

قال أرميا: يا هؤلاء، إنما يُرسلهم الله عليكم معذِّبين، ويرميكم بهم معاقبين، كما يرسل الطاعون الجارف، أو السيل العارم. وما الفرق بين أن تصيبكم دُوْيهيَةٌ تقطع دابركم أو يظهر عليكم ملك كافر يُذلُّ ناصيتَكم، ويمزّق أوصالكم؟ وشهد الله أني نصحتكم وما غششتُكم، فانظروا لأنفسكم وتخيَّروا لأبدانكم. قالوا: جادَلْتَنا فأكثرت الجدال، وكأنك رأيت رُقعة الحلم وسيعة فأغريت بالكلام، وطائر الصدْر ساكناً فبلغت في الملام، وما نرى لك إلا أن تُغَلّ يداك وتصفّد رجلاك، وتُرْمى في سجن عميق، أو تنفى إلى مكان سحيق. وطلع الصباح وإذا بأرميا مُلْقى في سجنه، مُصَفّداً مغلولاً!

وتلفّتوا إلى الشرق يوماً، فإذا بالغبار يَعلو حتى يبلغ عنان السماء[٤٠]، وينعقد حتى يحجبَ الضياء، ويتكاثف حتى يملأ الأرض حُلوكة وظلاماً، ثم ينقشع هذا الغبار، ويفتضح عن أشْوش[٤١] مقدام، يقطع جيشاً كقِطع الغمام، ما فيهم إلا حَمْس[٤٢] جمع الفؤاد.

كان هذا بختنصر زحف عليهم من بابل، يريد بهم الشر، ويقصد لهم الهلاك، وهو نِقْمةُ الله أرسلها، وغضْبَتُه رمَى بها، فما الذي يستطيع صدَّه؟ ومن الذي يقدر أن يقف جيشه؟ وتساءلوا: أهذا العذاب الذي خوَّفنا به أرميا؟ إن كان هو فقد حَلَّت الداهية ووقعت الكارثة.

ولم يمهلهم بختنصر حتى يتمُّوا حَدْسهم، ويعرفوا ما وراء زَعمِهم، بل انقضّ على المدينة كاسراً، مخرّباً هدّاماً، جريئاً مِقْداماً، لم يصادف منزلاً إلا قوّضه، ولا صرحاً إلا هدمه، ولا طريقاً إلا أخفى رُسومَه، ولا قصراً إلا محا أعلامه.

---

(٤٠) عنان السماء: ما اعترض من أقطارها.

(٤١) الأشوس: الجريء.

(٤٢) حمس: شديد القتال.

وبيت المقدس. انتهك حُرُماتِه، وأسقط شُرُفاتِه، وعطل العبادة في جنباته. أما القوم فقد حاطَهُم قتلاً وذبحاً، وأسراً وسبياً، ثم فرّقهم في الأرض بَدَداً، وترك ديارهم خراباً يباباً.

ومرّت أعوام، وتصرمت أجيال، واشتعبت بختنصر شَعوب[٤٣]، وقُطِعت أسبابه من الحياة، وتولى عرش بابل ملك خافِض الجناح، سهل المقَادة، لدْن العُود. ورأى هذا بني إسرائيل يرْسفون في أصفاد الذل، ويَغدون ويروحون تحت نِيرِ[٤٤] الهوان، فسأل: ما خطبهم؟ وما أسباب هوانهم؟ قالوا: إنهم أسلاف يعقوب، وأحفاد داود، وكانوا يُقيمون في الشام، وبلادهم مَشفوهة[٤٥] الموارد، عَذْبة المناهل، وإن سَلفَك قد أذل أبيَّهم، وأرغم حَميْهم، وفرّقهم في البلاد طرائق، وشرَّدهم في الآفاق حزائق[٤٦] وضرب عليهم ما تراه من ذلٍّ وهوان.

فوجدت هذه الكليمات منه قلباً رحيماً، وصادفت عنده طبعاً كريماً، فنادى فيهم أن اجمعُوا شملّكم، ولمُّوا شتاتكم! وضموا نشركم[٤٧] وثوبوا إلى دياركم، وعودوا إلى ما كنتم فيه من شمل جميع، ونسج متلاحم.

ورجعوا إلى ديارهم، وردّ الله الكَرَّة عليهم، وأمدّهم بالأموال والبنين، وأخصب لهم الزرع، ونما الضرع، واطّردت لهم أسباب السعادة والوئام.

وكان من حقهم أن يَعْتبروا بما كان، وأن يقابلوا النعمة بالشكران، ولكن أنى للنفوس التي طُبعت على الشر أن تسترْوح الخير، وتميل إلى الصلاح! وأنى لسلائل القوم الذين تمالئوا على يوسف، وآذوا موسى من بَعْدِه، أن تأنس نفوسهم إلى الاطمئنان، أو تنسى العدوان!! فإنهم ما عتموا أن رجعوا أدراجهم إلى الشر، وأخذوا يَحطِبون في حبال الظلم والبغي، حتى إذا قام فيهم زكريا ويحيي نبيين رحيمين، ورسولين كريمين، سفكوا دمهما، كأن بنفوسهم عَطشاً إلى الدماء، وكأن وتراً[٤٨] بينهم وبين الأنبياء. وعادوا إلى الشر والعدوان، وعاد الله بهم إلى المكر والانتقام، فسلّط عليهم جُودَرْز كما سلط من قبلهم بختنصر؛ وأعاد الكَرة عليهم مِن ذهاب ملكهم، وتخريب معابدهم. وهكذا مُزقوا كلّ ممزق، وتفرّقوا تحت

([٤٣]) شعوب: الميت.

([٤٤]) النير (في الأصل): الخشبة المعلقة في عنق الثورين.

([٤٥]) ماء مشفوه: كثرت عليه الأيدي.

([٤٦]) الحزائق: جمع حزيقة، وهي الجماعة.

([٤٧]) النشر: القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس.

([٤٨]) الوتر: الثأر.

كل كوكب، وضرب الله عليهم أبَد الدهر الذِّلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ).

عزير (*)

دخل حديقته؛ فإذا هي مخضرَّة العود، وارفة الظلال، دانية القُطوف تَصْدح فيها البلابل، وتُطرِّب الأطيار، فقضى ساعتَه متملِّياً[٤٩] بما فيها من جَلال، مستمتعاً بما تحتويه من شِيات[٥٠] الجمال، ثم ملأ سَلة من العنب، وأخرى من التين، واصطحب مقداراً من الخبز، وامتطى حمارَه وأخذ طريقه إلى المنزل.

وبينما هو يفكر في سر الكون، وعظمة الوجود، ضلّ به السير، واضطرب أمامه الطريق، واشتبهت معالمُ الجهات، وإذا هو في قرية خَربة تُحدث عن قوم فرقتهم عُدَواء الدار[٥١]، وأطلال عافية، وعظام نخرة، وأجساد بالية.

فنزل عن حماره، وألقى بالسلّتين إلى جواره، وربط الحمار، وأسند ظهره إلى جدار حتى يجمع نفسه، ويسترجع قوَّته وفكرَه. ثم طاب له المكان، واستراح إلى النسيم، وأطلق العنان لعقله يفكر في هذه الأموات وكيف تنشر، وتلك الأجساد وأنى[٥٢] تبعث؛ بعد أن أصبحت أديماً للأرض، وتراباً يجود عليها كل أسحم[٥٣] هطال. ثم استحال هذا التفكير إلى سهوم ووجوم، ثم أغمِضت عيناه؛ وتخاذلت ركبتاه، ودخل في نوم مشتمل؛ وكأنه لحق بمن في القبور.

ومرّت مائة عام، وهَرِمت أطفال، وفنيت أعمار، وامِّحت شُعوب، وتقوَّضت صروح؛ وعُزير مُلقى في مكانه جسداً بلا روح! وعظامه ممزقة الأوصال، مهشَّمة المفاصل؛ حتى أذن الله أن يفصّل في قضية حارَ الناس في أمرها، واستعجم عليهم طريقُها، واختلفوا في تقريرها بحكم يلمسونه بأيديهم، أو يقع تحت حِسهم وأبصارهم، فجمع عظامه، وسوّى خَلقه، ونفخ فيه من رُوحه، فإذا هو قائم مكتمل الخلق، شديد البَضعة[٥٤] وإذا هو عُزير يقوم كأنه منتَبِهٌ من نومه، يبحث عن حماره، ويفتش عن طعامه وشرابه!

(*) سورة البقرة ٢٥٩، سورة التوبة ٣٠.

(٤٩) متملياً: متمنعاً.

(٥٠) شيات: علامات.

(٥١) عدواء الدار: بعدها.

(٥٢) أنى: كيف.

(٥٣) أسحم: سحاب.

(٥٤) البضعة: القطعة من اللحم.

وجاء الملكُ يسأله: أتظن كم لبثت في رَقْدتك يا عزير؟ – ولم يُرؤ ولم يفكر؛ فقال: لبثتُ يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مائة عام تسكن هذه الأحداثَ، ويجودك الطّل[٥٥]، وتهْضِب[٥٦] عليك السماء، وتمر عليك السافيات الذاريات[٥٧] ومع هذه السنين الطويلة والأزمان المتعاقبة، فإن طعامَك ما زال سليماً، وشرابك لم يتغيَّر، ولكن انظر إلى حمارك تراه مُفَرقَ العظام، متَقصِّي[٥٨] الأعصاب، والله –جل شأنه– سَيُريك هذه العظام، كيف ينشرها ويحييها، ويبعث الحياة فيها، لتطمئن نفسك بالبعث، ويزداد إيمانك بيوم المعَاد، وليجعلَكَ آيةً للناس تخرُجهم من حنادِس[٥٩] الشك، وتوضح لهم ما استعجم عليهم من مذاهب الإيمان.

وتلفت عزير، فإذا حماره بأشراطه[٦٠] وسماته: قائم على أربع، تجري فيه شرايين الحياة! فقال: (أعلَمُ أنّ الله على كل شيء قدير).

وأخذ حماره، وشرع يتعرف الطريقَ إلى بيته، وقد تبدلت المعالم، وتحولت المنازل. وبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر في حُلم بعيد.. حتى انتهى إلى منزله، فإذا عجوز فانية ذَوَى عودُها، ووهَن عمودها، ولكنها لا تزال باقية على تناسخ المَلَوين[٦١]، وتعاقب الجديدين، وقد عَشى بصرها. كانت هذه أمَتَهُ التي خلّفها في ربيع حياتها، وريَّق[٦٢] شبابها.

سألها: أهذا منزل عُزير؟ قالت: نعم، هذا منزل عزير. وخَنقتها العَبرة ثم جادت عيناها بدمع هَتُون، وقالت: لقد ذهب عُزير، ونسيه الناسُ، وما رأيت من حِقبة بعيدة مَنْ ذكر عُزيراً إلا الآن!

قال: أنا عُزير، أماتني الله مائة عام، وها قد بعثني إلى الوجود، وردّني إلى الحياة. فاضطرب أمرُ العجوز، وأنكرت عليه باديَ الرأي دَعْواه، ثم قالت: إن عُزيراً كان رجلاً صالحاً، مستجاب الدعوة، ما تطلّب أمراً إلا تقَبّل منه الله، ولا تشفع له في مريض إلا شفاه، فادعُ الله أن يُصحّ جسمي ويرد بصري.فدعا الله، فإذا هي ذاتُ بصر حديد، ووجه وضيء! فقبّلت يديه ورجليه، ثم ذهبت من ساعتها

([٥٥]) الطل: المطر الخفيف.

([٥٦]) تهضب: تمطر.

([٥٧]) السافيات الذاريات: الرياح.

([٥٨]) المتقصي: المنفصل.

([٥٩]) الحنادس: الظلمات.

([٦٠]) بأشراطه: بعلاماته.

([٦١]) الملوان: الليل والنهار، وكذلك الجديدان.

([٦٢]) ريق الشباب: أوله.

إلى القوم من بني إسرائيل، وفيهم أبناؤه وأحفاده، منهم من بلغ الثمانين، ومنهم من أخذ بعنُق الخمسين، وفيهم أترابه، وقد برى الدهر عظامهم، وأبلى أبراد شبابهم، وردهم[٦٣] على حافرتهم. وصاحت: إن عُزيراً الذي فقدتموه منذ مائة عام قد ردّه الله رجلاً غضّ الإرهاب، يَخطِر في مطارف الشباب.

وطلع عليهم عُزير رجلاً وافر المُنه، مستوي الخلْق، شديد الأسْر[٦٤]، فأنكروا صِفَته، وأعظموا فِرْيته[٦٥]، ولكنهم أرادوا أن يَفتنوه[٦٦] بالرأي ويمتحنوه بالبرهان، قال أحد أبنائه: إن لأبي شامةً في كتفه كان يتميز بها، ويُعرف بصفتها. وكشفوا عن كتفه، فإذا العلامة كما عرفها أبناؤه، وكما سمع عنها أحفادُه. ولكنهم أرادوا أن تطمئن قلوبهم، وتستيقن نفوسهم، وتمِّحي خيوط الشك من بين جوانحهم، فقال كبير منهم: لقد حُدِّثنا أنه منذ زحف بختنصر على بيت المقدس، ومن وقت أن أحرق التوراة، لم يكن على الأرض من يحفظ التوراة إلا قليلاً، ومنهم عُزير، فإن كنت عُزيراً فاتلُ علينا ما كنت تحفظه منها. فقرأها لهم ولم يترك نصّاً، ولم يحرف جزءاً، ولم يَخرم لفظاً.

عند ذلك صافحوه مصدقين، وأقبلوا عليه مباركين، ولكنهم –لشقوتهم– ما ازدادوا إيماناً، بل ازدادوا كفرة، وقالوا: (عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)[٦٧].

---

(٦٣) ردهم على حافرتهم، ويقال: رجع على حافرته، أي في الطريق الذي جاء منه، أي رده بعد القوة إلى الضعف.

(٦٤) الأسر: الخلق.

(٦٥) الفريه: أشد الكذب.

(٦٦) يفتنوه: يمتحنوه.

(٦٧) ذكر الله لنا قصة العزير لنستيقن أن الذي أحياه سيحيي الناس لأجل الحساب.

زكريا ويحيى[*]

تقدمت بزكريّا السنون، وهو الآن مُشتهب[٦٨] الرأس، واهن العظم، معوجّ القناة، لا يستطيع من المشي إلا بمقدار أن يذهب إلى الهيكل يتعهدُ شؤونه ويُلقي مواعيظه، ثم يتنسك ويَتَأَلَه[٦٩]، ويعود في أعْقَابِ يومه يقضي ظلام الليل، في بيت يحوي زوجَه وهي عجوز مثله، قد اشتعل الرأسُ منها شيباً، ولا يستطيع من العمل إلا بمقدار أن يذهب إلى حانوته ساعة من نهار، فإن أصاب بعض مال مسح دمعة البائس، وقضى حاجة السائل، ثم رجع إلى داره فارغاً إلا من فضل الله، صامتاً إلا عن ذكر الله.

ولكنّه حتى هذه السْنة التي أشرف فيها على التسعين، لم يُرزق طفلاً، ولم يُثمر ولداً، يتخذه سبباً بالحياة، ويصل ما بينه وبين الوجود. فكان يدخل البيت حزيناً، كاسف البال، قليل الرجاء... ثم هو عما قريب يطوي صحيفَة أيامه، ويمضي إلى حِمَامه[٧٠]، فمن الذي يقوم على وراثة حكمته، والاضطلاع بأمانته؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمومته أشرار، لا بد لهم من وازع، وسوائم مطلقة يُعْوِزهم الراعي الرادع، ولو خُلّوا ونفوسهم فإنهم يَمحُون الشريعة، وينشرون الفساد، ويُغيِّرونَ معالم الكتاب.

ظلت هذه الخواطر تحِزُّ في نفسه، وتضطرب بين لفائف صدره، ولكنه كان صابراً متحملاً متجملاً، إلا من زَفرات كان يلفظها كلما جَنَّ عليه الليل، وأنّات كان يُصعِّدها كلما احتواه الظلام.

ذلك قضاءُ الله فمن أجدر بالنبي من أن يتلقاه بالارتياح؟ وتلك حكمته، فمن أحق من زكريا بأن يقابلها بما تستحقه من الإذعان؟ فلعَلَ من وراء ذلك حكمة لا يعلمُها، ولعل الله يؤجل ذلك لغاية هو يجهلها. وله الحمد لله على ما أنعم، ومنا الصبر على ما أراد.

ويذهب زكريا إلى الهيكل يوماً كعادته، ويُصلي ويتنسّك، ويعبد ويهجد، ثم يدخل على مريم في مِحرابها، فإذا هي غارقة في تفكيرها، ذاهبة في صلاتها؛ ثم يرى أمامها شيئاً يذهله، ويثي سؤاله: هذه فاكهة أمامها، عجباً! تلك فاكهة الصيف ولكنا في الشتاء؛ ثم من أين دخلت إليها، إنها من يوم أن تنازع مع القرّاء في شأنها، وفاز سهمه بكفالتها، لا زالت حبيسةً في مِحرابها، محجوبة عن أترابها؛ حتى إنّ أمها من يوم. أن أودعتها الهيكل وفاء بنذرها، وتقرّباً إلى ربها، لم تَسْعَ يوماً إلى لقائها، فمن أين لها هذا الرزق العجيب! وكيف اتفق لها هذا الأمر الغريب!

---

[*] مريم: ٢-١٥.

(٦٨) الشبهة في الألوان: البياض الغالب على السواد.

(٦٩) يتأله: يتعبد.

(٧٠) الحمام: الموت.

ليسألنّها ويستكنّ أمرها؛ فقال : يا مريم أنّى لك هذا! قالت: هو من عند الله؛ يُصبح الصباح فأرى رزقي حاضراً، ويمسي المساء فأرى رزقي حاضراً على أنني ما سعيت هذا الرزق، ولا سألت الله ذلك الخير، ولكنه يأتيني عفواً وأجده أمامي سَهْلاً. ومالكَ تُدْهش وتَعْجب، ومالك تؤخذ وتُشْده! أليس الله يرزق من يشاء بغير حساب!

عند ذلك أدركت زكريا حالٌ جديدة، ودخل في تأمل عميق؛ فقد أثارت في نفسه هذه الفتاة الكريمة، وتلك الربَّانية[٧١] المقرّبة الحنين إلى الوَلد، والرغبة في البنين! حقاً إنه قد وهَنَ منه العظم، ورقَّ الجلد، وبلغ به الكِبَرُ، ولم يَعُد فيه للولد مطمح، وامرأته العجوز العاقر ليس في نفسها لِلنسْلِ رجاء، ولكن أليس الله –الذي اختص مريم بالكرامة، وحباها النعمة، ورزقها الفاكهة الغريبة، تأتيها كل يوم في غير أوانها– بقادر على أن يَرزُقه ولداً، وإن كانت امرأتُه عاقراً، وإن كان قد أصبح شيخاً فانياً! لِيَدْعُ الله، فما هو بيائس من استجابة دعواه

وبسط زكريا يديه متوسلاً، وهمس بصوته داعياً: (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ). وزكريا كان أكرم على الله من أن يردَّ دعوته، وأعز عليه من أن يخيِّب رجاءه، فإنه ما مكث طويلاً حتى نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب: (يَا زَكَرِيَّا، إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا).

وسمع زكريا النداء، فشُده وعَجب. وحاشاه أن يكون غافلاً عن قدرة الله، أو يائساً من استجابة دعواه. ولكن أدركه ما يدرك المؤمَّل وجد رجاءه، والسائل العافي وجد حاجته. ثم عاد فسأل الله: كيف يرزقَه طفلاً، وقد أصبح شيخاً فانياً، وامرأته عجوز عاقر، كما سأل إبراهيم ربه من قبله: كيف يحيي الله الموتى؟ وكيف يُبعث الناس يوم النشور؟ وما كانا بسؤالهما جاحدَين، ولكن ليزداد قلبهما اطمئناناً.

وقالت الملائكة: أليس الله – الذي خلقك من قبل ولم تكُ شيئاً– بقادر على أن يرزقك الولد، وإن كنت في أعقاب[٧٢]أيامك، وأطراف حياتك؟

سأل زكريا ربّه أن يجعل له علامة تتقدّم هذه العناية، وتدل على وقوعها؛ فأجابه الله: إن آيتك أن تَعْجِز عن خطاب الناس بحصَر يعتري لسانَك ثلاثة أيام، وإن أردت الكلام فلا تستطيعه إلا إشارة أو رمزاً.

---

(٧١) الربانية: المتألهة العارفة بالله.

(٧٢) أعقاب: أواخر.

ورزقه الله على الكِبر يحيى، غلاماً ذكياً، فأحكم الله عقله، واستنبأه[٧٣] صبياً. ثم عَشقَ العبادة حتى أصبح مَنهُوك الجسم، نحيل الظل، مُتَضَمِّر[٧٤] الوجه، معروق العظام[٧٥]، واشتهر بالعلم، حتى أحصى مسائلَ التوراة واستجلى غوامضها وأحاط بأصولها وفروعها، وأضحى فيْصل أحكامها، وقاضي معقولها؛ وعُرف بين الناس أنه جريء في الحق، شديد على الباطل، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا صَولَة عاتٍ ظالم.

نقلوا إليه يوماً أن هيرودوس حاكم فلسطين، قد هوِي هيروديا بِنتَ أخيه إذ كانت بين عينيه بارعة الشكل، فتّانة المحاسن، جميلة التكوين، وأنه قد عزمَ على زواجها، والدخول بها؛ وظاهَرَتْه على ذلك أمُّها، وذوو قرباها، فأعلن يحيى أن ذاك زواج باطل لا تقرّه شَريعة، وتأباه رُوحُ الكتاب، وقال : إني لا أعترف به وأجهر باستنكاره.

وشاع رأيُهُ في المدينة، وفي القصور، وفي الخدور، وفي أماكن اللهو، وفي مواطن العبادة. وبلغ هيروديا ما جَهر به يحيى، وما اشتهر به بين الناس؛ فسخطت عليه في نفسها، وأضمرت الحسيكة[٧٦]، وأبطنت الغِلّ. ثم استحال غيظها إلى حزن و كمد، وهمَّ وأسى، وخافت أن تذهب هذه المقالَة برجائها المعسول، وربما صرفت عمّها عن الزواج، ولكنها عزمت على أن تستعين بحسنها وجمالها، فلعل جمالها يُنيلها غرضها، ويحقق غايتها. فتجمَّلت ما استطاعت أن تتجمّل، وعُنِيت بزينتها ما قدّر لها أن تعنى، ودخلت على عمها قسيمةً وسيمة، حسنة الشارَة، جميلة الهيئة. فاقتُنِص بحبائل فتنتها، واختُلب بعذوبة منطقها، ثم سألها أي أمنية تتمنين! قولي فأنا رَهنٌ لإشارتك، قيدٌ بكلمتك!

قالت: إن رضي الملك فلست أبغي إلا رأسّ يحيى بن زكريا، ذلك الذي سَمَّع بالملك وبي في كل مكان، وغمزه في كل نادٍ، إن رضي الملك بذلك فإني قريرة العين، هادئة البال، منقوعة الغليل.

فأجاب هيرود لداعي الهوى، وأصاخ لكلمة الجمال، وأصمَّ عن نداء الضمير والوجدان. وما هي إلا ساعات حتى كان رأسُ يحيى بين يديها، فشفت غلها، وأطفأت وَقدَة غيظها، ولكنها استنزلت لعنة الله عليها وعلى بني إسرائيل.

---

(٧٣) استنباء: جعله نبياً.

(٧٤) يقال: تضمر وجهه، إذا انضمت جلدته هزالاً.

(٧٥) من قولهم: عرق العظم: إذا أكل ما عليه من اللحم.

(٧٦) الحسيكة: العداوة.

مريم[*]

لم تُرزق أمُّها بولد، لأنها كانت عاقراً، وطالما تمنَّته، لتُمتِّع نفسها بمرآه، وتقرّ عيناً بطلعته؛ وكلما رأت طائراً يُطعِم فَرْخه، أو سيدة تحمل طفلها، اشتدت رغبتها فيه، وأحسّت زيادة الميل إليه. ولقد عانت في ذلك مثل ما تُعاني المرأة حينما تجِد نفسها قد حرمت الطفل الذي هو سلوتها في وحشتها، وسميرها في وحدتها، والذي تَبْسِم به حياتها، وتهون به مصاعبها وأوْصابها[٧٧].

وأقضَّ ذلك مَضْجَعها، وودّت لو بذلت أغلى ما تملك، ثم تنظر فترى ولدها يَرْنُو إليها بنظره، ويُقبل عليها بوجهه، فتُفرغ عليه حَنانها، وتغمره بعطفها، وتبذل له من نفسها ما يريح جسمه، وينمي جسده، ويسمو بروحه، حتى يَشِبّ فيصير مِلء سمع الأرض وبصرها.

وقد تكون أمضت الأيام، بل السنين، ترقب تحقّق هذا الرجاء وتنتظر نوال هذه الأمنية؛ وقاست فيها المتاعب: وذاقت مرارة اليأس، وقد تكون أيضاً غَبطت[٧٨] الشجرة المثمرة، والمرأة الولود.

وأنا أراها في ذلك قد لبت نداء جبلّتها، وطاوعت غريزتها؛ فأحلى أماني المرأة أن تجد ولدها بجانبها، وترى طفلها بمرأى منها؛ حتى لقد نرى ذلك في البنات الصغيرات، فهنّ يدلّلن العرائس، ويُناغين الدُمي.

التجأت إلى ربِّ السموات والأرض، وتوسلت إليه في خضوع وخشوع، ونذرت له إن أنالها أمنيتها، وحقّق رجاءها، ورزقها ولداً، تتصدّق به على بيت المقدس فيكون له خادماً وسادِناً[٧٩] فيه. وأخذت العهد على نفسها ألا تستخدمه في شيء بأمر، بل هو لخدمة البيت محرراً، ولسدانته مُخلصاً.

أليس ذلك دليلاً على أنها لا تبغي الخلَف إلا لإشباع رغبتها واستقرار نفسها! فهي لا تريده ليكون عائلاً لها، أو عَضُداً تشدّ به أزرها، بل ترجوه وتأمله. حتى إذا تحقق الرجاء، وأستجيب الدعاء، وهبته لله وحرّرته لخدمة بيته؛ ويكفيها أنها ولدت ليطمئن قلبها، ويشيع السرور في فؤادها.

---

[*] آل عمران ٣٣-٤٧، النساء ١٥٦، مريم ١٦-٢٤، الأنبياء ٩٧، التحريم ١٢.

(*) مريم بنت عمران من سلالة داود. قال ص: خير النساء أربع: مرين بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٧٧) الأوصاب: الأمراض.

(٧٨) غبطت: بمعنى حسدت. إلا أن الحسد مزموم. والغبط محمود. وهو أن تتمنى نعمة دون أن تتمنى حرمان الناس منها.

(٧٩) السادن: خادم بيت الأصنام.

أجاب الله دعاءها، وآتاها سُؤلها، فشعَرت بالجنين يتحرك بين أحشائها، فاخضر عودها، وأشرقت الدنيا في عينيها، وفارقها عبوسُها وافترّ ثغرها، وأصبحت مَرِحة مُقبلة على الحياة بصدر منشرح، تجلس إلى زوجها، تحدّثه عما يجول بنفسها، وما تقدّره لولدها: وهو يستمع إليها مبتهجاً، ويُصغي إلى شهي حديثها مغتبطاً. وغمرَتها نشوة من السرور، أنستهما ما قاسيا في الحياة من ألم ومسحت ما فاضت به عيونهما من شئون[٨٠].

وبينما هي سابحة في أحلامها وآمالها، تُعِدّ للمولود عدّته، وترجو الحياة من أجْله، قلب لها الدهر ظَهْرَ المِجنّ، فبدّلها بسرورها حزناً، وغيرّ فرحها تَرَحاً، إذ مات زوجها عمران. فاشتدّ حزنها عليه، وفاضت دموعها غزيرة لفقده، وقد كانت تتمنى لو أبقاه حتى يَنْعم برؤية فَلذَةِ كبده، ويتملى بقرّة عينه ويَقطِف جَناة بَذْره؟ ولكن قضاء الله حُمّ[٨١]، ولا رادّ لقضائه.

صارت وحيدة مَهيضة الجناح عابسة الوجه، وكلما تقدمت بها الأيام اختلط حزنها بأملها، وأحست آلامها تكثر، ورأت صَرْحَ آمالها ينهار. ولكن رجاءً في الله عَمّر به قلبها، وشعاعاً من الأمل فيما تحمل بين جنبيها، كانا يخفِّفان ما بها من لوعة وأسى، ويسريّان عنها ما كانت تجد من حزن ووحْشَة.

هُيئ لها مثل ما يُهَيَّأ للنساء عند الوضع، ووضعت، وإذا المولود أنثى. ولما عرفت ذلك تحسرت على ما كان من خيبة رجائها، وعكس تقديرها، وتحزنت[٨٢] إلى ربها، إذ كانت ترجو أن تلد ذكراً تَهَبُه لبيت المقدس، وتقفه على خدمته، تقرباً إلى الله، وشكراً على نعمته.

ولكن المولود أنثي، والبناتُ لا يصلحن لذلك. فغشيتها[٨٣] سحابة من الحزن، وغمرتها موجة من اليأس، وسمّتها مريم[٨٤]، وطلبت إلى الله أن يعصمها بعنايته، وأن يكلأها برعايته وأن يجعل فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يُعيدها[٨٥] وذريتها من الشيطان الرجيم.

ألا ترى الآن قلباً محطماً، ونفساً سَحَقها الحزن، وامرأة توالت عليها المحن حتى لتكاد تضيق بها، عاشت جُلّ أيامها، وزهرة حياتها كئيبة كاسفة البال، لأنها لم ترزق الولد، فلما انفرج كربها، وانقشعت

---

(٨٠) الشئون: الدموع.

(٨١) حمَّ: محتَّم.

(٨٢) يقال فلان يقرأ بالتحزين: إذا أرق صوته.

(٨٣) غشيتها: أصابتها.

(٨٤) مريم: معناها العابد.

(٨٥) يعيذها: يحصنها.

غُمتها، وسمع الله دعاءها، واستشعرت الجنين في أحشاءها عَدَا عليها الدهر، فاختطفت المنيةُ زوجَها، وقد كانت تتمنى أن يهَبَ لها الله ولداً، لتجعله مُخلصاً لخدمته، فولدت أنثى، فزاد حزنها، واشتد كربها!

ولكنها انطوت على همّها، والتجأت إلى ربها، فرحم الله ضعفها، واستجاب دعاءها، وقَبِل هبتها، وأتم نعمته عليها، بأن رضي أن تكون ابنتها وفاءً للنذر، وأخبرها بأنه أعلمُ بما وضعت، وبقدر ما وُهبت.

حينئذ سُرِّي عنها، وعلمت أن الله قد اختصها بإكرامه، وأفردها بنعمته! فلفّتها في خِرْقة، وحملتها إلى بيت المقدس، وقدمتها إلى الأحبار، ودفعتها إليهم قائلة: دونكم هذه البنت فإني نذرتها لخدمة البيت. وتركَتْها وانصرفت.

لنترك هذه الأم التي فقدت بالأمس زَوجها، وأودعت اليوم فلذة كبدها بين يدي سَدنة البيت وخدمه: ولنتصورها استسلمت لقضاء الله، ورضيت ما قدَّره لها، واطمأن قلبها لقبول بنتها بقبول حسن، وإيثارها بهذه المكرمة دون غيرها من نساء العالمين.

ولنتخيل أيضاً أنها قد دفعها الحنوُّ، وحرّكتها عوامل الشفقة على بنتها، فذهبت إلى بيت المقدس: تستفسر –من بُعد–عن حالها، وتتعرفُ خبرها، حتى إذا اطمأنت عليها قَفلت راجعة، تحمد أن قَبِل الله قُربانها، وأسبغ نعمتَه عليها.

ولنتبع الآن حال هذه البنت التي خلت ضيفاً على أهل هذا البيت المقدس، فخفّوا إليها سراعاً، وتنازعوا في كفالتها، كل يريد أن يكون المدبر لشئونها، والقائم على تربيتها، لأنها بنتُ إمامهم، وسليلة صاحب قربانهم.

وكان أشدَّهم حَدباً عليها، وأكثرهم رغبة في كفالتها زكريا، فقال لهم: أنا زوج خالتها، فأعطوني إياها، وخصُّوني بالعناية بأمرها، فأنا أقربكم رحماً إليها، وأوثقكم صلة بها.

اشتد النزاع، وكثر الجدال، وطال الحوار، واسترسل كلٌّ يدلي بحجته، ويبين فضله على غيره، ويطلب في إلحاح وعنف أن يستأثر بها، ويختص بكفالتها. ولم تجتمع كلمتهم على تسليمها لأحد، لأن كلاً منهم كان يرجو الزُّلفى[٨٦] إلى ربه.

وقد كان زكريا يرى نفسه أحق بهذا الفضل، وأولى من غيره بذلك الشأن. وبعد ما لمسوا استحالة اتفاقهم، وأحسوا افتراق شملهم، أعلنوا أنهم لن يخضعوا لرأيه، أو يؤثروه على أنفسهم، حتى يقترعوا عليها.

([٨٦]) الزلفى: القربة والمنزلة.

فرضي زكريا بذلك حكماً بينه وبينهم. وانطلقوا جميعاً إلى نهر، فألقوْا فيه أقلامهم[٨٧]، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، ورسبت أقلامهم. فانصاعوا لرأيه، وخضعوا لإرادته، وسلموها إليه، فتكفلها، وصار وليَّها، والقائم بتربيتها.

أراد زكريا أن يمهد سبيل الراحة لتلك التي ألقى الله إليه مقاليد أمورها، ودفعه حب الاستئثار إلى أن ينأى بها عن الناس، ويُبْعدها عن ضوضائهم، ويخص نفسه بخدمتها، ويحرَّم على غيره الدخول إليها، فبنى لها غرفة عالية في بيت المقدس، لا سبيل إليها إلا بالصعود في سُلّم.

وكان دائماً يتفقد شؤونها، ويتردد عليها في محرابها، ليطمئن على حالها، ويمهد لها سبيل عيشها.

ولا ريب أنه كان قرير النفس بكفالتها وأنه لذلك عُني براحتها، وتوفير أسباب السعادة لها، واستمر على ذلك حتى رأى يوماً شيئاً عجب له، بل شُدِه وتحيَّر في أمره.

ذلك أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب[٨٨] وجد عندها رِزْقاً، وعَهْدُه بها ألا يدخل إليها أحد، أو يطرقَ باب حجرتها طارق؛ ولم يحمل إليها مثل هذا الرزق، أو يَعلم شخصاً قد أدخله عليها! وكثر تفكيره في الأمر، ومال إلى الوقوف على سره.

لم يستطع تعليلَ ذلك، فحاول الوقوف على السر العجيب، وطرق كذلك أبواباً عدّة فلم يوفق. وأشكل عليه الأمر والتَوَى، فدخل إليها، وقال: يا مريم؛ أنة لك هذا الذي لا يُشبِه أرزاق الدنيا، وهو آتٍ في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك، ولا سبيل للدخول إليك؟

فقالت: إنه من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

هناك عظم تقديره لها، واشتد حدبُه عليها، وعلم أن الله قد اختصها بمنزلة دونها منازلُ الناس، وأنه قد اصطفاها على نساء العالمين.

وقد أثارت في نفسه تلك المكرمات التي أجراها الله على يدها، كامنَ الرغبة في أن يهب الله له ولداً من صلبه.

---

(٨٧) الأقلام: سهام الاقتراع.

(٨٨) المحراب: المصلى.

وليس من شك في أنه الآن قد جاوز السن التي يُرْزق فيها الرجال بالأولاد، وأن زوجته قد يئست من ذلك، ولم يَعُدْ لها أمل فيه، لكن رحمة الله واسعة، وقدرته لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض، وهو يعلم ذلك ويعرفه. لذلك اتجَه إلى فاطر السمواتِ والأرض، وناداه نداءً خفيًّا، وتمنى أن يُسبِغ عليه هذه النعمة، وأن يحقّق له تلك الرغبة وقال[٨٩]: (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ[٩٠] مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا).

فاستجاب الله دعاءه، وآتاه سؤله؛ وقال: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا).

نمت مريم وترعرعت، وشبَّت واستدّ[٩١] ساعدُها، وعمر قلبها بالتقوى والصلاح، ومكثت بالبيت تعبد الله الذي يرسل إليها رزقاً رَغداً، وأخلصت في القيام بسدانة البيت وخدمته؛ حتى صارت مضرب الأمثال[٩٢].

عيسى[*]

عيسى الوليد

في يوم ما اعتكفت مريم كعادتها، تصلي لله وتعبده، فاضطربت نفسها فجأة وداخلتها رَهْبة لم تعهدها من قبل، وظهر أمامها ملكٌ من السماء، وقد تمثّل لها بشراً سويّاً، لتأنس به، ولا تنفر منه. فحاولت الهروب، واستعاذت بالله إذ ظنته معتدياً أثيماً، وفاجراً زنيما[٩٣]، وهي التقيةُ المؤمنة، العفيفة

([٨٩]) مريم ٢-١٥.

([٩٠]) كان مواليه عصبته إخوته وبنو عمه، شرار بني إسرائيل. فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه وألا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدي به في إحياء الدين (الكشاف ٢-٢).

([٩١]) استد: اشتد وقوي.

([٩٢]) جعل الله نفسيّة كل نبي مماثلة لدينه حتى يكون النبي متمثلاً شريعته قلباً وقالباً. لذلك نجد اختلافاً بيناً بين شرائع الأنبياء فيما لا يتعلق بالأمور الاعتقادية.

([*]) مريم ١٦-٢٤، البقرة ٨٧، آل عمران ٤٥-٦٠، النساء ١٥٦-١٥٩ و ١٧١ و١٧٢، المائدة ١٧، ٤٦ و٧٢ و٧٥، التوبة ٣٠ و ٣١، المؤمنون ٥٠، الزخرف ٥٧- ٦٥. الصف ٦ و١٤، المائدة ١٠٩- ١٢٠، الحديد ٢٦ و٢٧، التوبة ١١١.

([٩٣]) الزنيم: اللئيم المعروف بلؤمه أو شره.

الطاهرة. ولكنه أعاد إليها طمأنينتها، وسكَن رَوْعَها، ثم أخذ يتحدث إليها قائلاً: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)[٩٤].

فغشيتها سحابة من الحزن، وطافت بها موجة من الأسى، ولكن هَوْل الموقف وشدّته لم يعقد لسانها؛ بل استجمعت شاردة قوّتها، وخرجت من صَمْتِها، وحاجَّته قائلة: (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا).

(قَالَ: كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا). ثم مضى واختفي.

جلست مريم حائرة تفكِّر فيما سمعته، وأوجست في نفسها خيفة، ولا شك أنها تخيّلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بَعْل[٩٥]، وأنها قد أفزعتها هذه الأفكار، وصيرتها قلقة مضطربة؛ إذ قد بدت تفطِن إلى الريبة التي سوف تخامر قلوب الناس، والشكوك التي ستخالج نفوسهم. فأصبحت تحبُّ العُزْلة، وتميل إلى الانفراد. واستحوذ عليها الحزن، وغلب عليها الخوف، وصارت دائمة التفكير في ذلك السر الرهيب الذي أغلق عليه داخل أحشائها.

مرت أشهر، وهي تقاسي الآلام النفسية المبرّحة، وتتعاورها الأحزان، وتنتابها الوساوس، وتمضي أكثر أوقاتها منفردة كئيبة، لا يهنأ لها عيش، ولا يطيبُ لها طعام ولا شراب؛ وكثيراً ما كانت تُرى شاردةَ الفكر، موزعة النفس، لا تصغي إلى حديث، ولا تعْنى بأمر.

حَلَتْ تلك الفتاةُ المثقلة بالهموم في "الناصرة"، منبتها ومسقط رأسها، وأقامت في بيت ريفي، خلا من كل بهجة ورُواء. وقد تكون اتخذت هذا البيت جُنّة[٩٦] لها تتستر فيه عن أعين الناس، وتختفي به عن أنظار الرقباء. وأظنها كانت تنأى عن الاختلاط بقومها، والاتصال بعشيرتها، متظاهرة بالتعب والإعياء، خوفاً من أن يُفَضّ مكنون سرها، ويُكْشف مستور أمرها، فتلوك الألسنة اسمها، ويتحدث الناس في شأنها. وكانت كلما تقدمت بها الأيام زاد همُّها، وكثر حزنها؛ فسيظهر ما تحرص الآن على أن تخفيه، ويشيع ما تحاول أن تستره!

---

(٩٤) زكياً: صالحاً.

(٩٥) البعل: الزوج.

(٩٦) جنة: ستر ووقاية.

رُحْماك يا رب! ما هذا الذي يخبئه لها القدر، وما الذي تكنّه لها الليالي! إنها من أسرة أصلُها ثابت وفرعُها في السماء، لم يكن أبوها امرأ سَوْءٍ[٩٧]، وما كانت أمها بغيّاً؛ فكيف تلوك الألسنة الحديث في عرضها؟ وبماذا تدفع عن نفسها تلك التهمة التي ستُرى بها! حقاً إنه أمر ترتعد له الفرائص، ويشيب من هَوْله الولدان. أيزعمون أنها فقدت أثمنَ ما تحرص عليه الفتاة، ويقولون: إنها أوْدت بكرامة أهلها، ووسَمتْ أسرتها بما يَثْلِم شَرَفها، ويُنزلها من عليائها، ويُلْصق بالرَّغام[٩٨] أنفها! إن ذلك لعظيم! كلُّ ذلك كان أو سيكون، مع أنها لم ترتكب إثماً، ولم تقترف ذنباً، وهي بَرَاء[٩٩]، من كل ما يجول بنفوسهم، وأبعد ما تكون عما يمرُّ بخواطرهم.

وهل تستطيع، وهي في هذا الحرج والضيق، إلا أن تستسلم لقضاء الله، وتنتظر ما يأتي به القدر، وما تكنُّه الأيام!

وليس من شك في أن ما درجت عليه من عبادة الله وتقواه خفف عنها بعض ما كانت تعانيه، وجعلها تترقب لضيقها فرَجاً، ولنفسها الفَزِعة[١٠٠] سكوناً وأمناً. أو لم يُنْبئها الْمَلَكُ أنها ستلد مَنْ يكلِّم الناس في المهد! أليس ذلك كافياً لردّ كيد الناس، وأوضح برهان على براءتها وطُهرها!

كان ذلك هو سَلْوتها، وأملها الذي تتعلق به، وترجو الخلاصَ من طريقه.

اقتربت ساعة الوضع، وأحستْ ألَمَ المخَاض[١٠١]، وخرجت من القرية، فأجَاءهَا[١٠٢] المخاضُ إلى جذع نخلة يابسة، وهي وحيدة منفردة بلا بد شفيقة تسدّدها وتساعدها، وتخفف آلامها وتعالجها. هناك قاست تلك الأم العذراء آلام الوضع، وفي الفضاء الواسع ولدت الطفل.

آلمتها تلك الوَحدة، وحزّ في نفسها رؤية تلك المرة، فنظرت إلى الطفل في حسرة واكتئاب، وجعلت تتمنى لو ضمّها القبر، وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أمّاً من غير أن تتزوج، فقالت: (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا).

---

(٩٧) سوء: شر.

(٩٨) الرغام: التراب.

(٩٩) براء: بريئة.

(١٠٠) الفزعة: الخائفة.

(١٠١) المخاض: وجع الولادة.

(١٠٢) فأجاءها: فألجأها.

هي الآن لا تدري ماذا تفعل! سُقِط في يدها، وتحيّرت في أمرها، واشتد حزنها، وغلى مِرْجل غيظها، وجلست حانقة ساخطة. ولكنها ما لبثت أن سمعت صوتاً يَرِنُ صدّاه في أذنها. فبدّد الصوتُ مخاوفها، وكفكف دموعها، وناداها من تحتها: (أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)[١٠٣]، يجري ماؤه في تلك البقعة الجرداء (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)[١٠٤]، فكلي منه ليعيد إليك بعض ما فقدتِ من قوّة، وقرّي عيناً، واطمئني قلباً، بما تَرين من قدرة الله التي أخضر بها جذع النخلة اليابسة، وطِيبي نفساً بما حباك الله من جَريَان الماء في تلك البقعة المقفرة.

قد كانت تلك المعجزة[١٠٥] –بلا شك– أقوى دليل على براءتها وأسطع بَرهان على طُهْرها، وقد كانت آية بينة تردُّ بها قذفَ القاذفين، وعيب العائبين. ولكنها إنما تدفع بها التهمة، وتقيم بها الحجة على من يحاجونها في هذا المكان الذي أجاءها المخاضُ إليه، وهي تريد الجواب الذي تجيب به لُوّامها، والزّارين[١٠٦] عليها، والمعيِّرين لها، وهم الذين سيستقبلونها في القرية، ويَسلُقونها بألسنة حِداد. لذلك لم تتبدد مخاوفها، ولم تنقشع سَحابَةُ حزنها.

وكأن ذلك المولود الصغير، وقد أطْلعَهُ الله على سبب حيرتها، وكشف له عن دخيلة نفسها. فكفاها الكلامَ ما يبرئها، وأخذ على نفسه الجواب عما يوجَّه إليها. فقال: (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا).

اطمأنّت نفسها، وعاد إليها ما عزَب [١٠٧] من لُبِّها، واستجمعت قوّتها، ورجعت إلى القرية، وأتت به قومها تحْمِله. وسرعان ما شاع أمرها، وعُرف خَبرها، فَسرَحُوا في عرضها، وتحدثوا في طهرِها، وأخذ بعضهم يوجه اللوم إليها، ويشتد في تأنيبها وتقريعها، ويُذكِّرها بشرف أسرتها، وكرم مَحتِدها [١٠٨]، فقالوا: (يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا[١٠٩] يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا).

---

(١٠٣) السري: الجدول.

(١٠٤) تساقط: تسقط.

(١٠٥) المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة.

(١٠٦) الزارين: العائبين.

(١٠٧) عزب: بَعُد وغاب.

(١٠٨) محتدها: أصلها.

(١٠٩) فريا: جديداً منكراً.

لم تنفرج شفتاها، وعَقدَ الحياءُ لسانها، فالتزمت الصمت، وأبت الكلام، وقالت: إني نذرتُ للرحمن صوْماً، فلن أتكلم بكلمة أو أردّ سؤالاً. وإن أردتم الوقوف على جَليَّة الأمر فها هو ذا – وأشارت إلى الغلام، أن كلِّموه! فعجبوا من أمرها، وسخروا من إشارتها، وقالوا: (كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا).

ولكن الله أنطق لسان ذلك الصغير[١١٠]، وأطلق الصوت من تلك اللَّهاة التي لمَّا يكتمل تكوينها بعد، وحرّك تلك الشفاه التي لم تهتد إلى موضع الأثداء! فالتفت الغلام موجِّهاً إليهم الخطاب في وضوح وبيان، ولكنه لم يتحدث إليهم فيما وجَّهوه إلى أمه من لوْم، أو يجادلهم في تهمهم التي ألصقُوها بتلك البارّة، بل قال: (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا).

أتراه بعد هذا في حاجة إلى دليل يمحق باطلهم، أو برهان يبيّن كذبَهُم! ألم ينطقه الله بالحكمة، ويُعدّه للنبوة، وهو لم يزل في المهد صبياً، وفي حِجر أمه طفلاً؟ قد كان هذا آية على براءتها، ومعجزة دالّة على طهرها؛ إذ القدرة التي أنطقته بالحكمة في هذه السنّ لا تَعْجز عن خلق مثله من غير أب. فبكَلمة منه خُلِق فلْيكفُّوا إذاً عن لومهم، وليتجنبوا الخوض في عِرْضها، وإشعال الفتنة حولِها.

ولا نظن إلا أن هذا الصوت قد بَهَرهم، وتلك الآية أخرست ألسنتهم، وأن هذه الحكمة من طفل في مَهْدِه قد ذاع أمرها في القرية، وانتشر خبرها في هذه الحِلّة[١١١]، وصارت حديث الناس في دورهم، ومجال القول في أنديتهم. فأكبروا من شأن هذا الوليد، وبدّلوا بظنهم السيءّ يقيناً ببراءتها، وعلموا أن هذا الصبي ليس كصبْية القرية، بل سيكون له شأن خطير، وخطب جليل.

وليس لك أن تتصور أن هذا هو ما اعتقد الناس جميعاً! فمحالٌ أن تجتمع كلمتهم على شيء، بل إني لأرى بعضهم قد ظنه حديث خرافة، أو حسبه شيئاً ابتدعه أهلها، رغبة في إظهار براءتها وسَتْر فعلَتها، وحبّاً في قطع ألسنة السوء التي شُواظها يُلْهبهم ويؤذيهم. ولا شك أن هؤلاء الذين لم تقْرَع أسماعَهم الحجة، ولم يمح شكهم البرهان الواضح كانوا قِلَّة، وكانوا من الجهالة بحيث لا ينصاعون للحق، ولا تبدد وساوسهم الحجة البالغة، والآية البينة، فلم تستسغ عقولُهم أن الله الذي يُمْسك السموات والأرض أن تزولا، وبيده ملكوتهما، قادر على أن يخلق إنساناً بكلمة منه، وأن ربهم الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون يستطيع أن يخالفَ المنهج الذي ألفوه، والطريق الذي اعتادوه.

---

(١١٠) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى وصاحب جريج، رواه ابن كثير.

(١١١) حلة القوم: البيوت.

وخَلْق هذا شأنهم أجدر بأن تنبذهم نَبْذَ النواة، وأولى ألا تقيم لكلامهم وزناً. ولا لرأيهم قدراً. ولعل حقداً نَشِبَ[١١٢] في صدورهم، وغِلاً تمكن من نفوسهم، فأعمى أبصارهم، وطبع على قلوبهم، لذلك نراها لم تحتفل[١١٣] بتلك الفئة القليلة الظالمة، ولم تُعْنَ بتلك الجماعة المكابرة، وأقامت في القرية تُعْنى بطفلها، وتُرَبّي وليدها، قريرة النفس، منشرحة الصدر، لأنها تعلم أن الله سوف يكلؤه[١١٤] برعايته، ويحفظه بعنايته، حتى يؤدّي رسالتَه.

نبوة عيسى[*]

نشأ عيسى كما ينشأ كثير من الأطفال، وشبّ كما يَشِبّ جُلُّ البنين، إلا أنه قد ظهرت بوَادرُ فضله، وبدت مظاهر نبوّته. فهو إذ يلعب مع لِداته، ويلهو مع أقرانه، ينبِّئُهُم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. وهو إذ يذهب إلى معلّم القرية، و يجلس إليه، لا يَنهَجُ منهج غيره، ولا يسلك سبيل أنداده، بل تراه يستمع إلى حديثه في جدّ واهتمام، ويُصغي إلى دروسه في شوق ولهفة. ثم هو لا يعلِّمه شيئاً إلا بَدَرَه[١١٥] إليه، وسَاءَله عنه، فلا تغيب عنه شاردة، ولا تنبو عن ذهنه مسألة.

ثم يرحل إلى بيت المقدس مع أمه. ولم تعْدُ[١١٦] سنُّه الثانية عشرة من عمره، فلا يبَهره ما يرى من جماعات مختلفة، وألوان من الناس متباينة، ولا يفتنه ما يقع عليه بصرُه من مشاهد رائعة، ومظاهر خلابة ساحرة، ولم تُلْهه تلك المدنيَّة بزيفها، أو يَزُع بصره من زخرفها. وهو في هذه السنّ التي هي في مجرى العادة لا توحي إلا بالعبَث، ولا تدفع إلا إلى اللهو، ولكنه يُغضي عن كل ذلك، ويلقي بنفسه في ميدان العلم، يستقي من مَوْرِده، ويرتوي من مَنهله، ويلزمَ حلقة الدرْس يصغي لمن اتخذوا لأنفسهم سمْت العلماء، وهم يُزَخْرفون للناس أحاديثهم.

ولما اندمج في جماعتهم، واحتوته حَلْقتهم، أنصت إلى حديث الكهنة كما ينصت الناس، واستمع إلى آرائهم كما يستمعون، فوجَد القوم يؤمنون بكل قول، ويصدّقون كل حديث، وهم جميعاً ينصتون كأنّ على رؤوسهم الطير. فلم يلبث أن انبرى من بينهم متسائلاً، وانتفى سيفَ الحق مقاتلاً. فنقم[١١٧] بعض

---

(١١٢) نشب: علق.

(١١٣) لم تحتفل: لم تبال وتهتم.

(١١٤) يكلؤه: يرعاه.

(*) آل عمران ٤٩-٥١.

(١١٥) بدر إليه: استبق إليه.

(١١٦) لم تعد: لم تجاوز.

(١١٧) نقم: غضب وحقد.

الناس منه جرأته، وأنْكروا عليه مسألته، وضاق العلماء به ذَرعاً، وأوسعوه تأنيباً، إذ لم يعهدوا قبله أن يجترئ أحد على جِدالهم، أو يُقْدم سامع على البحث في قولهم.

ولكنه لم يعبأ بما كالوا له، ولم يصرفه ما قابلوه به، بل استمرّ يُمطِرهم بأسئلته ويسد المسالكَ أمامهم بمحاجَتِه.

وأنساه ذلك طعامه، وألهاه عن شرابه، وانتظرت أمه أوْبتَه[١١٨]، ولكنه لم يرجع، فبحثت عنه في كل مكان تظنه يهواه، وفتشت عنه في كل مَجال تحسبه يَرُوده، ولكنها عادت يائسة من لقائه، ورجعت غير آملة في العثور عليه.

ولما أعياها البحث ظنته قد رجع مع بعض أقاربه، أو سافر به بعض أهل بلده، فعادت إلى قريتها، وهي تحسب أنه قد سبقها إليها. وسألت عنه فلم تجده، وحاولت أن تقفَ على خبره، وتتسمّع نبأه، ولكنها لم تجد صدى لصوتها، ولا أثراً لندائِها، فقفلت راجعة إلى بيت المقدس تعيد الكرّة في سؤالها، وتطلب المزيد من بحثها.

ولم تترك في هذه المرة مكاناً إلا دخلته، أو باباً إلا ولجته، وبينما هي مجدّة في بحثها، وقعت عليه عيناها، وقد اندمج في زُمْرة العلماء، وزجّ بنفسه في لجة الباحثين. وهو يكثر معهم الحوار، ويتطاول عليهم في الجدال، فدهشت لما رأت، وأزعجها ما شاهدت، ودعته إليها، وساءلته عما ألهاه عنها، وأنَّبته لفعلته، وعنَفَتْه لغيابه، ولامته على أنه قد أتعبها في البحث عنه، وأضناها في السؤال عن مكانه. فأجابها بأنه قد استهوته مُناقشة الحكماء، ومناقلة العلماء.

ثم سار مع أمِّه، ورجع إلى "الناصرة"[١١٩].

ولما بلغ الثلاثين من عمره هبط عليه الرُّوح[١٢٠] الأمين، فكان ذلك بَدْءَ الرسالة، وفاتحة النبوّة. ثم تَلَقَّى عيسى من ربه الكتاب الذي جاء مصدّقاً لما بين يديه من التوراة، فأخذ يؤذِّن في الناس برسالته، ويدعوهم إلى متابعته، ويسعى في أن يرد اليهود –عن زَيْغِهم، ويصدّهم عن ضلالهم... فقد انحرفوا عن الطريق القويمة، وحرّفوا شريعة موسى السمحة، وجعلوا همهم جَمْعَ المال. فصاروا يحرّضون الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكل ما استطاعوا من نذور، ويُؤثرون بما ملكت أيمانهم من هِبات، ليسيل

([١١٨]) أوبته: رجوعه.

([١١٩]) الناصرة: البلدة التي نشأ بها.

([١٢٠]) الروح الأمين: جبريل.

النُّضار[١٢١] إلى جيوبهم، ويتدفق الذهب في خزائنهم، وإن كان من يحرضونهم في أمس حاجة إلى المال: يعولون به آباءهم، ويمسكون به رَمَقَهم[١٢٢]، ويسترون به أجسامهم.

وكان من اليهود طائفة أنكروا القيامة، واستبعدوا الحشر، وكذبوا بالحساب والعقاب، وطائفة غيرهم ألهتهم الحياة الدنيا، وانغمسوا في ملاذها، وأقبلوا على شهواتها يَستسرون بها ويتسترون عن أعين الناس وهم يقترفونها، يُراءُون الناس، ليوقعوهم في مخالبهم ويبتزُّوا أموالهم.

هذه كانت الحال عندْما بزغ نجم عيسى، وأشرقت شمسه، وبعثه الله ليخرج قومه من الظلمات إلى النور، فلم يترك سبيلاً لهدايتهم إلا سلكه، ولا باباً إلا طرقه: يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة، ويخلصهم من تلك الحَمَأة..

وشعر رجالُ الدين بالتيار يَجرفهم، وأحسوا بالخطر يدهمهم، فها هو ذا عيسى ينكر عليهم انغماسهم في الشهوات، وتهالكهم على اللذّات، وتسابقهم إلى جمع المال، ثم هو يفضَح أسرارهم، وينشر بين الناس مخازيهم!! فأجمعوا أمرهم بينهم على مناوأته! أينما حلّ، وتكذيبه حيثما ذهب.

ولكنه لم يبالِ جمعهم، ولم تثنِيه منا وأنهم، بل صمد في سبيل الحق، وثبت لدعوة الصدق، وسار متنقلاً بين القرى يزيّف آراءهم، ويفنِّد أقوالهم. فطالبوه ما يؤيد رسالته، ويثبت دعوته، ويدلهم على نبوته. فأيده الله بالمعجزة الباهرة، وآزره بالآية البينة، فصار يَخلُق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرئ الأكْمَه[١٢٣] والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله[١٢٤].

ولا شك أن ذلك أمراً لا يستطيع أحد أن يعالجه، ولا يقدر بَشَر أن يأتي به إلا بتأييد من الله، ونَصرٍ من عنده. ولكنهم مع قيام حُجّة عيسى، ووضوح آيته، تمادوا في طغيانهم، وثبتوا على ضلالهم، وقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين.

ثم وجدَت دعوته آذاناً صاغية، وقلوباً واعية عند كثير ممن لم تفتهم زخارف الدنيا، ولم تمتدّ أعيُنهم إلى متاعها. ودفعته الحميّة لدينه، إلى أن ينقضَّ على رجال الدين في حُجْرهم، ويَقتحِم عليهم حِصنهم. فرحل إلى بيت المقدس، واختار يوم عيدهم، و وقت اجتماعهم، وعرض دعوته على الوافدين

---

(١٢١) النضار: الذهب.

(١٢٢) رمقهم: حياتهم.

(١٢٣) الأكمه: الذي ولد أعمى.

(١٢٤) مناوأته: معاداته.

من شتى القرى، والنازحين من مختلف المدن. فالتف الناس حوله، وتفتحت قلوبهم لحديثه، وكثر أنصاره، وانتشر أتباعه.

فأثار ذلك حفيظة[١٢٥] الكهنة، وحرّك كامن غيظهم، ودفعهم إلى التفكير فيما يريحهم منه. ويكفيهم شره. ولكنهم لم يستطيعوا أن يمسُّوه بأذى، أو ينالوه بضرر، فقد وعد الله بحفظه، وأيّده بنصره. (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).

المائدة[*]

خرج عيسى يَجُوب[١٢٦] البلاد، ويجول في القرى: يدعو إلى دين الله، ويؤذِّن في الناس برسالته، ويحاول أن يقوِّض صروح الظلم، ويطمسَ معالم الشرك، وكان معه الحواريون[١٢٧]، يشُدّون أزْره، ويشتدّ بهم عضده، ويقاسمونه سروره، ويخففون عنه أحزانه، ويحتملون معه وعْثاء السفر، وشظف العيش، ويحولون بينه وبين أعين الرقباء الذين يتبعون ظله أينما سار، ويطاردونه حيثما حلّ. فقد كان عيسى من أسرة قلّ أعوانها، وعز نصراؤها، وخمدت جَذْوة العصبية فيها، وللعصبية أثرها في دفع المعتدين، وردّ كيد الظالمين: ألم يقل قوم شُعيب لنبيهم: (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)[١٢٨].

أقاموا بقرية، وارتحلوا إلى أخرى، وتلبّثوا بثالثة، وحَطُّوا رحالهم بغيرها، وهكذا حتى أدّت بهم خاتمة المطاف يوماً إلى مَفازة[١٢٩]، مترامية الأطراف، وقد أجدبت أرضُها، وأقفرت جنباتها... هناك طوَوا[١٣٠] من الجوع، وجفَت منهم الحلوق، ووهنت قوّتهم، وفترت عزيمتهم، واشتد بهم الكلالُ والإعياء. فنزلوا على غير ماء وطعام، وجلسوا يتبادلون الحديث في شؤونهم، ويقلّبون وجوهَ الرأي في أمرهم، علّهم يهتدون على خير الطرق لبثِّ دعوتهم، ومغالبة الصعاب التي تعترضهم، والنجاة من الأعداء الذين يترصّدونهم. وكان عيسى يحيي آمالهم، ويَشْحذ عزيمتهم، ويخفف آلامهم، ويواسي المكتئب منهم، ثم لا يفتأ يبيّن لهم ما اسْتَغلق عليهم فهمُه، ويوضح ما انْبهم أمامهم أمره.

([١٢٥]) الحفيظة: الغضب.

([*]) المائدة ١١٢– ١١٥.

([١٢٦]) يجوب: يتجول.

([١٢٧]) الحواريون: خلصاء عيسى وأنصاره.

([١٢٨]) هود ٩١.

([١٢٩]) المفازة: الصحراء المقفرة.

([١٣٠]) طووا: خلت بطونهم.

وهؤلاء الحواريُّون –وإن كانوا قد شَهدوا برسالته، وآمنوا بنبوَّته، واجتمعوا تحت رايته، واستماتوا في سبيل نُصرته– لا يزالون في حاجة إلى أن يزدادوا يقيناً على يقينهم، وإيماناً إلى إيمانهم.

وجاشت تلك الرغبة في نفوسهم، فلم يلبثوا أن كشفوا لعيسى عما اختلج في صدورهم، فقالوا: يا عيسى، هل يستطيع ربُّك أن يُنزل علينا مائدة من السماء!

لم يكن ذلك منهم شكّاً في قدرة الله، أو طعناً في نبوّة عيسى، فحاشاهم أن يكونوا من الشاكِّين في قدرة الله، أو المرتابين فيها، بعد أن آمنوا بالله وبرسوله وقالوا لعيسى: آمنا واشهَدْ بأننا مسلمون، أسلمنا لك قيادنا، وألقينا إليك مقاليدنا.

وقوم هذا شأنهم لا يسلك الشك سبيلاً إلى نفوسهم؛ وإنما سألوه تلك الآية كما سأل إبراهيمُ ربَّه من قبل، إذ قال: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى. قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)[١٣١].

قال لهم عيسى، وقد عجب من أمرهم، وخاف عاقبة سؤالهم: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، واحذروا أن تقترِحوا أمثال هذه المعجزات، لئلا تكون فتنة لكم، وسبباً في فسادِ أمركم، أو لم تَرَوْا ما تطمئن به نفوسُكم، ويزيل كل شَك تُحسُّونه في قلوبكم!

إن ذلك قد ينبئ عن عناد ومكابرة؛ فما لكم تقترفون هذا الإثم، وترتكبون ذلكم الجرم، وتطلبون تلكم المعجزة بعد أن رأيتم ما أجرى الله على يدي، من إبْراء الأكمَه[١٣٢] والأبرص، ثم ما شاهدتم من إحياء الموتى بإذن الله؟ فهل انتابكم الشك، وداخَلكم الرَّيب، وتسرّب إلى نفوسكم الظن، بعد أن رأيتم من الآيات ما يمحَق كل باطل، ويَمحُو كل شك! يا قوم، دعوا هذا اللجاج[١٣٣]، واتركوا تلك الوساوسَ إن كنتم مؤمنين.

هدّءوا روعه، وسكّنوا من جأشه، وأبانوا له عن حقيقة الأمر وجَليّتِه فقالوا: قد كنا صادقين في إيماننا، مخلصين في إسلامنا، ولسنا منكرين لآياتك، أو شاكّين في رسالتك، ولا زِلنا مُقرّين بنبوتك، مؤمنين بدعوتك، وما دَفعنا إلى انتهاج هذه الطريق، وحملنا إلى اختيار تلك الآية، واقتراح هذه المعجزة

---

(١٣١) البقرة ٢٦٠.

(١٣٢) الأكمه: الذي ولد أعمى.

(١٣٣) اللجاج: الخوض في الباطل.

إلا أن لها فضلاً ومزية. فنحن نريد أن نأكل منها[١٣٤]، ألم ترنا وقد خَوَتْ منا البطون، وأصبحنا لا نجد ما يمسك رمقنا، و يخفف من سغَبنا[١٣٥]!

على أننا قد علمنا قدرة الله بالدليل، وشاهدنا آثاره بالبرهان، وعرفنا آياته بقراءة صُحُف الكوْن، فآمنا به، وصدّقنا برسالته إليك. فإذا جئتنا بتلك المعجزة اطمأنت قلوبُنا، وازداد يقيننا، وثبت إيماننا.

ولتَعلم أننا على يقين أنّ معجزاتك تشفي أمراضَ القلوب، وتستأصل بذورَ الشك، وقد سبق أنّ أيّدت لنا نبوَّتك، وعلمنا بها صِدْق دعوتك، فلن ترى منا شكاً، ولن تجد انتفاضاً، وإنما سألنا هذه الآية ليزداد الدليل وضوحاً، والقلب اطمئناناً، والجَنَانُ ثبوتاً.

حنانيك! فإننا نعلم أنك صدقتنا، واستمددت وحْيَكَ من ربنا، وأن الله مؤيّدك بنصره، مُسْبِغ[١٣٦] عليك نعمته؛ ولكن معجزاتِك السابقة كانت أرضية، وهذه الآية التي نطلبها سماوية؛ سنرى بها أعظم مما رأينا وأعجبَ مما شاهدنا، فإذا أتيتَ بها كنا لها مُذِيعين؛ وبخبرها شاهدين، فيكثر تابعوك، ويزداد المؤمنون بك.

ولما رأى عيسى منهم إصراراً على طلبها، وإلحافاً[١٣٧] في سؤالها، وعلم أنهم لا يقصدون إلى عَنَت؛ ولا يدفعهم إليها شك أو عِناد، وتبين له صحة قصدهم وصوابُ غرضهم، دعا الله تعالى فقال: اللهمّ يا مالك الملك، ومدبّر السموات والأرض، ومتولي شؤون خلقك ومسيّر أمور عبادك (أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ).

أجاب الله دعاءه، وسمع ضَراعته، فقال: إني منزِلُها عليكم، ليزدادوا إيماناً بك وثقة بنبوتك، ولكن ليعلموا أنّ هذه الآية تُلزِمهم الحجة، وتوحي إليهم بالبرهان الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، فمن يكفر بعدُ منهم فإني أعذِّبُه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين.

أنزل الله عليهم مائدة من السماء، فاضت بالرزق السابغ، والخير الوافر، إنجازاً لوعده، وتأييداً لنبيّه، واستجابة لدعوته. وخشيَ عيسى الفتنة إذ رآها، فدعا الله أن يجعلها رحمة لهم، ونعمة عليهم، وسأل ربّه أن يهديهم إلى الإيمان الثابت والطريق القويم، ثم قال لهم: ها هي ذي المائدة قد أنزلها الله عليكم، فكُلُوا مما سألتم، واشكروا له، يزدكم من فضله.

---

(١٣٤) قال بعض المفسرين: إنهم كانوا صائمين، ولذا قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا بأن الله قبل صيامنا.

(١٣٥) السغب: الجوع.

(١٣٦) مسبغ: متم.

(١٣٧) إلحافاً: إصراراً.

طعِموا منها ما شاءوا، وقرّت بذلك أعينُهم، وقوِيَ إيمانهم، ثم تحدّث الناس بتلك المعجزة الباهرة، والآية البينة، فآمن خلقٌ كثير، وازداد المؤمنون يقيناً في الإيمان وثباتاً عليه.

النهاية[*]

كان عيسى جادّاً في رسالته، غير متوانٍ في دعوته: ينكر على اليهود ما دَرجوا عليه من النظم التي درّت عليهم الأموال الطائلة، وجعلتهم في بسطة من العيش وسَعة، ويعيب عليهم أن تستعبدهم دولة الألفاظ؛ وتأسِرهم ظواهر الشريعة، وينعي عليهم أن يطمسوا معالم الدين، ويبعدوا عن صراطه السوِيّ، ويبين لهم أن ما هم عليه لا يوافق ما يدعو إليه ربهم.

ولم يَثنه عن مُناوَأتهم ما أعلنوا من حروب، وما ألَّبُوا من جموع، وما بثّوا من عيون.

حتى إذا قهرت البينات ألبابَهم[١٣٨]، وبهرت الآيات بصائرهم، وخَصَم[١٣٩] نورُ الحق حجتهم، لم تجد عقولهم سبيلاً إلى دفع حقه، أو طريقاً إلى مغالبته وصدّه، ولكنهم مع ذلك كذّبوه بأفواههم وبألسنتهم، بغياً وعداوة، وحسداً ولجاجة، يخافون أن تبيد دولتهم، وتميد عروشهم، وتُطوَى صحيفة سلطانهم.

وكُثر مع ذلك أتباعه وأنصاره، وإن كانوا من طبقات دُنْيا، وأخلاط جاهلة.

حاول اليهود أن يخفّفوا من أثر دعوته، أو يموّهوا على الناس أمره فلم يستطيعوا. فقد كان كالفلك الدائر، والنَّجْم السائر، يُدّوّي صوته بالدعوة إلى الله في كل مكان، ويَنقِم على اليهود حيثما حلَّ.

بل كان يجهَل أحلامهم. ويفنّد مذاهبهّم. حتى غضبوا عليه؛ وضاقوا ذرعاً به فصوّروه لرجال السياسة مُؤلّباً للجموع، مثيراً للفتن، متطلعاً للملك؛ لينضم هؤلاء تحت لوائهم في معاداته. وفي ذلك شفاءٌ لنفوسهم، وتحقيقٌ لآمالهم.

وعيسى على كل حال وحيد فريد؛ ليست له عصبية تحميه؛ ولا قبيلة تؤازره وتنصره؛ ولكنه لا يحفل بغضب هؤلاء، ولا يرهب عَنَت أولئك، فقد تكفَّل الله بحفظه، ورعاه بقدرته، وطهّره من الكافرين بدعوته، وعصمه من الجاحدين برسالته، ووعده أن يُحبط مكرهم ويردّ كيدهم في نحْرِهم.

---

[*] آل عمران ٥٥، النساء ١٥٧– ١٥٨.

(١٣٨) ألبابهم: عقولهم.

(١٣٩) خصمه: غلبه.

هال اليهود ما رأوْا من تألُّبِ الناس عليهم وانصرافهم عنهم، وخيَّلت لهم نفوسهم أن عيسى قد تستطير بسببه الفتنة، وتكاد تشبُّ من بين أنصاره الثورة، مع أنه قد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ولكن أين هم منها! وقد بدّلوا نعمة الله كفراً، وأحلّوا قومهم دارَ البَوار، واستبدلوا بدين الله ما ينمِّي ثروتهم، ويغدق الخيرَ عليهم، ويبقي السلطان في أيديهم، وزمام الشَعْبِ في حَوْزتهم.

ولما يئسوا من مقاومته، وعجَزوا عن صدّ تيار دعوته –وقد كاد يجرفهم ويمحو أثرهم– بثّوا العيون والأرصاد له في كل طريق، يَنْفُثون سموم الدسائس ويحيكون له خيوط العداء، ويذيعون أنه ساحر، وأن ما يُظهر من معجزات، وما يدّعي من آيات إنما يمليه عليه الشيطان، وأنه لا ينحو نحوهم، ولا يقتفي[١٤٠] أثرهم، فلا يكفّ عن أعمال الدنيا في يوم السبت، وهو يوم عيدهم وعبادتهم. ثم رمَوه بالبعد عن دينهم، والكفر بنبيهم، والمرُوق من عقائدهم.

ولكن ذلك لم يَخْفِت من صوته، ولم يَثنه عن عزمه، بل دَأبَ في دعوته، واستمر يؤذِّن برسالته، وهم يخالون كل كلمة سَهْماً، ويحسون لكل همسة وقعاً. فلاكت الألسنة الحديثَ في شأنهم، وابتدأت الجماعات تنفضُّ من حولهم. خاف هؤلاء أن ينْضَب معين ثروتهم، وتنقطع موارد أرزاقهم، فقلَّبوا وجوه الرأي، ثم أجمعوا أمرهم بينهم على أن يُبيدوا أصلَ الداء، ويستأصِلوا شأفته، وبيتوا له الشر، ودبّروا القتل، حتى لا يتألب الناس عليهم، وينتقضوا على سلطانهم.

وما كان أجهلهم بدين الله، وأبعدهم عن صراطه، حين هموا بقتل نبيّ يؤمن بكتابهم، ويقرّ دينهم، وهو لم يجترم[١٤١] جرماً إلا دعْوَتُهمْ إلى التزام حدود الله، ونَبْذ المآثم والذنوب، ولم يقترف إثماً إلا أنه رغب في أن يردّهم إلى حقيقة الدين، ودعاهم إلى حسن القيام به وحثهم على الإخلاص له.

عقدوا العزم على قتله، ولكنْ أنى لهم ذلك، وهم لا يعرفون مكانه، ولو أنهم بحثوا عنه بأنفسهم لأعياهم البحث، بل لرَجعوا بالحسرة وباءوا بالخيبة! إذن فليلجئوا إلى الوعود الكاذبة، والأماني المعسولة، يبذلونها لمن يأتيهم به، وليَركنُوا إلى العيون يبثُّونها حوله، وإلى الأموال يغدِقونها على من يَدُلهم عليه، وأخيراً إلى الوالي يُثيرون غضبَه، ويوهمونه أنّ في دعوة عيسى زوالاً لملك قيصر، وتقويضاً لسلطانه.

واجتمع رجالُ الدين في بيت المقدس يجيلون الرّأي في أمر عيسى، لعلهم يهتدون إلى مكانه، فيثأروا لأنفسهم منه، ويشفوا غلهم، ويدركوا وترهم.

---

(١٤٠) يقتفي: يتبع.

(١٤١) يجترم: يرتكب جريمة.

وبينما هم في اجتماعهم –وقد ضاقت بهم السبل، وتملكهم الحزن واليأس، وحاروا في أمرهم، وخافوا أن تضمحلّ دولتهم وتزول عروشهم، وينصرف الناس عنهم– وبينا هم في هذا الحزن الشامل، وذلك اليأس القاتل، دَلفَ إلى الحارس[١٤٢] رَجلٌ من أتباعه، يقدم رِجْلاً ويؤخر أخرى، وأسرّ إليه في خوف وحذّر، أن لديه أمراً يريد أن يُفضي به إلى المجتمعين.

ولما دخل عليهم أقبلوا عليه يستنبئونه عن حاجته، ويسألونه عن سبب مَقدَمه فأفضى إليهم بما سكّن اضطرابهم، وأذهب خوفهم، وأدخل السكينةَ إلى قلوبهم، وحدّثهم أنه إنما أهمّه خروج عيسى عن دينهم، وأقضَّ مضجعه إنكارُه نظمهم، وأقذى عينيه أن يرى الناس يَلتفون حوله، ويؤيدون دعوته. ثم أبدى –في حذر واضطراب– رغبتَه في أن يدلَّهم عليه، ويعرفهم بمكانه، ليريحَهم من مصدر كَمدهم، فيصفو عيشهم بعد كَدره، وتستقرّ حالهم بعد قلقها.

وما كاد يُتم كلامَه حتى تنفَّسوا الصُّعَداء، وطَفَحت وجوههم بالبِشْر، وأقبلوا عليه يمنُّونه الأماني، ويبسطون له واسعَ الآمال فاطمأنَّ إلى حديثهم، وطابت نفسه معسول كلامهم، ولعلَّه كان كذلك يشفي غلاً نَشب في صدره، أو حقداً عَلِق في قلبه.

ذهبوا به إلى الوالي، فقص عليه القَصص، وخبّره بمكنون أمر عيسى، فابتعث مع ذلك الشيخ جنداً يأتون بعيسى، ليقضوا فيه أمرهم، وينفذوا حكمهم.

وكان عيسى حينذاك قد عَلِم ما يُخفي القوم، وما بيّتوا له من شر، وانتهى إليه ما أجمعوا أمرهم عليه، وعرف أن عيونَ الكهنة تترصده، ورجال السلطان يجدّون في البحث عنه، فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان، يختفي حيناً ويظهر آناً، وهو لا يني عن بثّ دعوته، ولا يقصر في إعلان رسالته، ولا يفتأ يحضُّ على التمسك بحبل الله، ويدعو إلى البعد عن المنكرات والآثام، وتلاميذه لا يفارقون ظلّه، ولا ينأون عنه.

وآوى معهم يوماً إلى بستان يسكنون إليه ليلتهم، وظنوا أنهم بمنجاة عن العيون، ولن يهتدي إلى مكانهم الباحثون. ولكنهم كانوا واهمين، إذ لم يكد يجنهم[١٤٣] الليل، ويسترهم الظلام، حتى تهدّى الباحثون إلى مكمنه وعثروا عليه في مخبئه، فأصبح عيسى وتلاميذه بين أيديهم.

ولما رأى التلاميذ ما كاد يحيق بهم وبصاحبهم تركوا نُصرَته، وانفضّوا من حوله، وولوا هاربين.

---

(١٤٢) هو يهوذا الأسخريوطي.

(١٤٣) يجنّهم: يحتويهم.

أما عيسى فما كان الله ليسلمه إلى أعدائه، وهو يجاهد في سبيل إعلاء دينه، وقد أيّده بالمعجزات، وآزره بالبينات، ووعده بنصره على أعدائه، ونجاته من كيد الكائدين.

في هذه الساعة الرهيبة الفاصلة، تجلت قدرة الله، وامتدّت إليه يد العناية، فأخفاه الله عن أعين الناظرين، ووقع تحت بصرهم رجل شديد الشبه به؛ وما لبِثوا أن حسِبوه هو فانقضوا عليه، وأخذوا بتلابيبه. فتملكته الدهشة، وعقد لسانه الخوف، فلم يستطع الدفاع عن نفسه، ولا الإعلان عن حقيقة أمره بل استسلم خائفاً مذعوراً. ولا غرو[١٤٤] فالجماعات وقت انفعالها واضطرابها لا تتحرّى ولا تستكْنه الأمور، بل سبيلُها التسرع والاندفاع، والاكتفاء بما يشبه الدليل والبرهان، بلا رويّة ولا إمعان.

ذلكم الرجل هو يهوذا الذي دلهم عليه، فرد الله كيده في نحره، وجازاه على خيانته ومكره.

فاستاقوه إلى ساحة صُلبَ فيها بين الصخب والضجيج، والفرح والتهليل، وهم يزعمُون أنهم قتلوا عيسى. (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) [١٤٥].

وبهذا تكتمل مسيرة الأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

([١٤٤]) لا غرو: لا عجب.

([١٤٥]) النساء: ١٥٧ و١٥٨.

التاريخ الإسلامي

(ما بعد الخلافة الراشدة)

قبل أن نشرع في سرد موجز التطور السياسي للدولة الإسلامية، لابد لنا أن نقرر مجموعة من النقاط:

أولا: بعد تجربة استمرت أكثر من ١٤ قرنا وما زالت مستمرة، فإن جدلية علاقة الإسلام بالسياسة لا تنتهي ولن تنتهي، فعلاقة الأديان كلها بالسياسة أمر حتمي ومثبت تاريخيا، فبالإضافة للأديان السماوية، فالعديد من الأديان الأخرى مثل البوذية والشنتوية والهندوسية تقاطعت وما زالت مع المساحات السياسية.

والواقع أن هذا التقاطع بين الأديان والسياسة هو أمر منطقي، فالغالبية العظمى من الأديان تم استخدامها عبر التاريخ كوسيلة للتعبئة ومحاولة خلق هوية متماسكة للصراع على الموارد، وحتى وقتنا هذا، فإن الأديان وحتى في أكثر الدول ديمقراطية ما زالت تتقاطع مع المساحات السياسية، ولا تقف سوى بضع دول استثناء على هذه القاعدة. وهكذا كان الإسلام كباقي الأديان متقاطعا مع السياسة وما زال وسيظل كذلك.

والحقيقة أنه حتى الادعاء المطروح في العديد من الدول العربية بواسطة نخبتها الحاكمة من رفض استخدام الدين في السياسة، بحجة أن الأخيرة تفسد الأول، فما هي إلا مناورة للتخلص من بعض الخصوم السياسيين، لأن نفس هذه النخب لا تستطيع أبدا التخلي عن الخطاب الديني وعلماء الدين لتبرير سياساتهم.

ثانيا: إن أي قراءة للتاريخ السياسي للإسلام، لا مفر فيها من التفرقة بين النص والفعل، بين الرسالة وبين تطور فهمها تاريخيا، بين ما يجب أن يكون بحسب الوحي وما كان بالفعل بحسب تصرفات البشر واجتهاداتهم أو سماتهم الشخصية والنفسية بإيجابياتها وسلبياتها. كذلك فأي مناقشة «علمية» للتاريخ السياسي للإسلام، لابد أن تفرق بين الشخصيات التاريخية الإسلامية وقيمتها ومواقعها الدينية، وبين أفعالهم السياسية باعتبارهم بشرا يتصارعون على الموارد والمناصب والقيم. هذه مسألة لا يمكن أبدا الالتفاف عليها وإلا لا معنى أبدا لتقديم محاولة علمية منهجية لفهم التطور السياسي لتاريخ الإسلام والمسلمين، فالإصرار على أن للإسلام أدوات شرعية للبحث والتدقيق لا يفهمها سوى علماء الدين، مقبولة في حدود علوم الشريعة، لأن قراءة وتحليل التاريخ لها أدوات مختلفة، كما أن فهم النظم السياسية والعلاقات الدولية لها أدوات أخرى تختلف عن أدوات الفقه مثلا، لكن ما يميز تاريخنا الإسلامي أن الشريعة تمدنا بالمجموع القيمي الذي يمكن من خلاله محاكمة الحدث وصانعيه مهما كانت مكانتهم، ولهذا نحكم على بعض الأحداث انها لا تتوافق مع الشريعة أو مع القيم الإسلامية.

ثالثا: جاء الإسلام برسالة سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة تدعو «نصا» و«فعلا» إلى المساواة، ورفض العنصرية والتحرر من العبودية، والقضاء على الاستغلال ودعم الفقراء ورفض القبلية والعصبية، وخلق هوية إسلامية متمايزة بعقيدتها لا بعددها أو ارتباطاتها القبلية أو العصبية. لكن لم يأت الإسلام بنظام سياسي متمايز تاركا السياق التاريخي والحاجة البشرية وظروف الجغرافيا والتاريخ والحضارة لتشكل النظام وفقا للقيم سالفة الذكر. هذه حقيقة تاريخية أخرى تتعارض تماما مع سردية بعض التيارات الإسلامية والتي تحاول الادعاء بأن الإسلام أتى بنظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي المتمايز، على اعتبار اجتهاد فقهاء كبار للنظام السياسي لزمانهم جزء من الشريعة الملزمة، ولو أعادوا النظر سيجدون أن الأغلب الأعم من هذه الاجتهادات كانت نوع إقرار لما ساد في الواقع من نظام فرضته الظروف التاريخية، الحقيقة أن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان لا يمكن تحقيقها إلا بإرساء قيم النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية المقررة بالقطعي من الأدلة الشرعية، وترك تفاصيلها للزمان والمكان وهكذا كانت التجربة الإسلامية بالضبط.

رابعا: الخلاصة السادسة التي يمكن استنتاجها من قراءة التاريخ السياسي للإسلام، هو أن الممارسات المنسوبة للمسلمين هي ابنة سياقها التاريخي والجغرافي والسياسي، بعبارة أخرى فإن كل ما يتم الحكم عليه الآن باعتباره ممارسات غير حضارية أو غير إنسانية أو غير ديمقراطية منسوبة للمسلمين ونظام خلافتهم سواء المتعلقة بإراقة الدماء أو بالسبي أو بفرض الجزية أو باحتلال الأراضي.. إلخ يجب فهمها باعتبارها لغة تلك العصر وأن كل الممارسات سالفة الذكر لم تمارس فقط بواسطة خلفاء المسلمين ولكن تم ممارستها بواسطة الغالبية العظمى من النظم السياسية التي تواجدت في هذه العصور!

هنا قد يقول قائل، إن الإسلام إذا لم يضف جديدا أو يتمايز عن غيره من نظم الحكم، والحقيقة أن هذا الكلام أيضا غير صحيح، فالرسالة الإسلامية كانت واضحة في رفض الظلم وفى إقرار المساواة، وفى حرمة الدم، ولكن وبعد فترة قصيرة للغاية من وفاة الرسول، فقد انتصرت الممارسات السياسية للمسلمين على القيم التي أرساها الإسلام في رسالته النقية، لو أردنا أن نفهم تاريخ المسلمين، فلابد كما ذكرنا سابقا، التفرقة بين النص والفعل، وبين القيم والممارسات، وأخيرا التعامل مع تاريخ المسلمين باعتباره تاريخ بشر وليس تاريخ دين أو أنبياء أو رسل أو كتب مقدسة، وهذا ما سبب مشكلة لكثير من المثاليين الإسلاميين، إذ يريدون أن يكون تاريخنا الإسلامي محققا للقيم الإسلامية على الدوام، وهذا غير متحقق وفق الوقائع التاريخية.

نكتفي بهذا القدر، ونشرع في عرض موجز للتاريخ السياسي لأمة الإسلام:

الخلافة الأموية: من الشورى إلى التوريث (من عام ٤٠هـ إلى ١٣٢هـ):

بعد انتهاء الحرب الأهلية الأولى في تاريخ الدولة الإسلامية والتي أدت إلى بدايات انقسام الأمة الإسلامية إلى –ما عرف فيما بعد–سنة وشيعة، فإن عصرا إسلاميا قد ولى (الخلفاء الراشدين)، وعصرا جديدا قد ولد (الخلفاء المورثون). تمكن معاوية بدهاء من بسط سيطرته ونفوذه على الدولة الإسلامية بعد مواجهات دموية انتهت باتفاق مع الخليفة الخامس الحسن بن علي، وتولى معاوية مقاليد الأمور.

مع تولى معاوية أمر الدولة الإسلامية فإنه قد بدأ تدريجيا في إضافة بعض ملامح جديدةعلى الدولة. فرغم أن الإسلام قد بقى نظريا هو أساس شرعية الحكم ورغم أن الخليفة كان مازال مهتما بتأسيس حجة قراراته على القرآن والأحاديث وسنة الرسول، إلا أن محتوى الحكم وسياساته كان قد اتخذ ملامح تتعلق بمصالحه الدنيوية، لم يعد الخليفة يعيش وسط الناس كما كان الحال منذ عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه أصبح له قصور مشيدة وملابس فاخرة حرص على ألا تكون شبيهة بملابس العامة، صحيح أن صلاة الجمعة كانت أحد الطقوس المقدسة للخليفة ولكنه لم يعد وسط الناس، فكان يجلس من حوله الحرس الشخصي ليفصل بينه وبين المسلمين، كما كانت العديد من القرارات والسياسات محققة لسياسته ومصالحه، فمع توسع الدولة الإسلامية ودخولها لأراضٍ جديدة وثقافات وحضارات مختلفة كان التحدي كبيرا، فمن ناحية لم يتناول القرآن كل تفاصيل السياسة والحياة ولم يكن ـ حتى هذا العهد ـ هناك تخيل لتطبيق الدين الإسلامي في مناطق خارج شبه الجزيرة العربية بثقافتها وبيئتها القاسية، ومن ناحية ثانية واجه الخلفاء شعوبا متنوعة عليهم حكمها بأديان وعادات وتقاليد مختلفة، فما كان من الخليفة إلا الاجتهاد السياسي المحقق لمصالحه، ومن ثم تنحى الدين جانبا على مستوى إدارة سياسة الدولة في الحكم ، حتى وإن ظل عنوان الشرعية.

انتقلت الخلافة من المدينة إلى دمشق، وأصبحت الأراضي السورية هي مركز ثقل الدولة الإسلامية ومنها أصبحت تحكم أراضي شاسعة وحضارات متنوعة. بعد عهد عمر، لم يأتِ خليفة بنفس الدهاء والقوة والإنجاز إلى أن جاء معاوية ليحقق نجاحات عديدة داخلية وخارجية، فقد اعتمد نظاما إداريا متطورا وحديثا معتمدا على النظام الذى اتبعه البيزنطيون قبل هزيمتهم على يد الدولة الإسلامية، شهد عهده عودة للانتعاش الاقتصادي مرة أخرى بفعل رواج التجارة نتيجة لاستقرار الدولة بعد فترة من الحروب والتمردات والمواجهات الدامية، كما أعاد معاوية تنظيم وتحديث الجيش لتتواصل الفتوحات (الغزوات) الإسلامية عبر البحر المتوسط، كما نجح معاوية ـ كما نجح من قبله عمر ـ في حسن اختيار رجال الدولة وقادة الجيوش مما ساهم كثيرا في استقرار حكمه والذى استمر لما يقرب من عقدين من الزمان.

فقد كانت من مميزات خلافة معاوية الحرص على السلم المجتمعي بين المسلمين وغير المسلمين، العرب وغير العرب عن طريق نشر قيم التسامح التي حرص الخليفة بنفسه على إرسائها مبكرا للحفاظ على السلم الداخلي والاستقرار. ورغم هذا التسامح يلاحظ بعض الدارسين للتاريخ الإسلامي أن المسلم العربي كان مازال الأوفر حظا في تولى المناصب العامة من غير المسلمين أو غير العرب، كذلك فقد كان هناك تمييز واضح حتى بين المسلمين لصالح العرب، فالمسلم العربي تمتع بمزيد من المزايا في مواجهة المسلم غير العربي، وفى حين يرى البعض أن هذا التمييز يعبر عن نعرة قومية عربية انتشرت في تلك الفترة لإحساس العرب بتميزهم وباختيار الله لهم وللغتهم لتكون لغة القرآن وأرض نزول الوحى، إلا أن بعض المؤرخين الآخرين يرون أن الأمر لم يكن نعرة قومية بقدر ما كان حيلة لمواجهة المطالب المتزايدة للمسلمين المتحولين حديثا للإسلام من غير العرب للمساواة مع العرب في الامتيازات الاقتصادية والسياسية! وأيا كان الأمر، فإن الثابت أنه رغم استمرار التمييز ضد غير المسلمين ثم بين المسلمين ضد غير العرب، إلا أن حدا أدنى توافر من السلم والتسامح المجتمعي كون أن الدولة الإسلامية ظلت أقل تمييزا من البيزنطية في التعامل مع أهالي البلاد التي ضموها للإسلام.

وقد نجح معاوية في مجال التجارة والاقتصاد، إذ كان يقوم بتولية شئونها للمسيحيين تحديدا لما عُرف عنهم من تميز في إدارة شئون الاقتصاد والإدارة. كذلك حين ما أراد استقرار وضمان ولاء العراق وبعض كبرى مدنها (الكوفة والبصرة) وهي المدن التي ناصرت على بن أبى طالب في صراعه مع معاوية، فلم يتوانَ الأخير في الاعتماد على «زياد بن أبيه» والذي كان يتولى ولاية البصرة والكوفة معا رغم أنه كان من أنصار علي، لكن دبلوماسية معاوية مكنته من ضمان ولاء ابن أبيه بعدما أعطاه الامتيازات والاستقلال في مقابل الولاء لدمشق وهو ما تحقق بنجاح كبير لم يكن يتوقعه الكثيرون في ظل التنافس والخصومة المبكرة بين العراق وسوريا.

خين استشعر معاوية دنو أجله، عمد إلى ضمان تمرير الخلافة إلى ولده يزيد في حياته عن طريق دعوة نخبة الدولة الأموية ومطالبتهم بالقبول بولاية يزيد في مقابل ضمان امتيازاتهم في الحكم والإدارة والاقتصاد، ولكن عمد إلى تهديد من أحس انهم سيقفون في مواجهة نزعة التوريث من الصحابة والمعارضين لمخالفة سنة الشورى، فتم تمرير بيعة يزيد بين الإغراء والإكراه، وهو ما تحقق بالفعل حينما توفى معاوية. كانت هذه المرة الأولى في تاريخ الدولة الإسلامية التي يتم إلغاء مبدأ الشورى رسميا ويتم استبداله بمبدأ الوراثة، كانت المرة الأولى التي ينتقل فيها الحكم الإسلامي من الأب إلى الابن وهو ما ظل مبدأ ثابتا في تولى الخلفاء المسلمين لمدة ١٣ قرنا حتى انهارت الإمبراطورية العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين. تحولت الدولة الإسلامية من مرحلة الخلافة الراشدة إلى مرحلة الملكية المطلقة،

هذا التحول لم يكن مجرد تحول في شكل الدولة الإسلامية، بل إنه كان تحولا في صميم مضمون الحكم وأدواته، فلم تعد الدولة متوافقة مع القيمة الإسلامية المعروفة باسم الشورى وفق النظام الإسلامي ولكنها أصبحت دولة علمانية/دنيوية المحتوى والمظهر ورغم أن شرعيتها الاسمية كانت الإسلام، إلا أن شرعيتها الفعلية كانت قوة وإنجاز واستقرار حكم العائلة المسيطرة على الحكم، على الجانب الآخر ظل المجتمع يتحاكم للشريعة في كل أموره، والشريعة الإسلامية هي المنظومة القانونية والمرجعية الثقافية للمجتمع.

لم تكن ولاية يزيد مستقرة مثل ولاية معاوية، ففور توليه الحكم، ظهرت إشارات عديدة للتمرد ضده، بعضها من مكة والمدينة، وبعضها الآخر من العراق، مشاحنات ومواجهات شهدت إسالة المزيد من دماء المسلمين شارك فيها أنصار الدولة الأموية وشارك فيها الخوارج والعباسيون وغيرهم، قام فيها جيش يزيد بمحاصرة المدينة حتى استسلم متمردوها ثم محاصرة مكة لاحقا لإجبار عبدالله بن الزبير ـ أحد كبار المناوئين لحكم يزيد ـ على الاستسلام حتى أن جيش يزيد استخدم المنجنيق مما أدى لاحتراق جزء من الكعبة وفى بعض الروايات تم هدم الكعبة، وهنا نلتفت لما يعنيه ذلك، أن حرمات المسلمين ومقدساتهم قد تم انتهاكها بواسطة جيوش مسلمة في إطار صراعات دنيوية بحتة على السلطة والحكم وهى دلالة تاريخية يجب ألا نغفلها. واستمرت هذه الأحوال حتى نهاية عهده.

بعد تولى يزيد بن معاوية حكم الدولة الإسلامية تحت قيادة الأمويين، عادت المتاعب والنزاعات والصراعات مرة ثانية إلى الخلافة الإسلامية، ففي حين واصل المسلمون التوسع على حساب البيزنطيين حتى وصلوا إلى أوروبا نفسها، فإن صراعاتهم الداخلية قد أثرت كثيرا على استقرار الحكم وأزهقت الكثير من الأرواح وأراقت الدماء في صراعات دنيوية على السلطة جاءت معظمها من العراق ومن مناصرين علي وغيرهم. على مدار العهد الأموي مر أحد عشر خليفة على الدولة، تباينوا بين النجاحات والإخفاقات وكذلك في مدد الحكم، منهم من لم يحكم سوى عامين ومنهم من استمر ما يقرب من عقدين من الزمان، لكن الأكيد أنه وباستمرار لم يكن هناك سوى فترات محدودة من الاستقرار وطويلة من الصراعات.قد برز من بين حكام الدولة الأموية الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي استطاع أن يعيد للناس حكم جده عمر بن الخطاب، فانتشر في عهده العدل و التسامح على المستوى العام في الدولة، والزهد و الورع عن أموال الدولة في سلوكه الذي ألزم به نفسه، وفرضه على سائر بني أمية، فكان حجة الله على سائر الحكام، ليس في زمنه فحسب، بل وعلى مر الأزمان.

شهد العصر الأموي مزيدا من التسامح الديني رغم بعض الشطط هنا أو هناك، فقد تمكن الأمويون في معظم الأحيان من تأمين استقلال المجتمعات غير الإسلامية اقتصاديا، كما عملوا على توظيف غير

المسلمين في الجهاز الإداري للدولة، والأهم أنه وفى معظم الأحوال لم يتم إجبار غير المسلمين على التحول للإسلام، بل وتم السماح لهم بممارسة عبادتهم بكل حرية بل والاحتفاظ بحقهم في التقاضي الخاص وفقا لشرائعهم، ورغم ذلك فقد أقبل الكثير من غير المسلمين على الإسلام وتحولوا إليه، مما دعا بعض المؤرخين للتساؤل عن السبب أو الأسباب التي دعتهم إلى هذا التحول.

شهد العهد الأموي نهضة معمارية وعلمية كانت بمثابة إرهاصات لحضارة ونهضة إسلامية استمرت لقرون بعد ذلك. فقد حاولت العمارة الأموية محاكاة نظيرتها البيزنطية ولكنها أضافت إليها لمساتها الخاصة وأصبح للدولة الأموية طابعها المعماري الخاص يمكن مشاهدته في سورية وفلسطين التاريخية.

ورغم أن النهضة العلمية هي أبرز إنجازات الخلافة العباسية، إلا أنها بدأت أيضا في العهد الأموي، فقد تم تدريس العلوم بعد تعريبها للطلاب، كما تم التوسع في إنشاء المدارس والمستشفيات والمصحات النفسية. كذلك فقد تم الاعتناء باللغة العربية واعتمادها كلغة رسمية للدولة الأموية مترامية الأطراف. كذلك فقد أصبحت مدارس الطب في العهد الأموي متقدمة بفضل الاستفادة من البيزنطيين، وأعطى الأمويون اهتماما خاصا لذوي الاحتياجات الخاصة وأصحاب الأمراض النفسية والعصبية، وفضلا عن ذلك فقد بدأ الأمويون في تدوين وحفظ التراث الإسلامي وخصوصا ما يتعلق بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والصحابة.

بالخريطة التالية أقصى اتساع جغرافي للدولة الأموية:

في نهاية العهد الأموي، ضعف الخلفاء نتيجة لصراعاتهم على السلطة، كذلك فقد حدث تدهور واضح في الجهاز الإداري للدولة الأموية نتيجة لبعض التقصير في التوجيه والمتابعة، وهو ما أدى إلى تدهور تدريجي في الدولة الأموية انتهى بانهيارها وبدء عهد جديد أسسه العباسيون واستمر لقرون.

الدولة العباسية –من دمشق إلى بغداد:

منذ اليوم الأول للخلافة العباسية اتخذ حكمها سمتين رئيسيتين، الأولى هي السمة الدينية الإسلامية حيث حرصها على التأكيد على الانتساب للرسول وأهل بيته، والثانية دنيوية حيث المزيد من مظاهر الأبهة والإسراف ببذخ والمزيد من الابتعاد عن الناس بحيث كانت دولة هيراركية بامتياز. كذلك فقد توافرت للدولة في بداية عهدها سمتان إضافيتان، الأولى هي تمكنها من الحكم وفنونه كون أن مناطقها (الكوفة وبغداد والبصرة) كانت تتمتع باستقلال نسبى طوال العهد الأموي، والثانية هي حصولها على الدعم الشيعي الذي كان حريصا على التشفي في الأمويين وهزيمتهم وتأكيد انتصار نسل الرسول وأهل بيته عليهم، وهذا قبل الانقلاب على الشيعة والتخلص ممن يمثلون خطرا عليهم من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أسس المنتمون للحكم العباسي تنظيمات سرية للانقلاب على الأمويين وألحقوا بهم هزائم متتالية بدأت من وسط آسيا مرورا وانتهت في العراق حيث تأمين السلطة في الكوفة حيث هرب آخر خلفاء الأمويين إلى سوريا ومنها إلى مصر إلى أن قضى نحبه هناك. لم يتردد الجيش العباسي في ارتكاب المجازر الموثقة تاريخيا بحق معظم أفراد السلالة الأموية الحاكمة، بل وحتى من استسلم من الحكام الأمويين وحصل على وعد بحماية حياته، تم نقض الوعد لاحقا وإعدامهم! كانت المجازر العباسية للأمويين تهدف وبلا تردد إلى القضاء على أي خطورة محتملة من الأخيرين عن طريق تصفيتهم لتعضيد الحكم الجديد. وكما قامت الدولة الأموية بنقل العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق، فقد قام العباسيون بنقل مقر الخلافة من دمشق إلى الكوفة في العراق، ثم لاحقا من الكوفة إلى بغداد.

كان على العباسيين في البداية أن ينتقوا رجال الدولة لتأمينها، فكان الانحياز في البداية للفرس ولقليل من العرب وتحديدا من سكان العراق واليمن، بينما تم تهميش باقي القبائل العربية، كذلك فقد لاحظ المؤرخون أن الدولة العباسية في البداية كانت ذات طابع آسيوي وبعدت تدريجيا عن البحر المتوسط، أصبح للعراقيين والفرس ومسلمي آسيا الوسطى سطوة على مقاليد الحكم وتوغلوا في دولاب الدولة وأداروا

سياستها العسكرية والاقتصادية، حتى أن بعض المؤرخين قسموا عهود الدولة بحسب العنصر المسيطر من أتراك أو فرس أو غيرهم.

في عهد أبو جعفر المنصور (الخليفة الثاني في الدولة العباسية) انتعش الاقتصاد وتم تطوير الجيش وتطوير جهاز الدولة الإداري وإعادة تنظيم العلاقة بين الخليفة وبين حكام الأقاليم مترامية الأطراف في الدولة، ولم يخرج عن سيطرة العباسيين في تلك الحقبة سوى إمارة الأندلس والتي تمكن الأمويون (أو بالأحرى من تبقى منهم) من الاحتفاظ بحكمها لقرون لاحقة واتخاذ قرطبة كعاصمة لها، بل وإعلانها لاحقا (تحديدا في القرن العاشر الميلادي) كخلافة إسلامية استمرت حتى القرن الحادي عشر الميلادي.

لمزيد من الأمان قام المنصور بتحويل مقر الخلافة من الكوفة إلى مدينة بغداد التي أسسها، وعمل على تحصينها لتأمينها من أي قلائل محتملة ليستمر في تنمية الدولة لتتأكد وحدتها واستقرارها حتى توفى في رحلة الحج ليخلفه ابنه المهدى والذي أكمل المرحلة التأسيسية للدولة لتبدأ رحلة جديدة في تاريخ المسلمين.

احتاجت الدولة العباسية إلى ربع قرن من الزمان كي تتأسس وتستقر وفى سبيل ذلك سالت الدماء وقُطعت الرقاب، ثم احتاجت إلى ستة عقود أخرى كي تبدأ في الازدهار والارتقاء فوق كل حضارات الدنيا في هذا الوقت، لتؤسس للوجه الحضاري للإسلام، وهو الوجه الذي لم يشهد المسلمون عبر الزمان تقدما وحداثة مثله أبدا حتى انهارت الخلافة العثمانية في الربع الأول من القرن الماضي. يمكن القول إن الإسلام قد تحول في هذا العهد من مرحلة البداوة الاجتماعية والثقافية إلى مرحلة الحضارة والتمدن. صحيح أن هذا الانتقال كان قد بدأ منذ العهد الأموي، لكن الانتقال لم يكتمل سوى في هذه الفترة الذهبية للدولة الإسلامية.

أسس لهذه الحقبة أربعة خلفاء عباسيين، الخليفة المهدى، ثم الخليفة الأشهر هارون الرشيد، ثم ابناه الخليفة الأمين والخليفة المأمون، كانت الخلافة العباسية بداية من عهدهم، تعبيرا ليس فقط عن «قوة» الدولة الإسلامية بالمعاني الحربية والمادية، ولكنها كانت أيضا تأكيدا على لحاق الدولة الإسلامية بركب الحضارة حيث ازدهار الفنون والعلوم والثقافة ثم قائدا للحضارات القائمة وقتها حتى انهارت.

في نفس الوقت استطاع أحد افراد البيت الأموي الفرار إلى منطقة الأندلس، واستطاع أن يؤسس دولة أموية فيها، ولم تستطع جيوش العباسيين أن تسقطه، فصار في العالم الإسلامي خلافة عباسية مقرها بغداد، وأخرى أموية مقرها قرطبة، وانتقل الصراع العسكري بينهما إلى صراع حضاري، فسعى كل منهما إلى إبراز معالم الحضارة الإسلامية سواء في المجالات العلمية، وذلك بتأسيس المكتبات التي تخدم البحث العلمي، ونشر دور تلقي العلم في كل مكان بكافة المستويات، ونقل صناعة الورق وصناعة الأحبار إلى كل المدن لتشجيع التأليف والترجمة للعلوم، ورصد الجوائز على كل كتاب، ورعاية العلماء و طلاب العلم في كافة العلوم، كما ظهرت التحف المعمارية في كافة المدن الإسلامية، سواء في القصور أو المساجد أو المدارس أو البيمارستانات(أي المستشفيات) و غير ذلك من المنشآت التي تخدم المجتمع.

مع تولي المتوكل الخلافة العباسية بدأت مرحلة الضعف، وأبرز مظاهرها كانت بدأ حركات الاستقلال عن الدولة، وبدأت مع أحمد بن طولون في مصر، وتبعه في ذلك العديد من حالات الاستقلال عن الدولة، فنشأت الدولة الإخشيدية والطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها. ومن الجدير بالذكر أن نشير أن دولة على المذهب الإباضي قد تشكلت قبيل قيام الدولة الأموية في الأندلس، وهي الدولة الرستمية، وهي التي ساعدت عبد الرحمن الأموي في النجاة من سيوف العباسيين، والإباضية مذهب تشكل من رحم حركة الخوارج التي عارضت علي بن أبي طالب في الفتنة الكبرى، واستمرت فترة من الزمن حتى استولت على مقدراتها الدولة الفاطمية (أو العبيدية) قبل وصولها لمصر.

في ظل هذا التدهور ظهرت الدولة الفاطمية(أو العبيدية نسبةُ إلى بن عبيد الله مؤسسها) في بلاد المغرب العربي واستطاعت أن تستولي على مصر و تنقل مقرها إليها، وتؤسس مدينة القاهرة لتكون عاصمة لها، وبهذا صار بجوار الدول المستقلة عن الخلافة العباسية، ظهرت دولة خلافة ثالثة هي الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة، وفرضت سلطانها على الحرمين الشريفين في مكة و المدينة، وهذا لأنها استطاعت أن تعيد للمسلمين شعيرة الحج، و التي توقفت لمدة ٢٣ عام بسبب أن فرقة شيعية(القرامطة) دخلت

المسجد الحرام، وقتلت كل من فيه وسرقت الحجر الأسود، ومنعت الحج، ووضعت الحجر الأسود بأحد مساجد الشيعة بالكوفة لكي يحج الناس إليه، فأوقف الخليفة الفاطمي هذا العبث و أعاد الحجر الأسود للمسجد الحرام، وفتح طرق الحج لكافة المسلمين، وبذلك تمت سيطرة الخلافة الفاطمية على منطقة الحجاز.

مع تدهور أوضاع الدول الثلاث، تعرضت منطقة العالم الإسلامي لأخطار كبرى، فقد تحركت القوى الأوروبية المسيحية في اتجاهين، الأول في اتجاه شرق البحر المتوسط بقوى ضخمة، واستطاعت اختراق العالم الإسلامي وتكوين أربع إمارات صليبية في منطقة الشام وفلسطين،بما عرفت باسم الحملات الصليبية، والإتجاه الثاني في اتجاه الأندلس بما عرف باسم بحروب الاسترداد التي تهدف لطرد المسلمين من غرب أوروبا، واستطاعت أن تحقق نجاحا في هذا الاتجاه أيضا.

الخطر الثاني تمثل في قبائل المغول في وسط آسيا، والتي اتحدت تحت قيادة جنكيز خان، وبدأت في حروب إبادة للدول الإسلامية الموجودة فيما حولها، ومتجهه إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد.

استفزت هذه الأخطار الروح الجهادية، وبرز لمواجهتها حركة جهادية كبرى، بدأت مع القائد عماد الدين زنكي الذي استطاع استعادة واحدة من هذه الإمارات الصليبية بعد أربعين سنة من تأسيسها، وهي إمارة الرها في شمال الشام، وهذا استفز القوى المسيحية لتكرار الهجوم، ولكن كل هجوم بعد الهجوم الأول تصدت له القوى الإسلامية في المنطقة، سواء في الشام أو مصر، فكان نور الدين محمود (الدولة النورية) ثم صلاح الدين الأيوبي(الدولة الأيوبية)، ثم بيبرس(الدولة المملوكية) في مواجهة هذا الخطر الذي استمر لمدة ٢٠٠ عام حتى تم القضاء عليه.

ولكن الجبهة الثانية في الأندلس استطاعت أن تتمدد على مدى ثمانية قرون داخل الأراضي الأندلسية، وفي النهاية استطاعت أن تطرد المسلمين من كل أراضي الأندلس، وبدأت تسعى للتمدد داخل أراضي المغرب العربي، وهو ما تحقق لها بعد سنوات من المواجهات الدامية.

أما الخطر الثاني المتمثل في المغول، فقد استطاع أن يحقق ما أراد بدخول بغداد وتدميرها تماما، وهذا ما كان يفعله في كل المدن الإسلامية التي دخلها مثل سمرقند وبخارى وغيرها، إذ قام بقتل كافة السكان وتدمير عمرانها كله، ومما يجب الإشارة إليه أن الدولة العباسية في دورها الأخير سيطر عليها الشيعة المنتسبون لبني بويه، ومنهم وزير الخليفة العباسي ابن العلقمي، الذي عمل على نقل كافة المعلومات اللازمة لاقتحام بغداد إلى القائد المغولي هولاكو (كون بني بويه بعد ذلك دولتهم الشيعية في منطقة فارس).

ولكن استطاعت القوى الإسلامية في مصر أن تكسر شوكة القوة المغولية في أرض فلسطين بموقعة عين جالوت، وعندما حاولت القوى الصليبية التعاون مع القوى المغولية لتدمير القوى الإسلامية، استطاع بيبرس ببراعته العسكرية في كسر شوكة كافة القوى المعادية الصليبية والمغولية في عدة معارك متتالية، وأزال خطرهم، وتابع قادة دولة المماليك هذا النهج حتى تم القضاء على كافة الأخطار في منطقة الشام وفلسطين.

في نفس الوقت ظهرت قوتان إسلاميتان في شمال آسيا، قوة تحولت من العداء للإسلام إلى الجهاد تحت رايته، وهي بعض قبائل المغول، واتجهت للجهاد في منطقة الهند، واستطاعت اخضاع شبه القارة الهندية وتكوين الدولة والحضارة المغولية فيها، والقوة الثانية هي القبائل التركية، التي اتجهت إلى الجهاد في أوروبا، واستطاعت في النهاية أن تسقط الدولة البيزنطية وتحول عاصمتها إلى عاصمة لدولتها الجديدة، والتي عرفت باسم الدولة العثمانية، كما تشكلت في منطقة فارس دولة فارسية شيعية هي الدولة الصفوية، ودخلت الدولتان الأخيرتان في صراع استمر سنوات، وعندما تحالف المماليك مع الصفويين، قضى العثمانيون على الدولة المملوكية ودخلوا إلى منطقة الشام ومصر والحجاز، ثم تمددوا في شمال أفريقيا حتى منطقة مراكش.

إننا في تاريخنا الإسلامي نتعامل مع مراحل: مراحل امتداد، ثم مرحلة تشبه الثبات ثم مرحلة انحسار، هذا الأمر يجعل نظرنا إلى التاريخ الإسلامي والذي نحاول بلورته لكي يستوعب المستمع في هذه المساحة الزمنية كيف كانت مسيرة الإسلام، والأمر في هذا الإطار الحقيقة وفي كثير من الدراسات سواء متخصصين أو دعاة –والحقيقة التاريخ مريض بالدعاة– الدعاة ينتقون من التاريخ فتظن أن تاريخكم أو تاريخ الإسلام كله حروب وصراعات إما مع بعضها البعض –الإسلاميون أو الدول الإسلامية تحارب بعضها– وإما مع القوى الخارجية وهذا الأمر ما سوف نسعى لاستكماله في هذه المحاضرة، وفي المحاضرة القادمة سيكون استكمال ولكن فيما بعد ذلك سوف نتحدث عن تاريخ ليس بمنظور لكثير من الدعاة وهو تاريخنا الحضاري بمعنى تاريخ العمران، ماذا بنينا؟ وكيف

بنينا؟ ولماذا بنينا؟ وتاريخ العلم وهذه الحضارة التي كانت تعلم العالم العلوم المختلفة وعلمت العالم الطب وطب العيون وطب الجراحة وغير ذلك من الأمور.

وفي هذا الإطار ما سوف نحاول أن نجتهد في تغطية مساحة معقولة حتى نستشعر أن تاريخنا مظلومٌ بنا من خلال عرض الدُعاة، حتى عندما استُضفت إلى محاضرة رمضانية طلبوا أن يكون الأحداث الكبرى في رمضان وكان الحديث أقرب إلى أن يكون الحديث عن المعارك التي انتصر فيها الإسلام في رمضان حتى في رمضان عسكرناه، ومن اللطيف أن كثير من الدعاة عندما يتحدثون عن الأحداث الكبرى في رمضان يبدأون بغزوة بدر برغم أن الحدث الأكبر في رمضان هو نزول القرآن وليست غزوة بدر، ومن هذا الباب ظُلِم التاريخ فظننا أن تاريخنا هو تاريخ المعارك العسكرية، هذا ما يسمى التاريخ السياسي، نحن لدينا ألوان أخرى من التاريخ: تاريخ العلوم الشرعية، تاريخ العلوم التطبيقية، تاريخ الطب، تاريخ العمارة الإسلامية، حتى تاريخ بناء المساجد وتاريخ بناء المدن وتاريخ الأزياء وكيف تطورت، تاريخ خدمة ما يذاع الآن من أصحاب التحدي والحاجات الخاصة تاريخنا مع هؤلاء كيف تعاملنا معهم، وكيف صاروا من علماء المسلمين من أصحاب هذا التحدي أو من أصحاب الإعاقة، هذا هو تاريخنا الذي يجب أن نتوجه إليه ونعلمه للعالم وقبل أن نعلمه للعالم أن نتعرف عليه نحن.

حتى لا نستطرد في هذا الكلام نبدأ أو نشرع في استكمال ما سبق وأن تحدثنا عنه، شرعنا في مسيرة مع تاريخ الخلافة الراشدة وكيف أن الفتوحات الإسلامية توقفت خلال فترة المحنة أو الفتنة التي حدثت بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستقر الأمر إلى معاوية باتفاق مع سيدنا الحسن سبط رسول الله وابن سيدنا علي، هذا الاتفاق لم يكن كما يُشاع خاصةً عند إخواننا الشيعة الذين يقولون أن معاوية دس السم للحسن لأن كان الاتفاق أن يتولى السلطة بعده وهذا كذب، نص الاتفاق مكتوب عندهم وعندنا، ففي مصادر خاصة بالشيعة –الشيعة لهم مصادر خاصة بهم علميًا لا نقبلها– وأقول علميًا وليست عقائديًا، ولكن في هذا هناك بعض مصادر مشتركة ومنها ما يُورد هذا الاتفاق، الاتفاق أن يُرد الأمر

إلى المسلمين بعد معاوية وليس أن يؤول الأمر إلى الحسن؛ لأنه بتنازله لسيدنا معاوية لكي يحقن الدماء تنازل عن حقه وبالتالي لا يجوز له أن يفتئت على المسلمين بعد أن يزول حكم معاوية أن يؤول إليه، وبهذا كان الاتفاق الذي استقر على يد سيدنا الحسن وسيدنا معاوية أن يتولى معاوية السلطة وبدأ في هذا التاريخ، وهنا أقول أنه لدينا حالة نفسية تجاه سيدنا معاوية ليس بسبب هذا الموقف أو توليه السلطة، صحيحٌ أنه هناك بعض مشاكل في المسألة من ناحية من كان صاحب الحق في الصراع بين علي ومعاوية لكن المسألة أن سيدنا معاوية تولى ولايةً شرعية بهذا الشكل وبالتالي هذا الأمر الذي آل إلى معاوية آل بشكلٍ شرعي والمسألة أنه حمل الناس على بيعة بالإكراه لابنه يزيد في حياته، وتولى يزيد بعد ذلك وكان ما كان مع سيدنا الحسين سبط رسول الله وابن سيدنا علي أيضًا ومقتل الحسين في كربلاء وما كان من يزيد بعد ذلك في محاربته لجيوش أخرى وانتهى بموت يزيد وانتهت الدولة الأموية إلى حالة من حالات التردي ولكنها استطاعت أن يستقيم أمرها على يد عبد الملك بن مروان الذي انتزع السلطة من أبناء عمومته –من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني– وبالتالي أستطاع أن يعيد اللُحمة إلى الدولة الأموية مرة أخرى، وبدأت الفتوحات مرة أخرى تنتشر وتأخذ في التحرك حتى وصلت أكبر دولة إسلامية تحققت تحت إدارة مركزية –جملتي واضحة لأن هناك دول إسلامية سنتكلم عنها لم تكن تحت لواء الدولة الإسلامية–، أكبر دولة إسلامية في التاريخ تحققت وكانت تحت إدارة مركزية واحدة كانت الدولة الأموية في دمشق في عهد هشام بن عبد الملك، هشام كان بعد الخليفة الذي يُعرف باسم الخليفة السادس أو الخليفة السابع كما أختلف مع من يختلف معي في أنه الخليفة الخامس –عمر بن عبد العزيز– لأنها تحققت من جنوب فرنسا وليس من دولة الأندلس فقط بل من جنوب باريس بحوالي سبعين كيلو متر هذه كانت حدود الدولة الأموية، تقريبًا في حدود سبعين إلى مائة كيلو متر المساحة التي توقف عندها المد الإسلامي إلى الصين، بمعنى –الصين لم تكن دخلت أو لا يحكمها حاكم من قِبل الدولة الأموية– لكنها كانت تدفع الجزية للدولة الأموية، لأن القادة مسلمون وقتيبة بن مسلم جاهلي ومحمد بن القاسم وصلوا إلى حدود السند شمال الهند وحدود الصين وأجبروا إمبراطور الصين على أن يدفع الجزية

إلى الدولة الإسلامية وهذا كان أقصى اتساع للدولة الإسلامية تحت إدارة مركزية في دمشق، هذا لم يتحقق في التاريخ مرة أخرى، دولة بهذا الاتساع بهذا الشكل تحت إدارة مركزية هذا ما أكرره.

في هذا الإطار استقرت الدولة الأموية كان حجم من الثراء للدولة كبيراً جدًّا استطاعت أن تقضي على كثير من الفتن الداخلية بكثير من القسوة وتحدثنا عنها في وقتها، انتهى الأمر إلى نوع من أنواع القلاقل بدأ على استحياء ثم تطور من خلال ما يُعرف باسم الدعوة العباسية أو الدعوة للرضا من آل محمد، لأن كانت الدعوة إلى أن يكون الحاكم من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتم القضاء على هذه الدعوة في بعض الأماكن ولكن استطاعت الانتشار في منطقة فارس أو ما يعرف باسم إيران الآن، واستطاعت أن تعود بقوة عسكرية هزمت جيش الأمويون واستطاعت أن تحقق انتصارات متعددة كانت بقيادة أبو مسلم الخُراساني –قيادة الجيوش– لكن قيادة الدولة التي بدأت تفرض نفسها هو من عُرف باسم عبد الله الأول والذي عرف باسم أبو العباس أو الملقب الذي حصل عليه في التاريخ باسم السفاح، لماذا سمي بهذا الاسم؟ لأنه حكم أربع سنوات كانت جميعها ذبح، واستطاع خلال هذه السنين أن يقضي على بني أمية ليس باستسلامهم وحتى من استسلم منهم ذبحهم، لم يستثني منهم أحدًا وقتل آخر الخلفاء مروان بن محمد في موقعة الذاب الكبير واستطاع أن يقضي على الخلافة الأموية وطارد الأمويون في كل مكان قد يتواجدون فيه.

نقول أن الدولة الأموية انقضت وسقطت في ١٣٢ على مدى أربع سنين أبو العباس أو عبد الله بن محمد كان الحاكم الأول بعده كان عبد الله الثاني والذي عُرف باسم أبو جعفر المنصور والذي حكم فترة زمنية أطول وخلال هذه الفترة أيضًا استخدم الذبح ولكن استخدمه مع الأمويين ومع أبناء عمومته –الطالبيين من نسل علي بن أبي طالب ومحمد النفس الزكية وإبراهيم– قضى عليهم قتلهم واستمر في ذبح أبناء عمومته هو الذين تولوا السلطة في عهد شقيقه عبد الله بن محمد الأول –السفاح–، انتهى الأمر إلى يد المهدي

وبعد ذلك انتهى الأمر إلى استقرار أحوال الدولة فبدأت تنحو إلى العلوم وإلى العمران وإلى تطوير أحوال الناس وانتشرت معالم الحضارة التي لم يكن لها مثيل في العالم وبنوا عاصمة جديدة للدولة وابتعدوا عن منطقة دمشق والتي كان فيها ما فيها في الدولة الأموية وبنوا عاصمة جديدة وهي بغداد في منطقة العراق –منطقة القوة الخاصة بهم– واستمر عهدهم لفترة ليست بالقليلة من ١٣٢–١٢٥٨ حوالي أكثر من عشر قرون، هذه القرون تراوحت المسألة ما بين القوة والضعف فكان هناك ثورات عنيفة جدًا مثل ثورة الزنج وغيرهم –من ذوي البشرة السوداء– والذين عانوا كثيرًا في الحضارات كلها وأدى الأمر في النهاية أن قاموا بثورة ضد النظام القائم وقُمعت بشدة وعنف شديد كما هو العهد في الدولة العباسية، وكان في بابك الخرامي الذي أقام دولة بالفعل، قطع جزء من الدولة واستقل به ولكن طبعًا جاء هارون الرشيد ومن بعده المعتصم فقضوا عليها قضاءً مبرمًا، –بابك الخرامي هذا ادعى الألوهية–.

انتهت الدولة العباسية في حالة التدهور ما بين –كان بدأ يصعد ما يسمى نظام الوزارة والذي فيه عندما يرى الوزير أن الخليفة ضعيف فيبدأ بالتحكم في كافة الأمور– لذلك عندما تقرأوا في كتب النظم الإسلامية وهو مصنف علمي في كثير من الكتابات داخل منظومة الحضارة الإسلامية (ماذا يعني نظام الدولة؟ أو ما هو دولاب العمل في الرئاسة؟) نجد فيه ما يسمى بوزارة تفويض ووزارة تنفيذ ما معنى هذا؟ وزارة تفويض بمعنى أن الخليفة ليس موجودًا أو مريضًا أو خرج للجهاد أو مشغولًا لأي سبب أو آخر فيقوم بتفويض وزيره في كل صلاحيته فيصبح قراره نافذ وكأن الخليفة هو الذي يصدر القرار ولكن يستمد قوة قراره من قِبل أنه مفوض من الخليفة أو أمير المؤمنين، أما وزير التنفيذ مثلًا لديه مهمة فهو مكلف بمسألة محددة عندما ينتهي منها يرفع تقريره للخليفة وتنتهي مهمته عند هذا الحد وقد تكون المهمة ممتدة، المهم أن له مهمة محددة وليس في المطلق، فبدأت حكاية وزارة التفويض تنتشر في النصف الثاني المسماة بالعصر الثاني والعصر الثالث في الدولة العباسية ثم جاء العصر الأخير للدولة العباسية وكان على رأس الدولة وزير اسمه ابن العلقمي وكان البعض يقول أنه من الخوارج أو من الشيعة المهم أنه كان خائنًا خيانة

عظمى حيث أرسل بمواطن الضعف إلى هولاكو وحض هولاكو على الهجوم واستطاع أن يرسم خريطة الهجوم لهولاكو على صلعة أحد العبيد ويرسله له فعرف كيف يتم الهجوم على الخلافة العباسية في بغداد وفعلًا حدث الهجوم ودُمرت بغداد تدميرًا تامًا.

وأريد الإشارة سريعًا أن مسألة أن النهر اسودّ من الأحبار هي مقولة تاريخيًا ليس لها مصداقية كبيرة، توجد مجموعة من الأشياء سنشير إليها ليس له مصداقية من مثل خطبة طارق بن زياد في الأندلس (العدو من أمامكم والبحر من خلفكم، وأنه أحرق السفن.. وغيره) هذا الكلام تاريخيًا أولًا وقبل كل شيء طارق بن زياد لم يكن عربيًا والجيش الذي كان معه معظمه لم يكن من العرب فكيف يقول لهم خطبة عصماء باللغة العربية فلن يفهموا منها شيء، دار الحكمة التي كانت في بغداد كانت أُهملت على مدار الزمن إلى حد كبير، ما كان في هذا النهر هو بعض الكتب لكن المسألة أنهم صنعوا منها جسرًا عبرت عليه الخيول الحقيقة هذه مساحة من المبالغات تعودنا عليها في بعض كتب التاريخ، هذا فقط لكي تتصوروا عِظم ما حدث في هذه الواقعة التي عندما وصلت أخبارها للمؤرخ الكبير ابن الأثير ظل فترة من الزمن لا يستطيع أن يستوعب هذا الهول الذي حدث في هذه الواقعة.

عندما سقطت بغداد كان هناك هجوم سابق قبل بغداد قبل أن يحدث هجوم المغول كان هناك جيوش جاءت وبنت ممالك في منطقة الخلافة العباسية التي هي منطقة الشام وفلسطين، وهذا كان هجوم صليبي أو هجوم جاء من الغرب المسيحي واستقر في منطقة الشام تحت اسم أن هذه الممالك كانت امتدادًا قديمًا للإمبراطورية الرومانية وأن هذه مناطق تعبد للمسيحيين وبالتالي يجب أن يحكموها سواء سلمًا أو حربًا، هنا قلنا أن حركة المقاومة قد بدأت.

الالتئام ما بين أن هناك حركة صليبية مسيحية أوروبية والتي جاءت وذبحت كل الموجودين سواء مسلمين أو مسيحيين أو يهود لم تترك أحدًا لأن مسيحيين الشرق بالنسبة للمسيحيين الغرب هم كفرة وهذا المعتقد سائدًا حتى الآن كلا الطرفين يُكفِّر الآخر، فهذه مسألة يعرفونها ولا ندعيها على أحد، ما يهمنا هو أننا نتكلم عن حالة الدولة الإسلامية في

هذه المرحلة كانت هي حالة محاولة الدفاع عن الذات تنهزم حينًا وتدفع حينًا هذا هو مسار الأحداث.

هذه هي الدولة العباسية حتى أن سقطت في بغداد، كانت مصر تستقبل حملة صليبية عنيفة جدًا –الحملة الصليبية السابعة– وكان على رأسها الملك لويس التاسع وأُسر في هذه الحملة وكان هذا في عهد الدولة الأيوبية، امتداد الدولة الأيوبية في هذا الوقت كان بلغ من الضعف ولم يكن بذات القوة التي كانت في عهد صلاح الدين، وكان الملك الصالح أيوب المتواجد في ذلك الوقت توفى أثناء المعركة وتولت السلطة سرًا شجر الدر زوجته وكانت جاريته ثم سارت زوجته وبالتالي أُديرت المعركة من خلالها ومن خلال قادة الجيش وكان على رأسها بيبرس وسيف الدين قطز، وبعض القادة الآخرين بالطبع.

جاء بعد ذلك من يريد أن يتولى السلطة أثناء وجود شجر الدر من أبناء الأسرة الأيوبية حدث خلاف بينه وبين القادة فقتلوه فأُجبرت شجر الدر على الزواج من أحد أمراء المماليك (أيبك) ولكنه قتل ثم أقطاي ولكنه قتل ثم أزاحوها وقتلت هي أيضًا في قصة تعلمونها لأن لها تفاصيل مضحكة وكثيرة.

المسألة بعد ذلك أن المماليك تولوا السلطة وحاربوا التتار في عين جالوت واستطاعوا هزيمتهم وكسرت شوكة التتار لأول مرة في تاريخهم، هذا الأمر أدى في النهاية إلى أننا نتكلم عن دولة جديدة هي دولة المماليك، نحن نتكلم عن الفترة ١٢٥٨ أو ١٢٦٠ ميلادية وفي هذا التاريخ نبدأ القول أن دولة المماليك ورثت الموقف مع الصليبيين –الحرب مع الإمارات الصليبية التي كانت موجودة في هذا الوقت في منطقة الشام– وفي نفس الوقت ورثت ما كانت تحكمه الدولة الأيوبية، أمراء المماليك كما قلنا كان هناك حدث مع الشيخ العز بن عبد السلام لم نذك ره، ولكننا اليوم نريد أن نلفت النظر إلى مساحة لم يكن أو لم يتكلم عنها كثير من أهل التاريخ أو من يتكلم عن التاريخ الإسلامي ألا وهي مساحة أفريقيا والتي أظن أن تسمعوها بشكل أظن أن الكلام يأتي عنها عرضًا في بعض الأدبيات أو شيء من هذا القبيل، انتشار الإسلام جنوب الصحراء إلى آخره، الحقيقة أن هذه المساحة –

ولذلك عندما تكلمنا عن أوسع دولة إسلامية قلنا أن أوسع تحت إدارة مركزية في دمشق– الإسلام في أفريقيا الحقيقة كوّن دولًا، في البداية سنتكلم عن الإسلام أول دخوله إلى أفريقيا كان على يد عمرو بن العاص في مصر –مصر جزء من أفريقيا– والتي يحاولون إخراجها من أفريقيا، أول دخول للإسلام في أفريقيا كان إلى مصر وكان أول مسجد أُسس في أفريقيا كان مسجد عمرو بن العاص الذي كان خيمة القيادة في مواجهة حصن بابليون الذي استطاعوا أن يفتحوه بعد قتال ومفاوضات طويلة، وانتهى الأمر إلى أن مصر كلها أو – منطقة الدلتا إلى نصف منطقة الصعيد– هي التي تم فتحها منطقة الفيوم وشمال الصعيد وسميت فتح مصر بعد ذلك بدأت الفتوحات الإسلامية تمتد إلى منطقة الجنوب حتى وصلت إلى منطقة النوبة في مرحلة لاحقة بعد ذلك.

بعد ذلك لم تهتم الجيوش بالتوغل إلى الجنوب بل اهتمت أن تسير على ساحل البحر المتوسط لماذا؟ هذه المنطقة كانت امتداد طبيعي للساحل المصري هذا من جانب، ومن جانب آخر أن هذا كان الامتداد الطبيعي الذي يأتي منه أي هجوم من الدولة البيزنطية والتي كانت تحكم هذه المنطقة، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تصل إلى ما يُعرف باسم أفريقية –تونس اليوم– وبنوا فيها القيروان ومسجد القيروان والتي كانت قاعدة لنشر الإسلام في منطقة جنوب الصحراء هذه كانت نقطة البداية لانطلاق الدعاة إلى جنوب الصحراء وليسوا جيوش لكن الفتوحات استمرت، وقلنا أن كان هناك منطقة تسمى مملكة الكاهنة كانت تحكمهم امرأة واستطاعت أن تقاوم الجيوش التي كانت تتوجه إليها فترة من الزمن ثم عندما انقلبت على مراكز القوى في دولتها فمراكز القوى قامت بتسليمها إلى الجيوش الإسلامية وانتهت الدولة الكاهنة والتي يحاولون إرجاعها إخواننا في المغرب العربي الآن وكأن هذا هو تاريخهم وأن العرب كانوا محتلين.

المهم أن الجيوش العربية قد دخلت إلى هذه المنطقة وأسلمت هذه المنطقة منطقة الجزائر واستطاعت أن تصل إلى المغرب العربي ثم عبرت إلى منطقة الأندلس وقاتلت المحتلين لبلاد الأندلس من"القوط" وهنا شرحنا أن أوروبا كلها تعرضت لهجمات من القبائل

التي كانت تسكن وسط آسيا تحت ضغط من قبائل خلفها اسمها قبائل "الهون" دفعت هذه القبائل قبائل اسمها "الجيرمانية" وقبائل "القوط"، القبيلتين تم دفعهم –حتى قبائل "الأنجلوساكسون"– كلهم جميعًا جاءوا من المناطق الآسيوية فانطلقوا إلى أوروبا هربًا من هذا الضغط كانت قبائل الهون وقبائل التتار بعد ذلك، لأن كانت حروب شرسة جدًا ورأينا طبيعتهم في أثناء غزو العالم الإسلامي في بغداد وبخارا وسمرقند ونيسابور إلى آخر كل هذه المدن تم تدميرها بالكامل ثم أعيد بناءها بعد ذلك.

نقول أن هذه المساحة حدث إزاحة بدأت هذه القبائل تنزل على أوروبا من وسط أوروبا إلى غرب أوروبا ونزلت إلى منطقة إيطاليا فقضت على الإمبراطورية الرومانية ولذلك قامت الدولة الرومانية أقامت عاصمة جديدة سمتها بيزنطة وسكنتها وتركت روما للقبائل التي تهاجم روما، وباقي القبائل بدأت تتحرك إلى مناطق أخرى التي هي مناطق غرب أوروبا التي سكنها بعد ذلك ما يُعرف بالقوط والذين لم يكونوا سكان البلاد الأصليين ذهبوا وقضوا على سكانها الأصليين واحتلوا مكانها فكان وجود أو الصعود الإسلامي من المغرب إلى منطقة إسبانيا –كانت كما طردوا الرومان من مصر طردوا القوط من إسبانيا– واستطاعوا إخراجهم منها وانتصروا في إسبانيا هذه قصة سنسردها في المحاضرة القادمة عن أوروبا، لكن نحن نتكلم عن أن مساحة أفريقيا كانت البداية.

بعد ذلك بدأت يتكون في هذه المساحة دولة تحت حكم الدولة الأموية ثم حكم تحت الدولة العباسية، لما قامت الدولة العباسية انفصلت الأندلس –الأندلس فقط– كدولة أموية لكن المغرب ظل خاضعًا للدولة العباسية، لكن بتطورات الأحداث بدأ يحدث نوع من أنواع الاستقلال الذاتي لكل هذه المناطق، بدأ يخرج من منطقة المغرب الأقصى دعاة وكما قلنا أن الدولة الفاطمية جاءت من منطقة المغرب العربي حتى استقرت في مصر ثم تم القضاء عليها على يد صلاح الدين الأيوبي، هذه المنطقة عادت إلى حضن السنة لأن الدولة الفاطمية كانت دولة شيعية، المسألة بالتالي بدأت الدولة التي تكونت بدأ يحدث نوع من أنواع الأمراء يبدأوا يتوجهوا لتوحيد القوة في هذه المنطقة في مواجهة بعضهم البعض

فيوحدوا القوة كلها تحت إدارة واحدة واستطاع أحد أمراء دولة المرابطين أن يجمع القوة ويضم الجزائر وضم تونس أو أفريقية وأحضر شيخًا ليعيد إيمان الناس بمذهب السنة اسمه عبد الله بن ياسين، أنا أقول هذا الاسم ولن أقول اسم الأمير، لأن هذا هو الاسم الأقوى في هذا الإطار، عبد الله بن ياسين عاد معه نشر المذهب السني ونشر معه الفقه المالكي ولذلك تجد أن كل المغرب العربي فقه مالكي لأنه كان مالكيًا، وبدأ بعمل شيئًا جديدًا لم يكن مسبوقًا فهو لم يتوجه للصعود لمحاربة الفرنجة في أوروبا فبدأ بالنزول والتوجه –من أين جاء بهذا؟ من أفريقية وكما قلنا أن أفريقية اسمها تونس وما بناه المسلمون في أول عهدهم القيروان، ومن القيروان بدأت تبعث بالدعاة، فالشيخ كان له تلاميذ انتشروا في أماكن كثيرة وكان مشغول بالجانب الأفريقي– عبد الله بن ياسين جاء إلى المغرب العربي وبدأ في جمع تلامذته وعندما وجدهم أصبحوا قوة بدأ في فعل شيء غير مسبوق فما الذي فعله عبد الله بن ياسين؟ عبد الله بن ياسين بدأ بعمل ما يسمى المرابط، هذه المرابط يأتي بها على أقصى حدود الدولة –الدولة الإسلامية في المغرب– المنطقة الفاصلة بينه وبين الوثنيين في أفريقية ويصنع قلاعًا صغيرة – لم تكن كبيرة كانت عبارة عن بضعة أخشاب أو حصون خشبية بسيطة ليسكنوا داخلها لكن اسمها المرابط– لذلك أُطلق على اسم الدولة اسم المرابطين، هؤلاء المرابطين في هذه الحصون –الهجمات التي تأتي عليهم من الوثنيين (القبائل الموجودة في أفريقيا عبر ما يعرف باسم نهر النيجر)– لماذا ينتظر هجوم الآخرين، كان يرسل لهم الدعاة فكان بعضهم يُقتل فيبدأ عملية دعوة مع الوجود المسلح فيحمي هؤلاء الدعاة فمن يقتل داعية معناه أنه أعلن عليه الحرب فيبدأ يقاتله غير ذلك هو يستخدم الدعوة السلمية مع القبائل، وبالفعل استطاع إدخال الإسلام إلى منطقة نهر النيجر بأكملها المنطقة التي تعرف باسم السنغال ومنطقة وسط أفريقيا.

وامتدت دولة المرابطين لتشمل مع منطقة الجزائر –امتدت من تونس إلى الجزائر إلى المغرب إلى منطقة موريتانيا إلى منطقة السنغال– وبالتالي أصبحت دولة المرابطين دولة لها امتداد داخل أفريقيا أكبر من الامتداد الأوروبي لأن هو بعد ذلك سيأتي أمراء الطوائف في أسبانيا –وسوف نتكلم عن هذا الموضوع عند الحديث عن أوروبا– يستنجدوا

بهذه الدولة القوية الفتية في المغرب العربي –دولة المرابطين– فتحدث موقعة الزلاقة مع يوسف بن تشفين وينتصر فيها على جموع الصليبيين إلى آخر هذه القصة التي روينا بعضًا منها وسوف نستطرد فيها فيما بعد.

عبد الله بن ياسين يترك الدولة المرابطية والتي بنت مدينة مهمة حتى الآن معروفة حتى كانت تُعرف المغرب بها هي مراكش، والتي عرفت كعاصمة للمرابطين حتى أنه كان يطلق على أهل المغرب المراكشيين، عبد الله بن ياسين كان معه أمير أحد القبائل وهذا الأمير ولّى ابنه –وهو المهم– اسمه أبو بكر بن عمر، أبو بكر بن عمر استمر في حالة الدعوة بعد عبد الله بن ياسين توفاه الله عز وجل ولكنه استمر بشكل عسكري أكثر فبدأ يكوّن دولة جديدة في وسط أفريقيا واستطاع القضاء على العبادة الوثنية في وسط أفريقية وفي قبائل كثيرة في هذه المنطقة حتى هذا الحد نقول أن المسائل بهذا نتكلم عن دولة تتشكل تدريجيًا في وسط أفريقيا ما معنى هذا؟ معنى هذا أننا سنتكلم عن دولة تكونت اسمها دولة مالي أو إمبراطورية مالي، لماذا نتكلم عن هذا الأمر؟ دولة مالي حقيقةً من الدول التي يجب أن ننتبه لها جيدًا لأنها استطاعت أن تحقق دولة بكل معنى الكلمة واستطاع قادتها أن يكونوا دولة مسلمة تهاجم وتدعو في نفس الوقت –أي ساروا على نسق رسول الله صلى الله عليه وسلم– واستطاعوا أن يكونوا بما يعرف باسم إمبراطورية مالي لأنها امتدت من جنوب الجزائر حتى منابع أو أماكن الذهب، وفي قصة مشهورة جدًا في مصر عن ملك مالي أو إمبراطور مالي قصة الذهب، لدرجة أن الصحف الأوروبية –وكانت هذه أحد الكوارث التي حدثت– أن الصحف الأوروبية تناقلت صورة هذا الرجل وهو يحمل قدر من الذهب على صدره ويحمل قدور من الذهب على يديه فجعلت الأوروبيين يسيل لعابهم لهذه المنطقة، هذا الرجل حمل إلى مصر –في عهد دولة المماليك والتي ما زلنا نتكلم عنها– كان في رحلة الحج وسميت هذه الرحلة برحلة الذهب لأنه حمل معه كمية كبيرة جدًا من الذهب نتاج الثراء الشديد الذي كانت فيه هذه الدولة، واستطاع أن يوزع أول ما يصل إلى مصر على المصريين قدر كبير من هذه العملات الذهبية التي جاء بها وأهدى إلى سلطان مصر في هذا الوقت قدر كبير من هذا الذهب ثم أخذ الباقي فوزعه في طريقه إلى الحج لأن هذا كان

طريق الحج –من يريد الحج يجب أن يأتي إلى مصر لكي يعبر عن طريق سيناء البري لأنهم لم يكونوا يحبون طريق البحر– فيذهب إلى مكة والمدينة، ووصل إلى مكة والمدينة ووزع ما تبقى معه من الذهب على الناس هناك فكانت مثار حديث حتى في كتب التاريخ عن هذه الرحلة التي أطلق عليها البعض (الرحلة الذهبية).

هذه الإمبراطورية حقيقةً –في ثروة موجودة في أفريقيا– البعض قد يستغربها هي حقول الملح اسمها الملح الصخري وكان غالي الثمن ولم تكن المسألة سهلة أو لم يكن الناس معتادة على تجفيف البحر لاستخراج الملح، وكان الملح الصخري يستخدم في استخدامات عديدة ليس في الأكل فقط بل يستخدم في العلاج وأمور كثيرة خاصة بالناس العادية الفقيرة، كانت حقول الملح تحت سلطانه، وحقول الذهب تحت سلطانه مساحات واسعة من الغابات تحت سلطان هذا الملك أو هذه المملكة، واستطاعت أن تستمر إلى فترة قدوم المحتل الغربي الذي أنهى هذه الإمبراطورية إنهاءً دمويًا وتعمد أن يُقطع أوصالها بشكل سنتحدث عنه فيما بعد.

الدولة الثانية التي لا بد أن نذكرها في هذا الإطار دولة البوسعيدية، ما هي الدولة البوسعيدية؟ هذه الدولة لم يتم تأسيسها في أفريقيا بل تم تأسيسها مكان سلطنة عُمان حاليًا على الخليج العربي، لكن أحمد بن سعيد البوسعيدي الذي استطاع أن ينظم أمور بلاده بشكل كانت في حالة تنازع واستطاع أن يمد بعد ذلك سلطانه إلى جزء كبير من اليمن والذي يُعرف بمنطقة حضرموت ثم استخدم البحر للعبور إلى منطقة السواحل الأفريقية وهي منطقة الصومال وجيبوتي وإريتريا، كل هذه المنطقة خضعت للدولة البوسعيدية واستطاعت هذه الدولة أن تؤسس لنفسها حكم قوي ونوع من أنواع الازدهار وتعليم الناس ولكن كان طبعًا يعيب هذه الدولة أنها كانت تعتمد في تجارتها على شيئين، هذه الدولة أخذت جزء من سواحل الهند ضمته لها وجزء من السواحل الأفريقية فكانت دولة بحرية بامتياز بَنَت أسطول قوي جدًا لدرجة أن السلطان العثماني استعان بالدولة البوسعيدية من أجل إيقاف الامتداد البرتغالي الذي وصل إلى هذه المنطقة نتاج الكشوف الجغرافية التي أشرنا إليها من قبل

وسوف نستطرد في الكلام عنها، وبالتالي هذا الامتداد الأفريقي دخول الإسلام إلى هذه المناطق، تكوين دول في هذه المناطق ولذلك عندما نتكلم عن السودان في أفريقيا –الدول الإسلامية في السودان– لا نعني دولة السودان المعروفة اليوم، كلمة السودان تعني المنطقة جنوب الصحراء بأكملها وسط أفريقيا بأكمله، منطقة تشاد– نيجيريا– غانا– مالي كل هذه الدول التي نذكرها فهي حوالي أكثر من ١٢ دولة في منطقة الكونغو بأكملها كل هذه المناطق هي كانت دول إسلامية حتى جاء الاستعمار الغربي سواء الفرنسي أو الإسباني أو البريطاني أو الإيطالي كل هذه الدول لو نظرت إلى الغالبية العظمى ستجدهم مسلمين وأن الدول المسيحية أجبرت عدد كبير من السكان على التحول بالضغط وبالإفقار وبالتعذيب وسوف نتكلم عن كيف كانوا يُذبحون ذبحًا عن طريق ملك بلجيكا الذي استطاع أن يقتل عشرة ملايين من أهل الكونغو لكي يُخرجون له الألماس والثروات التي كانت في المناجم.

الحديث عن أفريقيا أردنا فقط أن نشير إلى الامتداد الإسلامي والدول الإسلامية التي تكونت، إمبراطورية مالي كانت إمبراطورية قوية جدًا، دولة المرابطين كانت دولة قوية جدًا وامتدت في داخل الأفريقي، دولة غانا كانت مقسومة لاثنين جزء وثني وجزء إسلامي واستطاعت أن تنشر الإسلام في هذه المناطق، دولة البوسعيدية استطاعت أن تنشر الإسلام في هذه المناطق وكان سواء هذه المناطق جميعًا تمتد إلى التواصل مع الشمال الإسلامي فكانت تمتد إلى القاهرة وإلى مراكش وإلى القيروان لكي تأتي بالعلماء ليعلموا أبناءها الإسلام وهذا هو الذي وطّن الإسلام في هذه المناطق وما زال قائمًا، ولذلك عندما يقول لك شخص استكشاف أفريقيا قل له لا إنما هي استعادة إفريقيا، لأنها قارة مسلمة على مدى أكثر من ٢٠٠ سنة يحاولوا تنصيرها واستعبادها ومع ذلك أكثر من حوالي ٦٠% ما زالوا مسلمين من سكانها حتى هذه اللحظة.

في ما سبق حاولنا أن نحيط بما كان من دول إسلامية في القارة الأفريقية، وهذا الأمر مهم حتى نستوعب أن الإسلام لم يكن قاصرًا على الدول التي تعودنا أن نحكي عنها، مثل الدولة الأموية ثم العباسية ثم المماليك، الدولة الأيوبية وهكذا ودول المرابطين والموحدين في المغرب أو في خلاف ذلك من الدول ولكنه امتد في الأرض حتى وسط أفريقيا أو اقترب من جنوب أفريقيا وهذا على مدار سنوات طويلة

من الدعوة والعمل المخلص لدعاة المسلمين سواء من مصر أو من جنوب السودان الذين تحركوا في اتجاه وسط أفريقيا، أو من المغرب الذين انطلقوا لكي يحولوا مناطق وقبائل بأسرها إلى الإسلام في وسط أفريقيا.

هذه كانت إلمامة سريعة وأرجو أن يكون هذا في أذهانكم وأن تتوسعوا بالقراءة في هذا الشأن لأنه من المهم أن تعلموا أن أفريقيا التي تُستهدف اليوم بعمليات من الإفقار وأقولها صريحة أنها عمليات من الإفقار وتعمد فرض التخلف على هذه القارة الأفريقية هي امتداد لنوع من الوقوف أمام المد الإسلامي في هذه المنطقة واستحواذ على الثروات الهائلة الموجودة في أفريقيا، وبالطبع وهذا يأتي من خلال نشر الصراعات الأهلية في داخل القبائل التي ما زال لها كينونتها وحضورها في الواقع السياسي داخل أفريقيا.

اليوم سوف ننطلق سريعًا إلى أوروبا وآسيا في محاولة إلى أن نحيط بها بشكل مبسط جدًا لأن لدينا أو الحقيقة هو امتحان لي شخصيًا أنني أستطيع أن أنقل خلال هذه الدقائق جذور الواقع المعاصر، ولا أقول المعاصر بمعنى ما هو واقع خلال هذه الأيام، فالواقع خلال هذه الأيام لكي نستطيع أن نفهمه نحتاج لمناقشة أشياء كثيرة في القرن العشرين، وهذه مسألة من الممكن أن نعقد لها جلسة لو رأيتم هذا نوضح فيها بعض الملامح الأساسية التي صنعت واقع القرن الواحد والعشرين خاصةً ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن واقع القرن العشرين يرجع إلى ثلاثة قرون قبلها أو ما بين ثلاث إلى أربع قرون قبل القرن العشرين، دعنا نبدأ أولًا بحديث سريع عن انتشار الإسلام أو التمدد الإسلامي داخل قارة أوروبا وداخل القارة الآسيوية.

داخل القارة الآسيوية ابتداءً هو كان منشأ الإسلام في شبه الجزيرة العربية التي هي ما نعرفه اليوم أنها جزء من قارة آسيا، وكان الامتداد منذ اليوم الأول لتكون الدولة الإسلامية على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شمال الجزيرة وإلى اليمن فبالتالي نحن ندين لهذه الفترة أن وصل إلينا الإسلام من خلالها أو من خلال الرجال الذين حملوا الإسلام في هذه الفتوحات التي شملت العالم القديم، لفظة العالم القديم هي ما قبل ما سوف نتحدث عنه اليوم ما يُعرف باسم الكشوف الجغرافية.

العالم القديم هو ثلاث قارات: قارة أفريقيا وقارة آسيا وقارة أوروبا، قارة أوروبا كما تحدثنا في حديثٍ سابق أنها كانت محل لغزو قبائل من وسط آسيا تحت ضغط قبائل أخرى فانتهى الأمر بها إلى دخول مجموعات عرقية مختلفة مثل قبائل الجرمانية والأنجلوساكسون والآرية كل هذه القبائل قبائل في أصلها آسيوي، ولذلك نجد أنه حتى في جذور اللغات الموجودة اليوم يطلقون عليها ما يسمى اللغات

الهندو أوروبية هذه أصل اللغة، أما اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية القديمة هذا أمر سنتحدث عنه بعد قليل.

ما المشكلة التي حدثت؟ أن الدول الإسلامية حدث لها امتداد في عهد الدولة الأموية ثم حدث ما حدث في الدولة العباسية واستمر في الدولة المركزية، ولكن بعد ذلك كما تحدثنا سابقًا ضعفت الدولة فبدأ كل جزء منها يستقل، ومع الاستقلال يريد أن يتمدد فبدأت تظهر قبائل أو تدخل إلى الإسلام قبائل، عندما دخل الإسلام إلى وسط آسيا بدأت هذه القبائل تقاوم وتتمرد ولكن في نفس الوقت بدأت الحالة الإسلامية تنتشر والتحول إلى الإسلام ينتشر في وسط آسيا فتبنته قبائل منها قبائل مغولية حتى هناك زعيم مغولي مشهور يسمى تيمورلنك ما بين العنصر التركي والعنصر المغولي –خليط في أصوله– واستطاع أن يصل إلى الشام حتى في قصة مشهورة عن صاحب التاريخ المشهور صاحب المقدم المشهورة –ابن خلدون– أنه اتصل بتيمورلنك وصار من مستشاريه المقربين، وطبعًا كان هناك صراع مع العالم الإسلامي وكانت القصة في زمن ابن تيمية وليس هنا محل التفصيل فيها، ولكن هذه القبائل تحت إحساسها بالافتقار الحضاري انتمت إلى الإسلام.

يكثر الكلام على الانتماء الصوري والانتماء الشكلي والانتماء الذي كان تُقيا لكي يدخلوا إلى المناطق الإسلامية هذا حديث ليس هنا محله، ولكن هذه القبائل تحولت إلى قبائل مسلمة ثم بدأت تتحرك باسم الإسلام وتتحاكم إلى الشريعة الإسلامية، الطبقة الحاكمة في هذه المنطقة كانت تتحاكم إلى ما يسمى إلياسا، كان إلياسا قانون وضعه جانكيز خان وخلفاؤه ليتحاكموا إليه إنما في المجتمع كان التحاكم إلى الشريعة الإسلامية، نحن هنا لا نناقش ما هو قانون إلياسا وما هي طبيعته ولكن كان من يقتل شخص يأخذ سلبه ومملكته ويتحمل مسؤولياته أمام الجموع، وهذا ما حدث في مصر لأن من حكم مصر من المماليك كانوا من نفس الفئة كقطز وبيبرس ومن صاحبهم، فكانوا يتحاكمون إلى إلياسا –أنه إذا قتلت الأمير فأنا أتحمل مسؤولياته وأخذ كل ما له وهكذا–.

هذا الأمر انتقل إلى وسط آسيا فالقبائل كمجتمعات دانت إلى الشريعة الإسلامية وصارت تتحاكم في كل شؤونها إلى الشريعة الإسلامية لأنه ليس لديهم قانون يستطيع أن يحكم بقدر من العقل والمنطق والعدالة بين الناس كما كانت توفره الشريعة الإسلامية لهذه المجتمعات.

بدأت هذه القبائل تدخل إلى شمال الهند وإلى مناطق بنجاب –جزء من باكستان– ثم بعد ذلك شيئًا فشيئًا بدأت تتجه إلى الجنوب حتى حكمت الهند بأكملها على يد سلطان بابر، وكان طبعًا السلطان أكبر واحد من أعظم الملوك أو السلاطين الذين حكموا الهند بأكملها ومنطقة الهند وباكستان كانت دولة

واحدة لذلك تم تسميتها الإمبراطورية المغولية، ثم ظهر بعد ذلك بعض السلاطين حتى باني تاج محل وغيره والذين كانوا امتداد لهذه الإمبراطورية، ودخل الإسلام بشكل سلمي إلى جنوب شرق آسيا –منطقة ماليزيا وإندونيسيا اليوم– وهذه دول إسلامية بالكامل دخلت دون حروب وهذه تعتبر واحدة من الدلائل الواضحة على أن الإسلام يستطيع أن يدخل إلى مجتمعات فيحولها بأسرها وبأكملها ولكن لا بد أن نُقر أنه كان هناك قدر غير قليل من العقل داخل هذه المجتمعات وداخل حكام هذه المجتمعات مما أدى في النهاية إلى تحولها إلى الإسلام نتاج صدق التجار وأمانتهم وحسن تعاملهم مع الناس بدأ يحول الناس لأن يكونوا حكماء ما بين حكام هذه المناطق التي كانت في منطقة إندونيسيا وماليزيا فكانوا يصلحون فيما بينهم فبدأ الحكام نفسهم يتحولون إلى الإسلام ويتزاوجون فتكونت الدول الإسلامية في هذه المناطق حتى وصلت إلى جزر الفلبين وانتشرت هذه المناطق الدولة الإسلامية دون قتال.

في أقصى شمال آسيا هناك قبائل تتحرك تحت ضغط قبائل أخرى –قبائل المغول القديمة (قبائل الأتراك)– نحن نشاهد الآن بعض المسلسلات التركية التي تتكلم عن عثمان أورخان ومسيرته حتى تكوين الدولة العثمانية وانتهت بقدرة هذه الدولة على أن تقوم باقتحام القسطنطينية التي هي معقل الدولة البيزنطية القديم وكانت عبقرية لم تكن متوقعة بكل المقاييس من ملك شاب يستطيع أن يقوم باجتياز المانع المائي والسلاسل الحديدية بحيث لا تستطيع السفن المرور لكي تلتف حول القسطنطينية، فقام بحمل هذه السفن عبر هذا المانع المائي –عملية إبرار بالسفن والسفن كانت على عجل من الأخشاب على مسافة عدة كيلو مترات– وكانت السفن ضخمة جدًا وكذلك المدافع الضخمة جدًا وكان يشرف بنفسه على صناعة هذه المدافع وكان هذا من مظاهر القوة الشديدة للدولة العثمانية الوليدة أنها كانت تملك مدفعية قوية جدًا، التعامل بالمدفعية والبنادق كان بدأ قبل هذا بمئة سنة أو أكثر، واستطاع في النهاية محمد الفاتح أن يدخل إلى القسطنطينية وأطلق عليها إسلامبول أو عاصمة الإسلام وبدأ يتمدد في المنطقة الأوروبية، وخليفته بعد ذلك أو صحح في أحد خلفاؤه الذين جاؤوا من بعده وهو أشهر سلطان للدولة العثمانية هو السلطان سليمان القانوني، والذي استطاع أن يصل إلى منتصف أوروبا، ظل يتقدم بقواته حتى أن وصل لمنتصف أوروبا والمسماة اليوم أوروبا الشرقية المتمثلة في (منطقة البوسنة ومنطقة اليونان ومنطقة النمسا) حتى استطاع محاصرة فيينا نفسها، واضطرت فيينا دفع الجزية وتعلن عدم معاداة السلطان سليمان القانوني بعد ذلك، وكان قبل ذلك منطقة الأندلس.

المفارقة التاريخية المؤلمة أن الحركة الصليبية في شمال إسبانيا أو شمال الأندلس استطاعت أن تتقدم حتى أسقطت الوجود الإسلامي في منطقة الأندلس بأسرها وهجّرت كل من كان مسلمًا أو على خلاف ديانتهم المسيحية الغربية إلى المغرب ثم بدأت تهاجم هذه السواحل في شمال أفريقيا واحتلت منها

أجزاء وبدأت تحاول أن تلتف حول العالم الإسلامي لأن الدخول إلى المشرق الإسلامي عن طريق البحر المتوسط إلى منطقة الشام انتهى نهاية مفجعة بالنسبة لهم فأرادوا الالتفاف حول هذا، تواكب الحركتين مع بعض دخول محمد الفاتح إلى القسطنطينية وإعلان إسلامبول وإعلان هذه المدينة عاصمة الدولة العثمانية مع سقوط الأندلس كان بين الاثنين تحديدًا بينهما أربعين سنة، أدى هذا إلى أن السلطان العثماني وخلفاؤه بدأوا في الضغط على أوروبا أو يضغطوا في الفتوحات لأوروبا في محاولة لتحقيق حلمهم كما فتحوا القسطنطينية أن يفتحوا روما، وفي نفس الوقت تخفيف الضغط على مناطق غرب العالم الإسلامي (المغرب والجزائر والسواحل) التي كانت تهاجم بشكل دائم من قِبَل القوات الصليبية القادمة من إسبانيا.

هنا نبدأ الحديث عن حركة جديدة في التاريخ تسمى حركة الكشوف الجغرافية، حركة الكشوف الجغرافية بدأت في القرن السادس عشر على رأسها عدد من المستكشفين منهم كريستوفر كولمبس –نعرفه تمام المعرفة– منهم ماجلان إلى آخرهم فرانشيسكو دياز، كل هذه الأسماء لا داعي للإكثار من ذكرها لكن حقيقةً لا بد أنه في هذا الإطار ونحن نتكلم أن دولة عثمانية تكونت وتضغط في شرق أوروبا، حركة صليبية انتهت بطرد المسلمين من الأندلس هنا تظهر حركة نقول عنها أنها نقطة تحول في التاريخ، سنتكلم اليوم عن أكثر نقطة تحول في التاريخ.

الحركة الأولى التي حولت مراكز القوى في التاريخ العام وليس التاريخ الإسلامي بل التاريخ ككل هي ما يسمى بحركة الكشوف الجغرافية، هذه الحركة تختلط فيها الدوافع الدينية مع الدوافع الاقتصادية، نتاج الحروب التي قام بها الغرب الصليبي على منطقة الأندلس –الحروف تتكلف أموالًا طائلة– خاصةً أن النظام الإقطاعي الأوروبي حقيقةً بدأ يُستهلك فكانت أي مجاعة أو أوبئة أو شيء من هذا القبيل يؤدي إلى نقص في القوة –قوة الإنتاج– كالأراضي الزراعية فبالتالي إلى نقص في الأموال فكان هذا يؤثر على الحالة الاقتصادية والتي في أصلها تمول الحالة العسكرية، فبالتالي لم يرسلوا حملات صليبية بالشكل القديم الذي تكلمنا عنه في الحروب الصليبية ولكن بدأوا في إرسال بعثات استكشافية لاستكشاف طريق جديد، ما الذي يريدون فعله؟ هناك حالة اقتصادية وحالة دينية، الحالة الدينية أنهم يريدون مهاجمة المسلمين من الخلف، الالتفات حول منطقة القوة والمتمثلة في منطقة مصر والشام القلب القوي المراد استهدافه والذي عجزوا فيه وتكررت المحاولات على مدار مئتي سنة انتهت بالخذلان والهزيمة وانسحابهم، فعلى من يلتفون؟ حيرهم الأمر فبدأوا بمحاولة النزول إلى السواحل الأفريقية وتتبعها في محاولة للوصول إلى قلب العالم الإسلامي من الجانب الآخر، لكن الالتفاف حول القلب الذي يستطيع المقاومة، أما الحالة الاقتصادية كانوا يحتاجون إلى تجارة الهند، ما يأتيهم من الهند كان يأتيهم عبر هذه المنطقة منطقة

الدولة الإسلامية كان لها طريق بري –والذي تحاول الصين إحياؤه والمسمى بطريق الحرير– في الشمال الأوروبي والممتد إلى شمال آسيا وهو منطقة إسلامية وممتد إلى الصين والهند، الطريق الثاني هو طريق بحري لا بد أن يأتي فتعبر التجارة برًا في منطقة مصر أو الشام للخروج إلى البحر المتوسط والدخول إلى أوروبا، وبالتالي العبور عبر المناطق الإسلامية حتمي وهذا يمثل مشكلة لهم لأنه يتم تحصيل الضرائب منهم ويضطرون للتعامل مع المسلمين وإلا سوف يُقطع هذا الشريان التجاري، هذا من المصلحة التجارية بالإضافة إلى العامل الديني أنهم يريدون الالتفاف حول هذه المنطقة لأنه هناك حالة من العداء الديني والعسكري على مدار سنوات طويلة، فتبدأ حالة الكشوف الجغرافية، حالة الكشوف الجغرافية أخذت اتجاهين: اتجاه أن يتجه إلى الغرب في محاولة للوصول إلى الهند غرب بمعنى يعبر المحيط الأطلنطي –المسمى ببحر الظلمات من يدخله لا يعود– وأشهر من خاضه ثم استطاع أن يصل إلى بر كان كريستوفر كولمبس الذين يقولون أنه اعتمد على خرائط لا داعي للدخول في هذا الجدل والذي يقول أنه اعتمد على خرائط موجودة في الكتب الإسلامية حول هذه المنطقة بدليل أن هناك خريطة عثمانية حول ممالك أو ممتلكات الدولة العثمانية حول العالم فكانت السواحل الأمريكية مرسومة بدقة شديدة على أنها جزء من ممالك الدولة العثمانية، كان هذا في القرن الخامس عشر أي قبل الكشوف الجغرافية بعشرات السنين.

في القرن السادس عشر بدأت الكشف الجغرافية في اتجاهين كما قلنا: اتجاه الغرب مباشرةً واتجاه الجنوب، الجنوب بدأ يلتف حول السواحل الأفريقية يسير بجوار الساحل في محاولة للوصول إلى منطقة الهند عبر تخطي هذه الأرض –الأرض الأفريقية– فبدأوا أن يصلوا إلى مناطق مثل السنغال وساحل العاج إلى أن وصلوا إلى جنوب أفريقيا منطقة تسمى رأس العواصف وعبروا منها إلى الهند، وهناك استطاع أن يستعينوا ببحارة مسلمين على رأسهم ابن ماجد المعروف في الخليج العربي بشكل كبير، وكان بحارًا مشهورًا في وقته واستطاعوا بالتعاون معه أن يصلوا إلى الهند عبر هذا الطريق أن ينزلوا جنوبًا عبر السواحل الأفريقية إلى أن يعبر جنوب أفريقيا ويتجه إلى منطقة الهند.

الطريق الثاني وصل إلى منطقة سواحل كريستوفر كولمبس ونزل آخر للأسفل وهو ماجلان نزل حتى وصل إلى أقصى جنوب أمريكا الجنوبية، هذه المنطقة ما بين كريستوفر وماجلان كان هناك شخص يدعى أمريجو فرنشيسكو، والذي ظهر برعاية أمريكية وهو في الأصل إيطالي وسميت هذه القارة بهذا الاسم لأنه مكتشفها، لأن كل من ذهب إليها سواء كريستوفر كولمبس أو ماجلان كانوا يعتقدون أنهم وصلوا إلى سواحل قارة آسيا من الناحية الأخرى ولكن الهند ما زالت بالداخل بعض الشيء، بمعنى أن يكونوا في سواحل قريبة أو سواحل أرض بعدها سيجدوا الهند، ولم يكونوا يعلموا أنها أرض جديدة ومن

اكتشف هذا هو أمريجو ولذلك سميت أمريكا لأنه اكتشف أن هذه المساحة الشاسعة من أمريكا الجنوبية إلى أقصى أمريكا الشمالية هي منطقة جديدة وقارة جديدة لم يكن أحد يعرف عنها شيء.

هذه الكشوف الجغرافية التي استطاعوا من خلالها أن يصلوا إلى الفلبين ومنها إلى الهند، كان من في الشمال بدأوا في اكتشاف أن هذه الأراضي غنية جدًا فبدأ الفرنسيين والبريطانيين أن يسلكوا نفس الطريق في نفس التوقيت وبدأوا في اكتشاف ثروات في هذه الأراضي لم يكن أحد يتخيلها بمعنى أنهم مثلًا يعطوهم منتجات من أي نوع وكان يتم دفع المقابل جوالًا من الفضة أو من الذهب فوجدوا أن الذهب والفضة هناك كثيرة، ولذلك كان الباحثين عن الكنوز حتى اليوم يبحثوا عن السفن الغارقة مثل السفن الإسبانية والسفن البرتغالية التي غرقت في سواحل الأمريكتين لأنها كانت كلها عبارة عن سفن محملة بالذهب والفضة، هذا الذهب والفضة صنع نوعًا من الرخاء الغير عادي في أوروبا وسارعت قوات فرنسية وبريطانية التي كانت تتنافس في هذا الوقت مع إسبانيا والبرتغال للوصول إلى هذه الأراضي الجديدة واحتلال أجزاء منها فذهبت فرنسا لاحتلال جزء من أمريكا وجزء من كندا، ولذلك ستجد جزء من كندا ما زال حتى اليوم ناطق بالفرنسية لأنه هذا الجزء تحت الاحتلال الفرنسي وهم من أسس مدينة كيبك وتورنتو.

بعد ذلك سنجد أن هناك احتلال بريطاني جاء واحتل جزء كبير بالإضافة للاحتلال الإسباني الذي فرض لغته وثقافته في أمريكا الجنوبية والاحتلال البرتغالي أيضًا فعل ذلك، كل هذا صنع نقلة اقتصادية للغرب الأوروبي إلى الأفضل لكنه صنع نقلة إلى الأسوأ في منطقة العالم الإسلامي لأن هذه المناطق كانت تُحصّل ضرائب فبالتالي هذه الضرائب قد انعدمت في ظل هذا الخط الجديد من التجارة، طبعًا نحن نتكلم عن هذا صنع نقلة في التاريخ أن في مراكز قوة بدأت تظهر ومراكز قوة بدأت تأفل، مراكز القوة التي بدأت تظهر مثل البرتغال وإسبانيا من الجانب الاقتصادي تم تمويله وبالتالي تمويل العمليات العسكرية، فتبدأ الحالة العسكرية تنشط في اتجاه ضرب العالم الإسلامي فيتم ضرب قوافل الحجاج التي تخرج من البحر في الهند في اتجاهها إلى مكة ويصل الأسطول البرتغالي إلى سواحل البحر الأحمر وسواحل الخليج العربي وتتكون قلاع على الجزيرة العربية من البرتغاليين احتلالًا وكان هناك من الملوك من أقسم أن يذهب بنفسه لكي ينبش قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يأتي به إلى أوروبا لكي يُصلب، هذا كلام مؤرخ وليس عاطفي هذا الكلام موجود ويحاولوا تجنبه لكن هذا الكلام كان أحد المحركات التي دفعت العثمانيين أن يدخلوا بأسطولهم إلى البحر الأحمر لمنع البرتغاليين من هذا التمدد وحماية المسلمين في المنطق الجنوبية فبالتالي بدأ العثمانيين يتواصلوا مع المماليك الذين كانوا في حالة من حالات الغرور أو حالة من حالات التواصل مع الصفويين الشيعة في إيران، المهم في

النهاية وصلوا إلى حالة الصدام فدخل العثمانيين إلى مصر ومن مصر إلى البحر الأحمر إلى اليمن إلى الجزيرة العربية واستطاعوا إخراج الأسطول البرتغالي من سواحل البحر الأحمر، وإن كانت استمرت مسألة المعارك مع الأسطول البرتغالي واستعانوا فيها كما ذكرنا بالدولة البوسعيدية في سلطنة عُمان – مكانها اليوم سلطنة عُمان– وأسطولهم القوي لإخراج البرتغاليين من الخليج العربي، هذه الحرب وهذه القدرات العسكرية استُنزفت من البرتغاليين.

لدينا نقطة تحول أخرى ستصنع تحول في التاريخ، التاريخ العام، لسنا نتكلم عن التاريخ الإسلامي بشكل خاص ولكن ستصنع تحولًا لصالح الغرب الأوروبي، نقطة التحول الثانية هي التي تعرف باسم الثورة الصناعية، الثورة الصناعية هي اكتشاف قوة البخار والذي يمكن أن يستخدم في إدارة الماكينات وبداية اختراع ماكينات تنتج عِوضًا عن الصناعة اليدوية، وكان هذا الكلام في حدود بداية عام ١٧٦٠، معنى ذلك أننا نتكلم عن القرن الثامن عشر، كنا تكلمنا عن الكشوف الجغرافية أن هناك ثروة قد ظهرت هذه الثروة بدأت في صنع نوع من أنواع التحول في إدارة الأمور أصبح هناك أصحاب ثروات طائلة، أصحاب الثروات الطائلة هؤلاء ليسوا أنفسهم الحكام لأن الحكام كانوا يدينون بنوع من أنواع الولاء لمنظومة اجتماعية كان على رأسها إقطاعيين وبارونات ودوقيات وما شابه ذلك من التي تظهر في العصور الوسطى، بدأ تظهر طبقة جديدة هذه الطبقة تريد أن تحصل على مكانها في الحكم، فبدأت في هز النظام الحاكم في داخل أوروبا بحيث أن يستطيعوا إظهار منظومة جديدة تسمح لهم بالسيطرة هذه السيطرة نتاج أن لديهم المال، والجانب الآخر حالته الاقتصادية والزراعية لم تكن قوية داخل أوروبا، فبدأت أوروبا يتحول فيها النظام الاجتماعي شيئًا فشيئًا –أوروبا الغربية– كان المشرق الإسلامي في حالة من الثبات وعندما حدثت الثورة الصناعية وبدأت حالة الإنتاج التي نسميها حالة الإنتاج الغزير – على سبيل المثال: هناك ورشة ملابس مثلًا تنتج يوميًا عشر قطع من الملابس وفجأة ظهرت الثورة الصناعية أو القوة الاقتصادية قامت بتمويل عمليات التصنيع خصوصًا إن عمليات التصنيع تطورت من ١٧٦٠– ١٨٣٠ إلى عملية إنتاج في ثلاث عناصر: إنتاج مواد أولية والقدرة على إذابة الحديد وتشكيله بشكل فعال جدًا –وهذا يتطلب إنفاق مزيد من المال وتم هذا من خلال الكشوف الجغرافية–، الحالة الثانية وهي زيادة الإنتاج من عشر قطع مثلًا فالماكينة الجديدة ستنتج خمسمائة قطعة، تبدأ بعد ذلك في عملية البيع للأشخاص، هذه الماكينة حلت محل عشرون ورشة أو مئتين مثلًا، كانت هذه الورش يعمل فيها الكثير من العمال وبالتالي بدأوا في ترك تلك الورش وينطلقوا إلى المصانع، ما الفارق بين الورشة والمصنع؟ الفارق هو أن الورشة تُنتج منتج كامل بمعنى أنه مثلًا إذا أنتجت حذاء أو قميص تقوم بتصنيعه كاملًا من بداية الغزل ومرورًا بالقماش وصولًا للنتيجة النهائية قميص أو ثوب، في المصنع أنت تنتج قطعة فقط

مثلًا الحذاء تقوم بصنع النعال ومن يليك يصنع الواجهة ويليه من يصنع الرباط وهكذا، وبهذا أصبحت لا تستطيع الاستقلال بصناعتك فأنت جزء من ماكينة هذا أولًا، فظهرت ما يسمى بطائفة العمال، العامل الذي لا يستطيع إنتاج منتج كامل، أما الحرفي فيستطيع إنتاج منتج كامل، العامل ينتج جزء من منتج لا يستطيع الاستقلال بنفسه لأنه غير متقن.

هذا الإنتاج يحتاج إلى أسواق ولكن إلى جانب الأسواق يحتاج المواد الأولية، هذه المواد الأولية تحتاج السيطرة عليها لشرائها بثمن رخيص لكي يستطيع الربح، فبدأ يحدث نوع من أنواع البحث عن الأسواق والبحث عن مناطق إنتاج المواد الأولية، هذه المناطق في أي منطقة في العالم فبدأ يحدث نوع من أنواع الاستعمار بغرض الاستغلال، كان هذا متواكبًا مع الثورة الصناعية والكشوف الجغرافية بدأ الاستعمار بغرض الاستغلال في منطقتين أو في منطقة أفريقيا بشكل خاص وبعض مناطق آسيا لاستخراج المواد الأولية الموجودة هناك لأنهم وجدوا الذهب والألماس بشكل غزير في المناجم بالإضافة إلى العالم الجديد، وقبل أن ننسى من ضمن الكشوف الجغرافية المهمة التي دخلها كانت بريطانيا والتي اكتشفت استراليا ولذلك هي تابعة لكومنولث –استراليا كلها تابعة لدول الكومنولث التي تحت التاج البريطاني وتدين بالولاء لها–.

تكلمنا عن الكشوف الجغرافية ثم الثورة الصناعية، هناك شيء مهم جدًا حدث متواكبًا مع الكشوف الجغرافية والثورة الصناعية –هي شيء ثقافي وهي اللغة– اللغة: لغة العلم والثقافة في أوروبا كانت اللغة اللاتينية وكانت تحت سيطرة الكنيسة، مع بدايات هذا التحول في نمط الثروة وفي النظام الاجتماعي بدأ التفكير في الكنيسة يجب أن تبتعد عن الصورة لأن الكنيسة لم تعد حالة دينية بل أصبحت حالة اقتصادية اجتماعية وبدأت في إعطاء الحقوق لأصحاب الإقطاعيات والدوقيات والملكيات باعتبار أنه حق إلهي، هذا الحق الإلهي في ظل انتقال الثروة إلى طوائف جديدة أصبح يمثل انفصالًا – كلٌ يأخذ حقه ويبتعد– فبدأت تحدث حركة تسمى الحركة الإنسانية، مع الحركة الإنسانية هذه وهي النهضة الجديدة –نهضة في القرن الرابع عشر– كانت مع الكشوف الجغرافية والثورة الصناعية بدأ يحدث تحول مهم جدًا وهو التحول في اللغة، ما معنى التحول في اللغة؟ يعني اللغة اللاتينية التي تحتكرها الكنيسة وهي لغة الدين والثقافة ظهرت حركة تصحيحية داخل الكنيسة يقال لها الحركة اللوثرية والتي خرج منها مذهب البروتستانت، هذا المذهب بدأ في القول بأنه لا تمسك باللغة اللاتينية والتي يحتكرها القساوسة بل سوف تتم ترجمة الإنجيل إلى كل لغة فبدأوا يتحولون إلى اللغات التي يستطيع الأشخاص العاديين في قراءتها التي سميت باللغات العامية الإنجليزية والفرنسية والسلافية والدانماركية ... كل هذه اللغات، هذه اللغات بدأت تتحول إلى لغة تمثل إقليم فبدأت الفرنسية تظهر في منطقة، والألمانية في

منطقة أخرى، وكذلك الإنجليزية، وكل منطقة يدخلونها يفرضوا لغاتهم عليهم ويجعلونها لغة الثقافة، ما المشكلة في كل هذا الكلام؟ المشكلة التي حدثت أنهم وجدوا أن اللغة اللاتينية لا تستجيب للتحولات التكنولوجية الجديدة، فالثورة الصناعية الجديدة تحتاج إلى لغة، ونحن نريد أن يتعلم الأشخاص من أجل أن تستطيع العقول التفكير والتطوير لهذه الآلات، فبدأت تخرج قواميس تمثل اللغة الإنجليزية أو المصطلحات الجديدة لهذه التكنولوجيا في لغات قومية، فأصبح هناك لغة للهندسة والتكنولوجيا بمفردات إنجليزية ونفس الشيء بمفردات فرنسية ونفس الشيء بمفردات ألمانية وتظهر قواميس تمثل كل قومية لنفسها في التكنولوجيا الجديدة، فبدأ الناس نتاج ظهور حالة تاريخية جديدة تأخرت جدًا حتى دخلت إلى العالم الإسلامي ولكنها بدأت في أوروبا وهي حالة الطباعة، بدأ الناس في طبع هذه القواميس، وبدأت التصاميم للماكينات وتعليم الناس هذه الهندسة ودخولها إلى بعض المدارس ويُطبع لها كتب.

هذه الحركات وهذه العلامات التاريخية غيرت في تاريخ العالم، بمعنى ظهور الطباعة وظهور اللغات القومية التي تستطيع بها تعليم أبناءك الهندسة والرياضيات وإلى آخره من العلوم بلغتهم التي يستطيعوا التحدث بها يوميًا والتي تماثل لدينا في الحضارة الإسلامية حركة الترجمة، أثناء ما كنا نتحدث عنه وسوف نتحدث عنه في المحاضرات القادمة في الحالة العلمية حالة الترجمة من الحضارات الأخرى إلى الحضارة العربية، بأن تحول لغات كتب العلوم المختلفة في مختلف المجالات إلى اللغة العربية، فبالتالي يستطيع كل إنسان أن يقرأها ومن كان لديه استعداد أن يستوعبها ويضيف إليها يجدها ميسرة له باللغة العربية، مثلًا من تخصص في الفلك أو الهندسة أو النبات أو التشريح الطبي لا يستطيع قراءة الكتاب لمجرد أنه مكتوب باللغة اللاتينية أو الإغريقية القديمة أو السنسكريتية الهندية، هذا الأمر انتهى الحضارة العربية عندما تمت الترجمة فأصبحت متاحة للعلماء العرب وأصبح الإضافة إليها يتم للحضارة العربية لأن التأليف والتطوير يتم باللغة العربية.

نفس الشيء حدث في القرن التاسع عشر أن تم التمكين لهذه العلوم المختلفة بلغات قومية، هذه النقلة جعلت أن كل واحدة من هؤلاء تبدأ في الإبداع، وأكثر من استطاع أن يستوعب أكبر قدر من المصطلحات، ولذلك عندما تتكلم عن جذور اللغة الإنجليزية تجد أنها في منتصف القرن التاسع عشر ظهر أكبر قاموس وكان معظمه من اللغات الفرنسية ومن اللغة العربية ومن اللغات الأخرى لكي يستوعب داخل اللغة الإنجليزية بمصطلحات العلم الجديدة، وهذا ما شكل نقلة وبالتالي عندما تم إجراء إحصاء لأكثر لغة منتشرة في العالم تجد أنها هي اللغة الإنجليزية والتي يتكلم بها مليار وربع شخص، اللغة الثانية التي تليها هي الإسبانية تقريبًا خمسمائة مليون شخص نتاج لعملية الاحتلال الواسعة التي حولت الأقوام إلى لغاتها واللغات القديمة اندثرت فانتشرت اللغة الإسبانية في أماكن كثيرة مثل أفريقيا

وأمريكا اللاتينية وأمريكا الجنوبية، واللغة العربية يتكلم بها كلغة أصلية لأبنائها هي أقل منها في حدود الأربعمائة مليون، وقد يكون هذا الأمر تعداد مختلف أو شيء من هذا القبيل وليست هذه قضيتنا، لكن نتكلم عن أن هذا التحول أدى إلى قوة اقتصادية تولدت نتيجة للكشوف الجغرافية، ثورة صناعية أولى، اللغة أصبحت في متناول أيدي هؤلاء، بدأ الإنتاج يزيد فبالتالي أصبح هناك احتياج للتوسع في ممتلكات كل دولة، هذا الأمر أدى إلى أن العالم الإسلامي كان في معزل عن كل هذه التحولات بل يصيبه أضرارها وليس فوائدها.

من قبيل الفكاهة أذكر لكم مشكلة حدثت في الدولة العثمانية، الدولة العثمانية كانت عملتها من الفضة فقام الإسبان بإحضار مراكب من الفضة، المعرفة الاقتصادية كانت محدودة في كل العالم، ولكن الإسبان استطاعوا أن يطبعوا العملة العثمانية وأغرقوا الدولة العثمانية بعملتهم، فأصبحت العملة قليلة القيمة نتاج كثرة العملة لكثرة الفضة لديهم، ومن كثرتها بدأوا الإغداق على عملائهم ومن يعملون لحسابهم إلى آخره، فأغرقوا الدولة العثمانية بالعملة العثمانية فأصبح المعروض لا يكافئ ما هو متاح من البضائع فحدث ما يعرف باسم التضخم وهذا ما لم تفهمه الدولة العثمانية في هذا التوقيت، مما أدى إلى انهيار اقتصادي داخل الدولة العثمانية ومن تبعاته أنها لم تستطيع دفع رواتب الجند، فكان الجندي قبل أن يحدث ذلك يحصل مثلًا مئة جنيه عملة عثمانية يستطيع شراء كل شيء لأهله، وبعد هذا التضخم لم تعد تكفي لأي شيء وعليه فيحتاج الجندي إلى أكثر من ذلك والدولة لا تستطيع الدفع، لكن الأفراد والعملاء الذين يعملون لحساب قوى أخرى لديهم المال الكافي فبدأ يحدث خلل اجتماعي أن من كان لديه المال ويستطيع الإنفاق الدولة ليست قادرة على تمويله، في حين أن من لم يكن لديه مال أصبح لديه مال وأصبح أعلى منه فأصبح يقرضه وعليه أصبح الجندي يعمل لحسابه، فهذا خلل اجتماعي بدأ يتسرب إلى داخل الدولة العثمانية تدريجيًا وداخل العالم الإسلامي بأكمله ومع الاحتلال وقلنا أن الثورة الثانية الصناعية حدثت بما يسمى الأنتمة التي هي أن تقوم الماكينة بأكثر من مرحلة في عملية التصنيع، فمثلًا تقوم الماكينة بخياطة القميص لكن هنا ستقوم بقص القميص وخياطته في عمليتين متتاليتين لأن أصبحت هذه العمليات لها أنتمة ونظام فبالتالي المخترع البريطاني بدأ أن ينتج ماكينات تقوم بعدة مهام في داخل المصنع والتشغيل فبدلًا من أن يكون هناك من يقوم بقص القميص ثم ينتقل إلى الخياطة أصبحت لا أحتاج لمن يقوم بالقص، وكذلك لم أعد في حاجة لمن يقوم بالغزل والنسج أيضًا، فأصبحت هناك الثورة الصناعية الثانية والبعض كان يقول أن هناك الثورة الصناعية الثالثة والتي هي أدخلت هذه الماكينات البخارية ليس في عملية التصنيع وهذا ما صنع فارق قوة –قوة عسكرية– أدخل هذه الماكينات داخل مستوعبات أصبحت تدخل في إطار المحركات بمعنى أنها تحولت إلى آلة تستطيع أن تحرك سفينة

في البحر، تحرك قاطرة لجر عربات القطار، هذا التحول الذي حدث في القرن التاسع عشر في دخول الماكينة البخارية إلى داخل هذه المستوعبات والمحركات تبدأ في تحريك قاطرات ومراكب قوية عليها حشود عسكرية أو مدافع إلى آخره، هذا الأمر أدى إلى فارق قوة وكانت البداية مع القوة العسكرية البريطانية التي استطاعت أن تطور من قواها البحرية فأصبح أقوى أسطول في العالم أدى هذا إلى أنها تحاول فرض سطوتها على مساحات واسعة من العالم.

طبعًا المسألة لم تتوقف عند هذا الحد، فالدولة التي حاولت فرض سطوتها تبدأ الدخول في إطار صراعات إقليمية ودولية فتبدأ في الدخول في صراع مع القوى التي تنافسها من القوى الاستعمارية مثل الإسبان والبرتغاليين، فتقضي على القوة الإسبانية والبرتغالية وتحل محلها، فتدخل إلى مساحات العالم الجديد وتحتل مساحات واسعة منه وكذلك القوى الفرنسية، في هذه الفترة قامت الثورة الفرنسية واستطاع نابليون أن يهزم كثير من القوى الأوروبية ويفرض سطوته وبدأت القوة الفرنسية تظهر على السطح برغم ادعاءاتها الحرية والرخاء والمساواة –كانت تتكلم عن شعوبها وليس عن العالم–.

هناك نقطة ذكرنا نصفها ولم نذكر نصفها الآخر كنت أتكلم في سياق أن عملية استغلال المناطق الجديدة خاصةً في أفريقيا كان جزء منها هو المواد الأولية التي كانت موجودة في هذه المناطق، ولكن الجزء الثاني هو تجارة البشر –تصدير العبيد– لك أن تتخيل أن جزء من ثروة العالم الغربي هي تجارة العبيد التي دخلت في إطار عمليات تهجير ضخمة جدًا من أفريقيا إلى العالم الجديد للصناعة وبدأت بالتهجير إلى أوروبا أساسًا لكي يعملوا في ظل الثورة الصناعية –أو ما قبل الثورة الصناعية– لأنهم كانوا يحتاجون لمن يعمل خاصةً أنهم كانوا في مرحلة استخراج الفحم واستخراج الحديد من المناجم وكانت هذه عملية شاقة جدًا وعملية منهكة لأيًّا من كان يقوم بها وبالتالي فهم يحتاجون لأيدي عاملة تحتمل هذا القدر من السوء في بيئة العمل فكانوا يأتوا بالعبيد السود ليقوموا بها، وأصبحوا عملة قوية داخل الأسواق الأوروبية.

من الأشياء اللطيفة التي اكتشفتها مؤخرًا والأشياء التي كنت أتابعها هي حركة الرِق في التاريخ فكانت هناك حركة تمت في أمريكا وهي إعادة الرقيق إلى أفريقيا فظننت بهم خيرًا، أنهم بدأوا في عمليات تهجير عكسي، كان مثار التساؤل لدي لماذا يحدث هذا لديهم؟ كان أكثر من يتمسك بالعبودية، وكان هذا أثناء الحرب الأمريكية حتى كان في حرب بين الشمال والجنوب الحرب الأهلية الأمريكية، كانت واحدة من أساسياتها هو تحرير العبيد، لكن هناك حركة في المنطقة التي تصر على وجود العبيد وهي منطقة جنوب أمريكا لأن الشمال هو من كان يريد تحرير العبيد، فتكونت في المنطقة الجنوبية جمعيات

لإعادة العبيد إلى أوطانهم أو إلى أفريقيا كهجرة عكسية، فظننت أن هناك جانب إنساني كجمعيات حقوق الإنسان الموجودة اليوم، ولكن اكتشفت شيء غريب جدًا أن هذه الجمعيات لم يكن لديها حب للعبيد ولا يقومون بذلك رأفةً بالعبيد بل الأمر كله أن الجيل الثالث من سكان أفريقيا الذين تم تهجيرهم وُلد في أمريكا، هو الجيل الثاني وُلد لكن كان يعامل معاملة العبيد وليس لديه مشكلة، أما الجيل الثالث بدأ يتمرد لأنه يظن نفسه أمريكيًا ويتعامل على أنه وُلد في أمريكا فبالتالي بدأ أن يعتبر نفسه أمريكيًا فيقول أنا لا أعرف أفريقيا أنا رجل أمريكي –الجيل الثالث والرابع– فبدأت هذه الحركة تأتي بهؤلاء (الجيل الثالث والجيل الرابع) تعيدهم إلى أفريقيا مرة أخرى، من أجل أن تختفي هذه النزعة، فكانت تقوم أمريكا بتصدير هذه الفئات التي تنزع إلى نوع من أنواع ما نطلق عليه اليوم المواطنة –أنا مولودٌ هنا فأنا ابن هنا– أنا لا أعرف الدولة الأخرى أو القارة الأخرى، فكانت تعمل هذه الجمعيات على إعادة هذه الفئة التي تظن نفسها لأنها ولدت في أمريكا بعد ثلاث أجيال كانت تعيدهم مرة أخرى فكانت تبني لهم بيوتًا على نفقتها، فالرحمة لم تكن رحمة بل نوع من أنواع التخلص من الإزعاج، حتى أن انتهت الحرب الأمريكية وأصبح السود اليوم في النسيج الأمريكي ورغم ما نراه ما يحدث لهم حتى يومنا هذا.

في هذا الإطار أين نحن؟ لقد تحولنا إلى التاريخ الغربي الأوروبي ولكن هذه القوة التي تفجرت وهذه الثورات الصناعية المتتالية التي أتت بالتكنولوجيا الجديدة، هذه الإمكانيات المادية التي صبت في الغرب الأوروبي من قلبنا من قلب دولنا، سواء كان الماس والذهب وبعد ذلك اليورانيوم أو الحديد أو غير ذلك كل هذا صب في أوروبا نتاج الحالة الاستعمارية التي انتشرت.

هنا يظهر لدينا سؤال: هل التاريخ هو عبارة عن مؤامرة كبرى؟ نظرية المؤامرة في التاريخ كما كنا نتعلم على يد أساتذتنا كانوا يقولون لنا هذا كلام فارغ لكن من نبهني وهو أستاذي وصاحب الفضل عليّ المستشار/ طارق البشري الذي نبهني إلى أنه لا يوجد مؤامرة في التاريخ لكن هناك ما يسمى مؤتمرات استعمارية في التاريخ، يعني لا توجد مؤامرة كما كان سابقًا لم تحدث علينا اتفاقات بشكل واضح ومسائل كانت تتعلق بالسياق التاريخي، لكن في مؤتمرات استعمارية والتي من أبرزها مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وبعده مؤتمر آخر سنة ١٨٨٤ وتكرر هذا الأمر حتى ما سنتكلم عنه مؤتمر كارل الذي سنتكلم عنه.

ما هي المؤتمرات الاستعمارية؟

نحن تكلمنا أن العالم الإسلامي ظل على حالته في حين إن العالم الغربي يتطور، فمن يتطور يصبح قويًا كان منهم روسيا الدولة الروسية بدأت تقوى في منطقة آسيا تريد أن تتمدد، تتمدد على حساب من؟ تتمدد على حساب الدولة العثمانية فتحدث صراعات مع الدولة العثمانية فتدخل الدولة العثمانية في

صراع مع النمسا ومع الغرب الأوروبي في وسط أوربا، ثم يتوصلوا إلى معاهدة تسمى دي ستيفانو ثم يعقد مؤتمر برلين، مؤتمر برلين يتم الاتفاق فيه على تقسيم ممتلكات هذا الرجل المريض وهي الدولة العثمانية وسميت بذلك لأنها لا تتطور ولا تأخذ بالعلوم الحديثة وليس لديها القدرة على فعل هذا، لدينا قوى أوربية تريد تقاسم أملاك الرجل المريض لأنه سينتهي في القريب لكنهم يحافظوا عليه حتى ينتهوا إلى اتفاق، وفي عام ١٨٧٨ كان مؤتمر برلين اجتمعت فيه القوى الاستعمارية الكبرى واستطاعوا أن يتوصلوا إلى حالة من حالات الاتفاق، كان قبل هذا التاريخ هناك في قوى أوروبية تحمي حالة الدولة العثمانية لا تريد لها السقوط لأن سقوطها يؤدي إلى صراع بينهم وبالتالي حاولوا الحفاظ عليها، فتوصلوا إلى حالة من حالات الاتفاق على أن جزء من الدولة العثمانية أملاكها في المنطقة كذا وأملاك في المنطقة كذا المهم أنه نوع من أنواع الاستقرار على التقسيم، هذا التقسيم لم يكن مُرضيًا لكل الحاضرين لكن هناك اتفاق آخر في ١٨٨٤ في برلين أيضًا كان على تقسيم أفريقيا، كان مؤتمرًا استعماريًا لتقسيم أفريقيا هذا جزء لإيطاليا وهذا جزء لألمانيا وجزء لبريطانيا وجزء لفرنسا وهكذا، مؤتمر للتقسيم وتدخل فيه قوات، ومن الأشياء اللطيفة جدًا أنه في بدايات القرن العشرين دولة من دول شمال أوروبا والذي كان فيه تنازع لكي يكون دولة واحدة كانوا يسموه اتحاد الشمال الأوروبي ثم تم تفكيكه ثم اتحدوا وهكذا، كانت تحتل منطقة في جنوب القارة الأفريقية فدخلت في حرب داخلية فلجأت إلى بريطانيا لمحاولة الحفاظ على الجزء الذي اختصت به حتى تنتهي مشاكلها، فقامت بريطانيا بحمايتها والسيطرة عليها ثم عادت إليها الدولة بعد الانتهاء من المشاكل لاستعادة المنطقة واستعادتها.

نجد أفريقيا اليوم تتكلم ما بين الإسبانية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية في كل منطقة ستجد لغة مختلفة، وفي بعض المناطق يتكلمون السواحلية وهي لغة أفريقية موجودة قديمة واللغة الفيلالية وهكذا، ومثل الأمازيغية المناطق الخاصة بالأمازيغ في الغرب الأفريقي كالجزائر والمغرب، ممتدًا إلى الصحراء المصرية هناك واحتين في الصحراء المصرية يتكلمون الأمازيغية، والأمازيغية غير مكتوبة بل لغة شفوية.

نحن نتكلم عن هذا التطور الذي حدث في الدول الأوروبية أثّر على العالم الإسلامي فتحول العالم الإسلامي إلى حالة من حالات المفعول به تسقط الدولة العثمانية في يد هؤلاء، يتوصلوا إلى اتفاق في بدايات القرن العشرين إلى حالة من حالات تسمى المؤتمر الاستعماري الكبير استمر ثلاث سنوات، وخرجوا بوثيقة تسمى وثيقة كارل بانيرمان هذه الوثيقة التي أظهرتها بريطانيا فترة ثم أخفتها مرة أخرى، كان هذا مؤتمر في بريطانيا وكان يشارك فيه عدد من القوى الاستعمارية العالمية تقريبًا جميعهم، ووصلوا إلى أن الحضارة الأوروبية تنزع إلى مرحلتها الأخيرة، ما معنى هذا؟ يعني هي وصلت إلى القمة وهم

أصبحوا من العقل ومن الاتزان بأنهم يعرفون أن كل شيء يصل إلى أقصاه لابد أن يهبط، وبدأت حالات من هذه تظهر بوادرها فكان هذا بداية لحالة خلال فترة ليست بالطويلة، فترة لن تتعدى إلى ثلاثين أو أربعين سنة تكون فيها الحضارة الأوروبية حضارة غاربة وليست صاعدة، وهذا في عز قوة الدولة البريطانية.

خلاصة هذا أن حضارة غرب أوروبا أو الحضارة الغربية الأوروبية أو كما يسمونها حضارة الرجل الأبيض وصلت إلى مرحلة التي سوف تتدنى بعدها، وأن لابد لنا من الآن أن نختار الوريث الذي يرث هذه الحضارة، بمعنى أنه يجب علينا أن نرى المنطقة التي ستصعد والمنطقة المؤهلة لهذا هي الشمال الأفريقي وشرق البحر المتوسط، أين المشكلة؟ ولكن هذه المنطقة تتسم بالعداء التاريخي على المستوى الديني والعسكري والاقتصادي لحضارة الرجل الأبيض، منطقة عدو ومن ثمّ: (١) لابد من الحفاظ على تخلف هذه المنطقة وتمزيقها إلى دول متباينة وزرع كيان يفصل جزئها الآسيوي عن الجانب الأفريقي، كان هذا الكلام في ١٩٠٧ وفي نفس العام قدمت إسرائيل أوراق اعتمادها أن تكون هي الكيان الذي يفصل الجزء الآسيوي عن الجزء الأفريقي، لأن هذه المنطقة تتسم بالاتصال الحضاري والاتصال اللغوي والاتصال الديني وتتمتع بقدر من الثروات يتيح لها هذا، فلا بد من الحفاظ على تخلفها وتمزقها، لذلك ستجد جزء فرنسي وجزء بريطاني وجزء إيطالي وهكذا.

أين الوريث؟ حضارة ستصل إلى منطقة الغروب ووصلت إليه بالفعل بعد الحرب العالمية الثانية، المنطقتين المرشحتين لكي ترث حضارة الرجل الأبيض هي العالم الجديد في أمريكا ومنطقة اليابان فلا بد من العمل على تطوير هذه المناطق ومدها بالتمويل اللازم لتطوير نفسها وتطوير مقدراتها لكي تكون في حالة من التوافق مع حضارة الرجل الأبيض وليست في حالة عداء لأنهم كانوا دخلوا في حرب في أمريكا وكانوا دخلوا في مرحلة صراع مع اليابان في منتصف القرن التاسع عشر أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، فأدى هذا إلى أنه يجب مد يد العون لأنهم هم من سيرثون هذه الحضارة، لكن الحضارة هذه الحضارة التي تولدت في اليابان كانت حضارة من الشراسة، عندما قرأت عن القنبلة النووية التي نزلت على هيروشيما ونجازاكي أشفقت عليهم، ولكن عندما قرأت تاريخ اليابان وماذا فعلت في الصين، لأن كانت التعليمات للقوات اليابانية التي اقتحمت السواحل الصينية ألا يُبقوا على شيء حي، ذبحوا مدن بأكملها واغتصبوا نساءها بأكملهم، ووصل بهم البشاعة إلى أنهم يقوموا بتجارب على الأشخاص كأن يقتلعوا عين شخص فيتركوه ينزف ويتابعوه حتى يروا متى سيموت، نفس الشيء يقطعون إصبع أو إصبعين وتجارب من مثل هذا الشكل، وهذا ما اعتذرت عنه اليابان منذ سنوات معدودة على هذه

التجارب الوحشية التي مارستها على الأسرى الصينيين في حروبها على الصين التي استمرت إلى ما قبل الحرب العالمية واشتركت في الحرب العالمية الثانية.

هذا الأمر أدى إلى تحول العالم من الحضارة الأوروبية إلى الحضارة الأمريكية اليابانية، اليابان سقطت فقط لأنها دخلت في صراع حتى اليابانيين أنفسهم يتساءلون ما الذي جعلنا ندخل في صراع مع أمريكا، لكن اصطدموا ببعض فكان الخضوع لكن كان في النهاية أن سمحوا لليابان أن تتطور ولم يجبروها على التخلف أو حافظوا على تخلفها مثلما صنعوا في دول أخرى مثل إندونيسيا والفلبين وغيرها، لكن سمحوا لليابان تقوم بعمليات تطوير لذاتها والتعليم يتطور فيها وأن تستمر لأن الاتفاقية تقول أن هذه المنطقة لن تتحول إلى حالة عداء وبالتالي تطويرها مهم لاستمرار الحضارة –حضارة الرجل الأبيض–.

كان هذا هو جذر العالم المعاصر وهذا هو كان مآل العالم الإسلامي تحت الضغوط الأوروبية التي لم يستوعب العالم الإسلامي المتغيرات التي تحدث في العالم لكي يستطيع أن يحتل مكانه الذي يليق به.

التاريخ العلمي أو تاريخ الحضارة الإسلامية –الجانب العلمي–:

فلكل حضارة أوجه، منها ما هو وجهٌ سياسي، ومنها ما هو وجهٌ علمي، ومنها ما هو وجهٌ في العمران وهو ما سنستهدفه، هناك طبعًا أوجهٌ أخرى مثل الاقتصاد والأمور المالية والأمور الاجتماعية والمجتمعية إلى آخر ذلك سوف ننوه إلى بعضها في أثناء الحديث، ولكن نريد أن نختم ما قد قلناه في المرة السابقة في الشأن السياسي لأن هناك صديق عاتبني أنني لم أختم بالختام اللائق، أننا لم نتكلم عن انهيار المنظومة الإسلامية السياسية وأعني بذلك سقوط الخلافة العثمانية، حقيقةً أن هناك أكثر من قضية في هذا الشأن لا بد أن ننوه لها، ولذلك سيكون جزء من المحاضرة خاص بالشأن السياسي ونختم القسم السياسي في النظر إلى التاريخ الإسلامي ونشرع في الحديث عن الجانب العلمي الذي نستهدفه في هذه المحاضرة إن شاء الله وفي بعض المحاضرات القادمة بإذن الله تعالى، قبل أن نبدأ في الجانب الثالث وهو الجانب العمراني.

في الفقرة السابقة ختمنا بالحديث عن واحدة من الاتفاقيات الاستعمارية الكبرى قلنا أن الحديث عما يسمى بالمؤامرة أو تفسير التاريخ بأنه مؤامرة كبرى وأن البعض يذهب إلى أنه حربٌ على الإسلام، كما علمنا أساتذتنا أننا لا نتكلم عن التاريخ بنظرية مسبقة لأن هذا من العسف الذي يذهب بالموضوعية التي من المفترض أننا ندخل بها لدراسة التاريخ، عندما نشرع في دراسة التاريخ يجب أن نكون

موضوعيين، فكيف نكون موضوعيين؟ نكون موضوعيين أن نعرض الحقائق كما هي لا أن ندخل إليها بنظرية مسبقة في ذهنك فتحاول التعسف تجاه الحقائق أو تحذف بعضها، لذلك استقر المنهج التاريخي من أجل أن نكون على فهمٍ ودراية، في المنهج التاريخي لا يوجد ما يسمى أنك غير منحاز بل بالفعل أنت منحاز رغمًا عنك بمعنى أنك ابن ثقافة معينة وبيئة معينة لك تربية منهجية في ذهنك تربت عبر سنوات، فعندما تأتي إلى دراسة شيء هذا التحيز الذهني والبيئي وتحيز الثقافة التي تربيت فيها غالبٌ عليك لذلك عندما نتكلم عن المستشرقين والاستشراق الذي نسمع عنه كثيرًا ودراسات الغربيين عن العالم الإسلامي والإسلام والعلوم الإسلامية نقول أنهم متحيزون وهذا لا يدحض في أنهم يُخرجون لنا كنوزًا نحن لا نعرفها، كيف أكون متحيزًا وفي نفس الوقت أنا أقبله؟ متحيز لأنه ابن ثقافة.. ابن ثقافة مسيحية، ابن ثقافة أوروبية لها مجموعة قيمية مجموعة من القيم تحكمه في النظر إلى الأمور وبالتالي هو لن يستطيع فكاك من هذا التحيز، نحن كمسلمين لا نستطيع الفكاك من إسلامنا من عقيدتنا ومن قيمنا وهذا مطلوب، أما النفر الذين يتحيزون ضدنا من أبناء جلدتنا ومن أبناء ديننا ويهيلون التراب على الحضارة الإسلامية وعلى كل ما يتعلق بتراثنا الإسلامي فهؤلاء نطلق عليهم أنهم غربيون من أبناء جلدتنا، بمعنى أنهم تبنوا الحضارة الغربية وقيمها وأساليب النقد عند هؤلاء وبالتالي ينقدوننا بلسانٍ عربي ولكن عقولهم وقيمهم ليست من قيمنا وليست من منهجنا وليست من بيئتنا، إنما هي بيئة أخرى.. بيئة تبنوها في ثقافتهم وفي عقولهم، فبالتالي التحيز لن ننجو منه لكن الموضوعية هنا نُقيّم المستشرقين بناءً على الموضوعية وهو ما ننحو إليه أن تقدم الحقائق كما هي وتخرج منها بالدروس المستفادة، ولكي تستطيع الاستفادة من المسألة التاريخية لابد أن تعرض المسألة كما هي ثم بعد ذلك تخرج بالدرس، لا تدخل لها بنتائج قبل أن تدرسها.

ولذلك قلنا أن مسألة المؤامرة غير صحيحة أو غير دقيقة في النظر إلى التاريخ لكن هذا لا يمنع كما علمنا أساتذتنا أن هناك مؤتمرات استعمارية، ما معنى مؤتمرات؟ يعني أنه هناك اتفاقيات تتم، في مطلع القرن العشرين عقدت بريطانيا مؤتمرًا استعماريًا كبيرًا لدراسة الحالة الاستعمارية وخرجت بوثيقة كارل بانيرمان الذي سبق الحديث عنها، في هذا الإطار قدمت الصهيونية أوراق اعتمادها لتكون جزء من هذه الخطة، توجد خطة بريطانية وضعت بعد الحرب العالمية الأولى والتي كانت من ١٩١٤– ١٩١٨، الخطة البريطانية كانت خطة لنفسها للقوة الاستعمارية البريطانية، لأنها ترى نفسها في حالة نزول.. لماذا؟ لأن قدرتها على مواجهة الثورات المستمرة في مناطق المستعمرات الخاصة بها –لأنها واجهت مجموعة من الثورات وسوف تواج مجموعة أخرى من الثورات في ما بعد الحرب العالمية الأولى وهو ما سنتحدث عنه لاحقًا.. أقول أنه في هذا الإطار صدرت مجموعة من الاتفاقيات الاستعمارية ففي بداية

القرن العشرين المُمهدة لمؤتمر كارل بانيرمان حدثت مجموعة من التسويات ما بين القوى الاستعمارية، ما معنى التسويات؟ يعني أن العالم الإسلامي أصبح مُحتَل من قِبل القوى الغربية وفي نزاعات على بعض المناطق فماذا يفعلون؟ بدأ التقايض أترك لك هذه المنطقة وتترك لي هذه المنطقة، وهذا ما حدث ما بين بريطانيا وفرنسا وبالتالي بريطانيا لم تعد تنازع فرنسا في بعض المناطق وانسحبت منها وفرنسا انسحبت من بعض المناطق التي تتنازع مع بريطانيا عليها مثل جنوب شرق آسيا وهذه المنطقة كان هناك تنازع فرنسي بريطاني فانسحبت بريطانيا ولكن فرنسا تنسحب من بعض المستعمرات الخاصة بها في أفريقيا، ثم حدث اتفاق كارل بانيرمان والمتفق فيه على تنشيط الحضارة الأمريكية وتنشيط اليابان وهذا بالفعل ما حدث، لكن جاءوا على ما تكلمنا عنه أنه حدث مؤتمرين خاصين برجل أوروبا المريض –الدولة العثمانية– وحتى ١٨٧٨ أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت القوى الأوروبية تحافظ على الدولة العثمانية حتى لا تتقدم روسيا أو قوى غير مرغوب فيها أوروبيًا تأخذ الدولة العثمانية وتصبح أقوى فكان الحفاظ على الدولة العثمانية لكن هذا الحفاظ لا يجعلها أو يساعدها على أن تصبح أقوى، لذلك وقفوا أمام المشروع المعروف بمشروع محمد علي في مصر والذي توسع، وحطموا هذا المشروع لأنه كان مرشحًا لأن يكون وريث للدولة العثمانية فتقوى على يديه وبالتالي كان لابد من كبح جماحه وتحجيمه تحت بند الحفاظ على الدولة العثمانية، والحفاظ على الدولة العثمانية بأن لا تقوى ولا تنهار.

في ١٨٨٥ انعقد مؤتمر آخر خاص بأفريقيا –تقسيم أفريقيا ما بين الدول الأوروبية وإنهاء النزاعات– لكن في نفس الوقت كانت ألمانيا شديدة الحرص أن الرجل المريض قد انتهى أوانه وأنه يجب السعي للانتهاء منه، على مدار هذه الفترة بدأت المؤامرات تنهي الوجود الإسلامي فكانت الثورات المستمرة فانتهت باتفاقية برلين مع الدولة العثمانية والتي تعطي الاستقلال لبعض المناطق في شرق أوروبا عن الدولة العثمانية وبالتالي بدأت الدولة العثمانية تنحسر في مساحتها بالإضافة إلى مجموعة من مستعمراتها أو الولايات الخاضعة لها أصبحت تحت الحماية الأوروبية مثل مصر مثلًا، مصر في نهاية القرن التاسع عشر منذ عام ١٨٨٢ وما بعد ذلك أصبحت تحت الحماية البريطانية ولكن حماية بموافقة عثمانية.

بعد ذلك بدأوا في تشجيع الحركات القومية التي تعمل على هدم الخلافة العثمانية، أود الإشارة إلى أن السلطان عبد الحميد تم عزله سنة ١٩٠٩ ويظن الكثيرين أن السلطان عبد الحميد هو آخر سلاطين الدولة العثمانية بل هو السلطان عبد المجيد آخر سلاطين الدولة العثمانية وكان وجوده بعد خمس سلاطين تالية للسلطان عبد الحميد أي أنه من ١٩٠٩ وحتى ١٩٢٣ كان هناك خمس سلاطين تولوا السلطة في الخلافة العثمانية أو في الدولة العثمانية.

هذا الأمر في ١٩٠٩ حدث ما يعرف باسم الانقلاب الدستوري أي الانقلاب على السلطان وعزله وتولى من يُعرفون باسم القوميين الأتراك السلطة والباب العالي وهم من دفع بتركيا للتحالف مع بعض القوى الأوروبية لدخول الحرب ضد قوى أوروبية أخرى وكان الغرض من هذه الحرب حقيقةً هو تدمير الإمبراطوريات التي تبقت في العالم، كان هناك إمبراطورية النمسا والمجر كانت إمبراطورية كبيرة، وإمبراطورية الهابسبرج في ألمانيا أو الإمبراطورية الألمانية المقدسة كما يطلقون عليها، والإمبراطورية العثمانية، هذه الإمبراطوريات الثلاثة كانوا متحالفين معًا وبهزيمتهم تم القضاء على ما يعرف باسم الإمبراطوريات في العالم والتاريخ، حتى الإمبراطورية نفسها التي عرّفت نفسها بالملكية وليس الإمبراطورية هي إمبراطورية بحكم التوسع لكن بعد الحرب العالمية بدأت تظهر منظمة جديدة في العالم تسمى عصبة الأمم والتي كانت تعتبر نوع من أنواع التنظيم للقوى الاستعمارية ولكي تبدأ تنظيم الحالة الاستعمارية لذلك خرج منها قرارات تسمى قرارات الانتداب، انتداب أحد القوى الغربية للإشراف على دولة لا تستطيع أن تحكم نفسها بموجب تقييمهم هم يرون أنها دولة لا تستطيع تحكم نفسها بشكل جيد فتقوم قوى غربية بالإشراف على هذه الدولة مثلما حدث الانتداب على مصر والانتداب على سوريا وعلى المغرب إلى آخره من هذه القرارات التي عُرفت بقرارات الانتداب وكان يسبقها قرارات الحماية.

الوضعية التي انتهت بالدولة العثمانية والتي كانت تحمل لفظ الخلافة الإسلامية أو المنظومة السياسية الإسلامية دخلت في معترك مع المبدأ القومي، المبدأ القومي بدأ في عمل ما يسمى بالحركة الطورانية أو تتريك الدول التابعة للدولة العثمانية مما أدى إلى نوع من أنواع المجازر في سوريا وفي منطقة الشام ما بين الدولة العثمانية وما بين القوى الوطنية هناك، وكان هناك ما يسمى بالحركة العربية التي نشأت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين واستطاع بعض العلماء البريطانيين توظيفها لكي تدخل ضد الدولة العثمانية، في هذا التوقيت بدأت تظهر بعض الكتابات واستخدام بعض الشخصيات القوية مثل من يُعرف باسم الأغاخان –هذا الأغاخان كان زعيم هندي كبير وله سطوة على طائفة كبيرة– واستطاعت بريطانيا استخدامه لأن الجنود الهنود كانوا على وشك أن يرفضوا قتال الدولة العثمانية والتي هي دولة الإسلام، فجاء لهم أغاخان وأظهروا مجموعة أخرى من المفكرين المسلمين في هذا التوقيت لينشروا مسألة أن الخلافة العثمانية خلافة غير شرعية وخلافة غير حقيقية واستخدموا القوى العربية وعلى رأسها من يعرف باسم الشريف حسين لكي يؤيد هذا الاتجاه ويدخل في حرب مع الدولة العثمانية وانتهى الأمر بهزيمتها بالفعل، والذي ترتب عليه خروج الجزيرة العربية من سلطانها وخروج منطقة فلسطين والمسجد الأقصى من سلطانها واحتلال جزء من الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، مما أدى إلى أن تظهر قوة مقاومة وتنتهي هذه المقاومة بهزيمة القوة التي احتلت هذه المناطق ولكن شرطوا

عليهم الدخول في مفاوضات، هذه المفاوضات كان لها شروط محددة، المفاوض الرئيسي كان مصطفى كمال أتاتورك المعروف عند الكثيرين، تفاوض مصطفى كمال أتاتورك تفاوض مع القوى الاستعمارية وكان لهم ثلاث شروط أساسية: **الشرط الأول:** إنهاء وجود ما يعرف باسم الخلافة الإسلامية، **الشرط الثاني:** تغيير الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية، **الشرط الثالث:** إلغاء الشريعة الإسلامية والتحاكم إلى أحد القوانين الأوروبية واختاروا القانون السويسري، فاستجاب أتاتورك لهذه الشروط وكأنه كان ينتظرها ولذلك يقولون عنه أنه كان جزء من المؤامرة –حوار طويل ليس هذا مكانه– ولكن بموجب هذه الاتفاقية تم إنهاء وجود الخلافة العثمانية.

أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٦–١٩١٧ برغم أن الجيوش العثمانية كانت تهزم الجيوش البريطانية والجيوش الفرنسية، كانت هناك اتفاقية تُعقد بين ثلاث دول: بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، هذه الاتفاقية عُقدت في ١٩١٦، لكن في ١٩١٧ قامت في روسيا ثورة تسمى بالثورة البلشفية والتي قضت على القيصر فقتلته –تم رشه مادة كيميائية أذابت أجساده وعائلته– وكشفت الوثائق بعدها في عام ١٩٢٤ هذه الاتفاقية والتي عرفت في التاريخ العربي باسم اتفاقية سايكس بيكو، هذه الاتفاقية كانت بين ثلاث دول لكن روسيا نتاج الثورة انسحبت والتي كان من المفترض أن تأخذ مساحة داخل أراضي الدولة العثمانية أو ما يعرف بتركيا اليوم لكي تسيطر على المنطقة المعروفة بالبسفور والدردنيل –الممر الذي يُخرج روسيا إلى البحر المتوسط– وفي نفس الوقت تحصل بريطانيا وفرنسا على ممتلكات الدولة العثمانية في منطقة الشام ومصر وشمال أفريقيا، كانت فرنسا فعليًا احتلت جزء كبير ولكن كانت في مقاومة في الجزائر وفي تونس وجزء من المغرب الأقصى ومصر كانت في بريطانيا وكانت فرنسا لها نفوذ كبير جدًا داخل سوريا ولبنان، وكان من المفترض أن تكون فلسطين تحت الانتداب الفرنسي، هذه الاتفاق نتاج خروج روسيا منها تم تعديلها باتفاقية لوزان في عام ١٩٢٠ ما بين بريطانيا وفرنسا بالتقسيم الممتلكات العثمانية فيما بينهم، والاتفاق على إنهاء وجود رجل أوروبا المريض –الخلافة العثمانية أو السلطنة العثمانية سمِّها كما تشاء– ولكنها المنظومة السياسية الإسلامية وإلغاء التحاكم إلى الشريعة الإسلامية، ما الذي يغضبكم من الشريعة الإسلامية؟ هم لا يريدونها لأنها تجعل الناس تستعيد عافيتها فيما بعد، وبالتالي كانوا نجحوا في ذلك في مصر في ١٨٨٣ بعد الدخول البريطاني إلى مصر وكان هذا شرطهم لاستقلال تركيا –تركيا الحديثة–، فتم إلغاء الخلافة العثمانية وطرد آخر الخلفاء العثمانيين ورفضوا أن يذهب لأي دولة إسلامية من العالم الإسلامي فتم إرساله إلى فرنسا ونفيه إلى باريس، حتى لا يلتف الناس حوله ويكون هناك حركة جديدة لإعادة الخلافة الإسلامية، فبالتالي انتهى الوجود السياسي الإسلامي في هذا التاريخ.

قامت محاولات كالتي نراها اليوم في المملكة العربية السعودية، وبعض دول الخليج، وبعض الإمارات الموجودة في جنوب شرق آسيا مثل سلطنة بروناي جميعهم يقول أنهم يتحاكمون إلى الشريعة الإسلامية ونحن دول إسلامية، لكن المنظومة الكبرى التي تعمل على حماية المسلمين وكان يدين لها بالولاء كل من يدين بالإسلام –الهنود حينما كانوا خارج إطار الدولة العثمانية كانوا يدينوا بالولاء للخلافة العثمانية– من أجل ذلك أحضروا لهم مفكرين يقولوا لهم أن الخلافة ظالمة وهم يحكمون بالقوة وذلك لإقناع الجنود الهنود أن يقاتلوا ضد الدولة العثمانية في الحرب العالمية.

بانتهاء الحرب العالمية الأولى وبعدها تحديدًا بخمس سنوات أو ست سنوات انتهى الوجود السياسي للخلافة العثمانية أو ما كان الجامع حتى ولو الشكلي الروحاني السياسي للمسلمين، انعقدت مؤتمرات فاشلة في مصر وفي القدس وفي مكة في محاولة لاستعادة هذا لكنها جميعًا فشلت، وكان وراءها القوة الاستعمارية التي استطاعت أن تقوّض أي محاولة لإعادة الخلافة الإسلامية.

كان الشريف حسين كان يُمني نفسه أنه سيتولى الخلافة بعد أن يسقط الخلافة العثمانية بحيث يصنع خلافة عربية ولكنه كان من السذاجة بما كان، والحقيقة لورانس الذي كان العميل البريطاني الذي استطاع تطويع الشريف حسين وأبناؤه أعطاهم حكم العراق لفترة ثم قامت ثورة وتم سحلهم تم ربط قدميه في سيارة وسحله في شوارع بغداد، حتى ظهرت الإمارة التي صارت بعد ذلك المملكة التي يطلق عليها اليوم المملكة الأردنية الهاشمية التي كانت تمهيدًا لوجود حاجز بين الدول العربية وما بين الكيان الصهيوني الذي أنشئ بعد ذلك، ومن المهم أن نعرف أن الكيان الصهيوني استغل هذه المقدرات واستغل في نفس الوقت معلوماته لأنهم كانوا قد كونوا لأنفسهم جهاز معلومات في منتهى القوة متغلغل في داخل الدول الأوروبية واستطاعوا أن يطوروا من قدراتهم ويصنعوا بؤر قوية داخل الأراضي الفلسطينية بما يعرف باسم المستعمرات أو مناطق الاستيطان، وقاموا بالهجرة كبيرة من بعض المناطق من روسيا ومن أوروبا والدول العربية إلى هذه المناطق، وفي نفس التوقيت كانت الدولة البريطانية وهو ما نقول عنه أن الخطة التي وضعتها بريطانيا لنفسها لتنسحب انسحابًا قويًا، ما معنى هذا؟ بريطانيا كانت تمتد ممتلكاتها من الصين وحتى أمريكا ولكن نتيجة الضربات التي تعرضت لها والهزائم التي حدثت لها في أمريكا، ودخولها في الحرب العالمية الأولى ثم الثانية والتي دمرت الاقتصاد البريطاني إلى حد أنها صارت لا تملك قوت يومها بمعنى الكلمة، ولولا المدد الذي جاءها من الولايات المتحدة الأمريكية ما كانت تستطيع أن تصمد أمام الضربات النازية.

هذا الأمر جعل بريطانيا تنفذ خطة سريعة بمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية للانسحاب من العالم بانسحاب قوي، ما هو الانسحاب؟ وما شكل الخطة التي وضعتها؟ هذا ليس محل استنتاج شخصي بل التاريخ البريطاني يتكلم عن ذلك ونستطيع أن نعود للكتابات البريطانية التي تتحدث عن الانسحاب البريطاني من العالم، بدأوا في عمل عملية إحلال، وبدأت أمريكا تخرج من منطقة الظل إلى منطقة الفعل، حتى أن هناك كتابات بهذا العنوان أمريكا تخرج من الظل أو أمريكا تخرج لتكون تحت الشمس بمعنى أن تكون الفارس الذي يجوب العالم، هذا الأمر أدى إلى أن بريطانيا تبدأ في الانسحاب من المنطقة وتحل محلها أمريكا، لكن بريطانيا عندما تنسحب لا تريد أن تكون في حالة عداء مع هذه المرحلة فقامت بفعل شيئين: أولًا: دول الكومنولث، صنعت اتحادًا من حكومات وطنية مع بريطانيا لمن يريد أن ينضم ويكون تحت هذا الاتحاد والذي فيه الجميع متساوون ولكن سيحصل على امتيازات الانتماء إلى الملكية البريطانية تحت التاج البريطاني، وهذا يتيح عملية الانتقال من هذه الدول إلى بريطانيا والعكس ونقل بعض عناصر الحضارة والدراسة إلى آخره، ثانيًا: أن تقوم بعمل كيان هذا الكيان في حالة عداء مع هذه المستعمرة بمعنى أن يولّد صراعًا وعداء داخلي، وتقوم بريطانيا بدور المصلح وصاحبة المساعي الطيبة ولكنها في نفس الوقت تجعل الصراع يستعر، وفي عام ١٩٤٦– ١٩٤٧ كان لها الدور في انفصال تايوان عن الصين تدريجيًا وذلك لظهور بوادر ثورة في الصين المسماة بثورة ماوتس تونج والذي أعلن في ١٩٤٨ استقلاله ولكنها أخذت الإمبراطور الأخير صنعت به دولة هذه الدولة تكون في حالة صراع مع دولة أخرى وهي دولة تايوان اليوم ودولة الصين، وفي نفس الوقت أخذت هونج كونج كمستعمرة مستقلة عن الصين فتظل في حالة صراع، الشيء الآخر تأتي على منطقة الهند في عام ١٩٤٧ تقوم بعمل انسلاخ لباكستان عن الهند فتقيم دولة والتعلل بأن يكون المسلمين وحدهم والهنود وحدهم حتى لا يكون هناك صراع، هذا كله لا هدف منه إلا أن تولد حالة صراعية، فتتولد الهند وباكستان في سنة ١٩٤٧ بالفعل ويحدث نوع من أشد أنواع المذابح في هذا التوقيت بين البلدين ويستمر هذا الصراع حتى يوم الناس هذا وكلا الدولتين على علاقة جيدة مع بريطانيا وأمريكا.

نأتي لمصر ومنطقة شرق البحر المتوسط نفس السيناريو أخذت من عام ١٩١٧ أظهرت وعد بلفور لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ويصادق الكونجرس الأمريكي على هذا القرار في سنة ١٩٢٤ وعلى هذه الوعود، وبعد ذلك تدخل المنظمات الصهيونية إلى المعترك وتبدأ في تسليح مستعمراتها وتمهد لقيام كيان صهيوني في أرض فلسطين يكون حائلًا بين شرق البحر المتوسط ومنطقة شمال أفريقيا ويولد حالة صراعية لأن هذا الكيان كيان غريب فبالتالي يبدأ حالة صراع مع هذا الكيان تستنزف المنطقة والدولتين تكونا على علاقة جيدة مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

هذا السيناريو الخبيث هو الذي بدأت بريطانيا تنسحب به من العالم ويولد حالة صراعية داخل مستعمراتها السابقة سواء في أفريقيا سواء في جنوب شرق آسيا سواء في العالم العربي ويولد جذور العالم المعاصر، الحالات الصراعية الموجودة في العالم اليوم نتاج هذه الخطة، هي ليست مؤامرة ولكنهم يحافظون على مصالحهم فهل نلومهم؟ لا اللوم علينا نحن.

المسألة الأخرى أنهم كما صنعوا نموذج تركيا فهم يريدون صنع نفس النموذج في كل المناطق التي خرجوا منها، نموذج تركيا هو نموذج مجموعة تصل إلى الحكم متشبعة بالمنظور الغربي متشبعة بعظمة الغرب والفكر القومي بعيدة تمامًا عن الفكر الإسلامي، الأصح هي حالة عداء مع التراث الإسلامي خاصةً الجانب السياسي فيه رغم أنه من عام ١٩٢٠ وحتى ١٩٦٠ الحالة الصراعية أو حركة المقاومة داخل مناطق العالم الإسلامي كله التي كانت تقود المقاومة ضد الوجود الأجنبي في كل دول العالم كان على رأسها غالبًا قادة خارجين من ما يعرف بالإسلام السياسي سواء في مصر سواء في الشام سواء في المغرب سواء في أفريقيا وهكذا، فتبدأ تخرج حركات الاحتجاج والثورات ابتداء من سنة ١٩٢٠ حركات ضد ما يعرف بقرارات الانتداب وتستمر هذه الثورات ضد الوجود الأجنبي حتى الستينيات، وفي الخمسينيات تبدأ حركات الاستقلال لكن على رأس كل دولة تستقل يكونوا ضامنين أن المجموعة التي ستصل إلى رأس السلطة هم على حالة الاتصال والتوافق معها، وفي نفس الوقت هذه المجموعة تكون على –لن نقول الطرف النقيض– ولكنها في حالة تمامًا عن النموذج الإسلامي أو التشريع الإسلامي أو المنظور السياسي الإسلامي، وهذا ما تم على مستوى العالم.

الاتفاقيات الغامضة كانت بعض المناطق التي تركوها لأنه لا يصلح لها إلا هذا النموذج، مثل المملكة العربية السعودية والخليج العربي وبعض السلطنات الموجودة في جنوب شرق آسيا.

كانت هذه جذور الواقع الذي نعيشه اليوم، ستجدون الحالات الصراعية الموجودة في أفريقيا، والحالات الصراعية في آسيا، والذي قام باستكمال المسيرة في هذا الاتجاه عنصر ديني يعمل على تطويع مناطق معينة بالضغط عليها خاصةً في أفريقيا، تمت المحاولة كثيرًا في آسيا وكانت المواجهات هناك شديدة العنف فبالتالي تركوها لاتجاه آخر وهو اتجاه الثورة البلشفية، الاتجاه في أفريقيا كان تبشيري مسيحي –تنصيري–، الاتجاه في آسيا حاولوا في نفس الأمر ولكن كانت الإمبراطورية السوفيتية أو الروسية تتغول في هذه المناطق فانسحبوا لأنهم وجدوا أن البعثات التي يرسلونها تُذبح أو تقتل أو تختفي، فتركوا هذه المنطقة تحت راية الإلحاد –شعار الاتحاد السوفيتي– في هذه الفترة التي استمرت حتى التسعينيات حيث انهار الاتحاد السوفيتي.

بانهيار الخلافة العثمانية وتكوين الحالة الصراعية في كل العالم الإسلامي ينسحب الاستعمار القديم ويظل الاستعمار الجديد بأفكاره ومقدراته ومؤسساته التي نشهدها تعمل اليوم كالسوس في أجساد الدول التي كانت جزء من الدولة الإسلامية الكبرى.

بهذا نختم أو ننتهي من الجانب السياسي الذي يخص التاريخ الإسلامي منذ دولة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى انهيار الخلافة العثمانية والشروط التي انتهى بها الوجود الشرعي للشريعة الإسلامية والحروف العربية والشكل السياسي الإسلامي في الخلافة العثمانية بهذا نكون وصلنا إلى نهاية هذا التاريخ، وما يتبقى من هذا التاريخ (١٩٢٤ وحتى اليوم) هو تقسيمة صُنعت وفقًا لخطة وضعت ما بين القوى الاستعمارية لا نقول نظرية المؤامرة ولكن هم يحافظون على مصالحهم، ومن أطرف ما كان يقال في خلال الفترة الماضية في ظل ما كان من انقلاب في دولة مالي والتي تكلمنا عنها مع بعض الدول الأفريقية، هذه الدولة التي تملك أكبر مناجم ذهب في العالم، هناك مناجم أخرى موجودة في روسيا مناجم قوية جدًا لكن مناجم الدهب الموجودة في مالي صنعت اقتصاديات دول كبرى، ليس هذا مجال الحديث عن هذا الموضوع لكن الطريف في المسألة أن القوى المسيطرة على مالي لفترة طويلة حتى الانقلاب الأخير بدأ ينزع إلى الخروج من تحت سيطرة هذه القوى وهي القوى الفرنسية، فرنسا لديها رصيد ذهب يصل إلى خمسمئة مليون دولار رصيد ذهب أو خمسة مليار –أنا غير متذكر للرقم تحديدًا– لكن لديها رصيد ذهب ضخم جدًا رغم أن فرنسا ليس لديها أي مناجم ذهب مطلقًا، ولا يعرف في بورصة الذهب أن فرنسا اشترت كميات ذهب ولكنها تستولي عليه من مناجم الذهب لأن شركاتها هي التي تنقب عن الذهب في مالي.

سؤال سأله شخص وجاءته الإجابة الجميلة: ما رصيد مالي من الذهب والتي تملك كل هذه المناجم؟ الإجابة: صفر، ليس لديها رصيد ذهب أصلًا، هذا نموذج لكي نعرف كيف تسير الأمور حتى يومنا، والصراع الموجود بين مالي وفرنسا متداول بعد الانقلاب الأخير الذي بدأ ينزع إلى الخروج من تحت سيطرة الفرانكشونية التي يزعمونها.

هكذا نُنهي ما يسمى التاريخ السياسي أو تاريخ الدولة الإسلامية وكما قلنا هناك مناطق موجودة لكن تطبق فيها بعض مظاهر الشريعة الإسلامية ولكننا لا نستطيع أن نقول أنها دولة خلافة إسلامية – على رأسها أمير بحكم الوراثة للنظام والملك–.

وبالتالي ندخل إلى نطاق آخر في تاريخ الحضارة الإسلامية وهو التاريخ العلمي، ما معنى التاريخ العلمي؟ نحن نتكلم عن حضارة إسلامية امتدت على مدار قرون، هل لها بداية ونهاية؟ بالطبع

بدايتها مع أول كلمة نزلت في كتاب الله عز وجل والتي نعلمها جميعًا وهي (اقرأ) وبالتالي كان الأمر الكريم الذي نزل من السماء ليصنع حاضرًا مختلفًا لأمة جديدة عنوانها العلم وبالتالي لا نستطيع أن نفرق بين الإسلام والعلم، هناك من يقول الإسلام ليس له علاقة بالعلم، هذا خطأ، كيف ذلك وأول كلمة نزلت في كتاب الله عز وجل هي (اقرأ)، ومن الآيات المُحكمة (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)، فمن يقول أن الإسلام ليس له علاقة بالعلم مشكلته وليست مشكلتنا، وبالتالي هذا الفكر الذي يريد أن يصنع صراعًا بين ديننا وبين العلم هذه المسألة في الحقيقة لا تستحق النظر ولا تستحق المناقشة، من يقول أن الإسلام أو ديننا ضد العلم هذا الكلام لا يستحق إلا كما قال أحد الإصلاحيين عندما سألوه هذا السؤال وكان في تركيا –معذرةً للكلمة فأنا أنقلها فقط– عندما أرسلوا له هذا السؤال هذا الصراع بين الدين والعلم كيف تفسره؟ فأجاب: هذا السؤال يُرد عليه ببصقةٍ كبيرة تُغرق قائله، أصل ديننا قائم على العلم فبالتالي من يسأل هذا السؤال فأنت لم تقرأ أول كلمة نزلت في كتاب الله عز وجل.

المقدرات العلمية في الحضارة لا تنشأ في حضارة بعينها، ما معنى ذلك؟ عندما نتكلم عن الحضارة الإسلامية، كان هناك حوار لطيف جدًا ما بين خالد بن الوليد وقائد روماني، هذا القائد الذي جاءه في موقعة اليرموك كان يقال أن اسمه جريجوري وهو استشهد في هذه المعركة، وأسلم وقاتل فقُتل فكان هذا هو نصيبه من الإسلام، لكن الحوار ينقله لنا بعض المؤرخين رغم أني لا أصدق مثل هذه الحوارات لكنهم ينقلونها لنا حول ما دار بينهم أنه يقول له: كنا نعلم أنكم تعانون شظف العيش وتعيشون على الكد والقليل وأنكم ما قمتم هذا ضدنا إلا طمعًا فيما عندنا، فرد خالد ابن الوليد ردًا عبقريًا، قال: صدقت فيما قلت، كنا كذلك وأسوأ حتى أتانا نذيرٌ من رب العالمين ينطق بالحق فاتبعناه فأمرنا أن ننشر رسالته بين العالمين فما أتيناكم طمعًا في النعم التي أنتم فيها وإن كانت تستحق أن نقاتلكم من أجلها، ولكن جئنا لكي نكسر شوكة من يقف بين كلمة الله وعباده هذا هو الرد العبقري نكسر شوكة من يقف بين كلمة الله وعباده، هذه هي خلاصة المسألة، وبالتالي القائد الروماني يسأله السؤال التالي: لي سؤالٌ آخر أحقًا أنزل عليك سيفٌ من السماء تقاتل به فلا تُهزم؟ فما كان من خالد بن الوليد قال: إليك هو سيفي فخذه واصنع به ما تقول، وأخرج له سيف وأعطاه له فنظر إليه الرجل وقال: والله ما أرى إلا صفيحةً صدأة، قال: إنما ننصر بنصرٍ من الله وليس بما تقول، كان هذا هو سمت خالد بن الوليد وسبقه في ذلك المقولة التي لا نعرف لصاحبها مقولة أخرى في الإسلام أو في سيرة الصحابة وهو ربعي بن عامر الذي دخل على قائد الفرس وقال له قائد الفرس رستم: كنتم فقراء سنعطيكم مال وملابس وميرة فنحن نعرف أنكم لا تجدون ما تطعمون، فقال والله لقد بعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، هذه المقولات

الرائعة هي التي تعني أننا لسنا بصدد أشخاص تريد أخذ الأرض وأخذ ثروات الآخرين، ولكن هم أشخاص يريدون أن يقوموا على أمانة حُمِّلوها من قبل الله عز وجل هذه الأمانة هي عمران الأرض، وعمران الأرض متوارث ولذلك ستجد أنه لدينا في قصص الأنبياء الذي بدأنا به هذا التاريخ نبيًا تحدث عنه رب العزة بآية واحدة أنه: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) وهو سيدنا إدريس، وسيرة سيدنا إدريس في كتب السابقين أنه الذي علّم الناس كثير من أمور الدنيا، وأن رب العزة ابتعثه ليس فقط من أجل أن يدعو لتوحيد الله ولكن أيضًا لكي يعلّمهم أمور كثيرة في الدنيا فيقولون أنه أول من خط بالقلم وأول من خاط ثيابًا ومن علّم الناس بناء الدور وألا يسكنوا الكهوف والصخور، وعلم هندسة البناء وعلمهم أمور كثيرة حتى أن الكثير من العلوم الرياضية والعلوم الفلكية وكيفية الاسترشاد بالنجوم في السماء، كل هذه العلوم قيل أنها كانت من قبيل تعليم سيدنا إدريس رضوان الله عليه للناس.

وبالتالي المسألة ليست مسألة كيف نتعبد فقط؟ ولكن كيف نُعمّر هذه الدنيا وأن الله عز وجل يعلمنا كيف نعمر هذه الدنيا ولذلك كان أول تعليم تعاليم الإسلام هي (اقرأ) ومن هذا الباب بدأ يخرج في ديننا من يتعلم لغات الآخرين لكي ينقل إلى العربية علوم الآخرين، فبدأت حركة علمية تتعلم من علوم الآخرين وتتعلم كيف نصنع حضارة، لذلك عندما تحدثوا عن كلمة حضارة هو تحول من حالة البداوة إلى حالة المدن –تسمى الحضر– وبدأ بعض الفلاسفة وآخرهم كان محمد إقبال ومالك بن نبي يتكلمون عن كيف تُبنى الحضارات، بدأوا يتكلمون عن مقدرات الأرض وتراب الأرض والزمن والإنسان، هذه المكونات الثلاثة هي التي تصنع الحضارة وهي التي تنقل علوم سابقة إلى آخرين، بمعنى أن العلوم عند المسلمين لم تكن مبتدأة لديهم لكن هناك علوم ابتدأت وهناك علوم نقلناها وطورناها وصنعنا واقعًا مختلفًا لها، على رأس هذه العلوم علم الكيمياء وعلوم الرياضيات، كل ما نراه اليوم من أدوات إلكترونية قائمة على ما يعرف بالخوارزميات، هذه الخوارزميات مشتقة من الخوارزمي والذي وضع علم الجبر وبهذا العلم استطاعوا أن يطوروا إلى هذا الذي نراه من كل التكنولوجيا التي تسير بين البشر اليوم، علوم الفلك وصلنا اليوم إلى رؤية المجرات الأخرى والثقوب السوداء إلى آخره، لدرجة أنه هناك كتاب لابن الهيثم مثلًا –وللأسف هناك فقدان كبير للكتب العلمية– هذا الفقدان أنا أزعم أنه مسروق لأن الكثير من الاكتشافات العلمية التي خرجت بداية عصر النهضة الأوروبي نُسبت إلى أسماء أوروبية ثم اكتُشف أنها كانت في الأصل كتابات إسلامية وهم نسبوها لأنفسهم وهذا ما سوف نتحدث عن طرف منها.

هذه الأمور بدأت تنتقل إلى الإسلام أول الأمر في عهد الدولة الأموية، ما معنى تنتقل؟ مرحلة ترجمة العلوم وكانت بداية هذا مع خالد بن يزيد بن معاوية من بني أمية، وهو كان مرشحًا للحكم ولكن جراء الصراعات فاعتزل الحكم تمامًا واتجه إلى العلم وبدأ يعمل على نقل العلوم التي دخلت في حوزة

الدولة الإسلامية –المناطق الحضارية مثل فارس والروم التي كانت فيها مدارس إلى آخره– المسألة بدأت بعمليات الترجمة في محاولة إلى استيعاب هذه الحضارات، لكن بدأت بالدخول من الحضارات السابقة إلى العلوم الإسلامية في نظم الدولة فنجد مثلًا نظام التقويم أو نظام الوزارة أو نظام الحجابة كل هذا استفدناه من نظم أخرى سابقة وبدأنا نطور عليه نظم خاصة بالدولة الإسلامية وبدأ الفقهاء بإدخالها في منظور فقهي، وزارة التفويض وزارة التنفيذ والحاجب وإلى آخره من هذه الأمور حتى بعض المسائل الخاصة ببيت المال كانت تُعطى في بداية الأمر لأهل الأديان الأخرى خاصةً في مصر كانت تُعطى للنصارى لأنهم كانوا أكثر خبرة في إدارة هذا الشأن حتى تم التعريب واستمر هذا الأمر، وفي مسألة الترجمة تم الاعتماد على مجموعة ممن يتقنون اللغة العربية مع اللغات الأخرى وكانوا أيضًا من أهل الكتاب مثل إسحاق بن حنين وابنه حنين بن إسحاق وغيره من هؤلاء الذين كانوا مترجمين للعلوم، وهؤلاء حقيقةً كانوا من الأمانة بحيث أنهم وضعوا معاجم لكي يبدأوا في ضبط المعنى اللغوي مع المعنى العلمي، فمن يريد ترجمة كتاب في الطب أو في الفلك بدأوا في وضع المعاجم التي صارت بعد ذلك وسيلة العلماء المسلمين في ترجمة ما يأتي من كتب الحضارات الأخرى لأماكن العلم الإسلامي لترجمة العلوم إلى العربية، فما أهمية ترجمة هذه العلوم؟ أهميتها أنك تجعل العلم متاح لكل من يريد ولكل من لديه مقدرة، ولكن أن تحصر العلم فيمن يتقن اللغة هي مسألة في غاية الغباء لماذا؟ لأنك تفرض على كل من يريد تعلم هذا العلم أن يتعلم اللغة، قد لا يكون لديه المقدرة اللغوية على تعلم اللغات الأخرى لكن لديه مقدرة في هذا العلم كعلم الرياضيات وعلم الفلك وعلم الكيمياء أنت تحتاج أن تجعله بلغتك حتى يتسنى لكل من لديه مقدرة علمية في هذا الإطار استيعاب ما هو متاح ويبدأ في تطوير فيما يرى أنه تطويرًا علميًا متسقًا مع القواعد العلمية المقررة.

عملية الترجمة استمرت بشكل مستمر حتى انتهى الأمر بالحضارة الإسلامية أن استوعبت تقريبًا كل مقدرات العلوم من الحضارات التي كانت تحيط بها سواء كان هذا في الهند أو من الحضارة الفارسية أو كان من الحضارة الرومانية، هذه العملية الضخمة تمت على مدار ما يقرب من مئة سنة وخلالها بدأ يدخل إلى هذه العلوم كل من كان له مقدرة في هذه العلوم، بعد ذلك نبدأ في الحديث وقبل أن نتكلم عن المنهج العلمي في العلوم التطبيقية نقول أنه لدينا مسألتين يشكلوا قدرًا من الالتباس لابد أن نحلُه سريعًا وهي العلوم الشرعية والعلوم التطبيقية، ما معنى هذا؟ لدينا العلوم الشرعية مُعلى كعبها يهتم الناس بها نتاج أن هذا هو ديننا الذي سنحاسب عليه يوم القيامة، فبدأ الناس تهتم بأن تضع هذا الأمر في إطاره وفي الحفاظ على الأصول كما كان سيدنا أبو بكر بدأ الحفاظ على القرآن بجمعه ثم في ضبط النطق به في عهد سيدنا عثمان فجمع القراء وضبط مصحفًا وزّع نسخًا منه في الأمصار حتى يضبط قراءة القرآن

ثم ما كان بعد ذلك من جمع السُنة وما استقر بعد ذلك في أن الناس تحتاج إلى ضبط اللغة فبالتالي يخرج لنا من يضع لنا كتابًا في ضبط اللغة وهو سيبويه والخليل بن أحمد في ضبط الشعر وبالتالي بدأ يخرج لنا من يضع بذور العلوم الشرعية ما معنى بذور العلوم الشرعية؟ تعني أنه لكي تفهم معاني القرآن تحتاج إلى أدوات ما هذه الأدوات الأساسية لفهم القرآن؟ اللغة ومعاني الكلمات، فيخرج لنا من يبدأ أن يجمع لنا مفردات اللغة العربية، ما معنى مفردات اللغة العربية؟ يعني مثلًا لدينا كلمة في القرآن تريد أن تعرف معناها ولكن ليس معناها المعاصر لك بل معناها كما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتبار أن القرآن نزل إلى قوم فيتحدث بلغتهم، أين نجد هذا الكلام؟ في شعر العرب وفي كلام العرب فيبدأ في جمع كلام العرب وأشعار العرب، لذلك تجدون عند الفقهاء يقولون: أكثر من كان يعلم باللغة بين الفقهاء كان الإمام الشافعي، حتى أن هناك من كان يقول أنه نقل علم اللغة –هم مجموعة من الأقحاح الذين يأخذون المصطلحات كما كانت في لغة العرب القدماء اسمهم الشعراء الهذليين (شعراء هذيل)– الأصمعي وهو ينقل نقلتهم عن فتى يسمى محمد بن إدريس، هو نقل شعر هؤلاء كله وحفظه وصحح ما عنده عن طريق فتى يسمى محمد بن إدريس الشافعي فكان هذا الفتى أول ما بدأ بدأ بإتقان مفردات اللغة العربية، فكان جمع اللغة العربية من مظانها في قبائل العرب والشعراء القدماء، لذلك نجد لدينا الكثير من الضجيج عندما ظهر لنا من يقول أن هذا الشعر أن أهل الصدر الأول من الإسلام ألفوه –كتاب في الشعر الجاهلي– لذلك ظهر له من يصده وقال له أنك تطعن في القرآن.

نحن نتكلم على أن أدوات فهم الشريعة لا بد أن تتوفر من خلال جمع المصادر التي تساعدنا على فهم ما كان من أقوال في أصولنا، لدينا أصلين كبيرين: القرآن الكريم والسنة النبوية.

أذكر لكم طريفة سريعة كان لدي هواية وهي الدخول على غرف الشات للمبشرين أو من يحاولون عمليات التنصير –توقفت عنها لأنها مزعجة وهم غير منطقيين– ومن ضمن ما تعرضت له شخص يقول: أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يريد أن يمنع الناس من شرب الخمور فكان يخفيها في المسجد، كيف هذا؟ فكان هناك حديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة: ائت بالخُمّرة من المسجد –يقصد البطانية وما يغطي الجسد ويختمره– فهو قرأها الخمرة لأنه يجهل أن الكلمة في اللغة العربية ليست على ما تقرأها أنت أو ما تفهمها اليوم لكن أن تفهمها كما كانت تقال على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي ليست الخمرة بل الخُمّرة وهي ما يشبه بالبطانية أو الحصيرة التي كان ينام عليها الرسول صلى الله عليه وسلم أو يتغطى بها، ولأن غرف رسول الله كانت ملاصقة للمسجد فكان أحيانًا يضعها في المسجد فرسول الله في غرفته يقول للسيدة عائشة أحضري الخُمّرة من المسجد، فهذا الشخص فهمها أنها خمرة، هذا من قبيل هذا الباب الذي يخرج علينا من جُهال هذا الزمان.

هناك أشياء بدأت تجعل الناس تهتم بالعلوم التطبيقية فما هي؟ نحن نريد اتجاه قبلة مثلًا فكيف ذلك؟ في اليمن مثلًا أو في الشام أو في العراق كل هذه البلاد كانت قد فُتحت فكيف نحدد الاتجاه إلى القبلة؟ لابد أن نحدد الاتجاه إلى مكة، كيف تحدد الاتجاه؟ لابد أن تكون على علم باتجاهات الشمال والجنوب والاتجاهات الأصلية ثم ترى اتجاه مكة في أي موقع بالنسبة إلى مكة كيف يكون وهكذا، وبالتالي تبدأ الاهتمام بالاتجاهات الأصلية وبالتالي تهتم بالفلك، أيضًا تحديد بدايات الفرائض مثل الصيام كالنظر إلى الهلال والنظر لتحديد الصيام ونهاية الصيام وبدء موسم الحج، كل هذا يتحدد عن طريق الأهلة وبالتالي بدأ الاهتمام بالفلك في هذا الإطار، وهكذا بدأ الاهتمام بالرياضيات نتاج علم المواريث والذي هو علم معقد، لأنك تحدد وتقسم من له الثُمن ومن له السُدس ومن له الربع ومن له الثُلث، ثُلث من ماذا وربع من ماذا، فبدأت الرياضيات ولديك معادلات لابد من حلها لكي تحقق فريضة من فرائض الإسلام وهي قسمة المواريث، فبدأت هذه البوادر أو هذه النقاط تكون منطلق لتطوير علمي داخل العلم نفسه، لديك اهتمام أصيل بكل هذه العلوم: علم الفلك أو علم الرياضيات أو غيره من العلوم التي كانت تخدم مسألة أساسية داخل الشريعة الإسلامية، ومن هنا انطلقت الاهتمام بنواحي قد ينظر إليها البعض على أنها لا تتعلق بالشريعة ولكنها في صلب الشريعة وهكذا بدأ نوع من أنواع الاهتمام بالعلوم التطبيقية أو العلوم التقنية داخل علوم الشريعة ومن هذا الباب بدأ يتفرع لعلوم الشريعة متخصصين لذلك يقال أعلمكم بالفرائض زيد لأنه كان لديه عقلية رياضية متميزة فكان هو أعلم الصحابة بالمواريث وهكذا.

هذه هي البداية للاهتمام بالعلوم والاهتمام بالتأصيل العلمي لما يجري في حياتهم، وفي هذا الإطار سوف نشرع في الكلام على تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية إن شاء الله في المحاضرات القادمة بإذن الله تعالى.

هذا هو مفتتح الكلام على مسألة تاريخ العلوم.

تاريخ الحضارة الإسلامية في العلوم المختلفة من الطب والكيمياء والفلك والهندسة وغير ذلك من العلوم وكيف أبدع فيها المسلمون:

هذا الحديث هو عن تاريخ العلوم أو التاريخ العلمي عند المسلمين، ونقول عند المسلمين لأننا سوف نتعرض في أثناء ما نتعرض له من إنجازات علمية في الحضارة الإسلامية أن قدراً غير قليل منها كان من صناعة غير العرب وبالتالي الحديث عن الحضارة العربية هي تتجه إلى اللسان العربي وقد سبق أن قلنا أن المنجز الحضاري لأي حضارة من الحضارات لا يتأتى إلا عندما تستطيع هذه الأمة أن تُنجز

إنجازات علمية بلغتها فتبدأ في صنع تراكمًا علميًا يصنع لهذه الأمة وضعية علمية سواء على المستوى التاريخي أو على مستوى الأمم المحيطة بها.

فاليوم على سبيل المثال، بدأنا نسمع عن المنجز الصيني لأنهم ترجموا العلوم وفككوا الآلات واستطاعوا محاكاة ما هو موجود حولهم وبدأوا بعد ذلك في الإنجاز بلغتهم من خلال هذا المنجز أصبح لهم مكانتهم العلمية، وهذا على مستوى الحضارات في التاريخ كله، لا تستطيع أن تميز إنجاز أمة حضارية إلا إذا أنجزت منجزًا علميًا بلغتها فبالتالي تستطيع أن تقدم نفسها إلى العالم في وقتها وعلى مدار التاريخ بعد ذلك في مستقبل الأيام، وهذا ما حدث مع الأمة الإسلامية أنها عندما استقرت الأمور في المستوى السياسي بدأت تستوعب العلوم تدريجيًا العلوم التي أنجزتها الحضارات الأخرى سواء السابقة أو المواكبة للوقت الذي بدأت فيه علو شأن الحضارة الإسلامية.

هذا الإنجاز بدأ بعمليات ترجمة هذه العمليات بدأت بشكل محدود أو بشكل ليس متسع بشكلٍ ما في عهد الدولة الأموية ثم بدأت تأخذ مكانها بشكلٍ كبير في عصر الدولة العباسية وقد تكلمنا عن التقسيم السياسي لتاريخ الأمة الإسلامية، في عصر الدولة العباسية أصبح هناك مهنة –أنا لا أظن أن هناك حضارة في التاريخ صنعت مهنة لخدمة العلم كما كان في الحضارة الإسلامية– أصبح هناك مهنة اسمها مهنة الوراقين، هذه المهنة ليس المقصود بها من يصنعون الورق صناعة الورق كان جزء استوردناه وطورناه من التطويرات التي أدخلتها الحضارة الإسلامية على صناعة الورق، كنا بدايةً نأخذ الورق من الأمم الأخرى نستورده ثم بدأنا في تصنيعه، عندما دخلت الحضارة الإسلامية إلى شمال أفريقيا كانت هناك صناعة الورق من البردي ثم أدخلنا صناعة الورق على الشاكلة الصينية بشكل عجينة –هذه مسألة ليس مجال الشرح فيها– لكن هذا الإنجاز أنه بدأ يكون هناك صناعة ورق في الحضارة الإسلامية وهذا ما حدث في عهد الدولة العباسية بشكل كبير أنه أصبح هناك مصانع لصناعة الورق وبالتالي أصبحت هناك مهنة للوارقين، الوارقين هم من يقومون بعملية النسخ، يصنع نسخة من كتاب مثلًا، فأصبح هناك جهاز داخلي ممول من الدولة وأحيانًا من الأوقاف لخدمة استنساخ الكتب وجهاز آخر يعمل على نسخ عدد من الكتب التي يقوم أي مؤلف بتأليفها، ثم بعد ذلك يعملون على توزيعها على أصحاب هذا العلم، مثلًا عندما يكون هناك كتاب في علم من العلوم وهناك مهتمين فيقوم هذا الجهاز بعملية التوزيع، وبالتالي يبدأ هذا العلم ينتقل إلى أربابه فيأخذون الجديد الذي تم إضافته وبالتالي يبدعون عليه.

هذه العملية كما قلنا تفرغت لها بعض البيوت، هذه البيوت كانت بعضها مسلمين أو أسلموا وبعضهم ظلوا على ديانتهم مثل بعض الرهبان السوريان، فأصبح هناك بيوتًا معروفة ببيوت الترجمة وأصبحت تموّل من الدولة مثل بيت حنين بن إسحاق وبيت ابن الأرقم غير دار الأرقم، بيت بن قرة وبيت بن بخت تشوع وغيره من البيوت هذه البيوت كانت تقوم على ترجمة العلوم المختلفة كالعلوم الرياضية والعلوم الفلكية والعلوم الطبية إلى آخره، كلٌ منهم كان يقدم إلى هذا هيئة تقوم بنسخ ما ترجمه، لم تكن المسألة سهلة لأن الأمر كان يحتاج إلى نحت مصطلحات علمية في كل علم من هذه العلوم سواء العلوم الطبية أو العلوم الفلكية أو العلوم الكيميائية أو الفيزيائية إلى آخره، وهذا ما سنتكلم عنه فيما بعد.

ومن قبيل الأمور اللطيفة منذ فترة قصيرة كنت أطالع مخطوطة للحسن بن الهيثم وهو أحد العلماء المسلمين وكان يعيش في مصر في عصر الدولة الفاطمية في عصر الحاكم بأمر الله، وله قصة طريقة مع الحاكم بأمر الله سأرويها لكم، لكن من الأمور المهمة أن هذا العالم وهو معروف في علم البصريات له مخطوطة لطيفة صغيرة جدًا عبارة عن ١٨ ورقة صغيرة اسمها الأثر الذي في وجه القمر هذا ليس كتاب في الشعر ولا يتأمل في القمر بل هو لاحظ ملاحظة لاحظها بعض العلماء الآخرين، وحضراتكم لو نظرتم للقمر وهو بدر ستلاحظون أن هناك ما يشبه الاختلاف في درجة إضاءة وجه القمر هناك جزء غامق وجزء فاتح، وكانت هناك مراصد وقتها تستطيع أن تستطلع لكن المراصد لم تكن بقوة ما هو موجود اليوم يعني لا يستطيع رؤية أرضية القمر، لكنه يحلل هذا الاختلاف في درجة الانعكاس لأنه وصل إلى أن القمر يعكس ضوء الشمس ولا يضيء بذاته فكان تحليل ابن الهيثم لهذا الأمر أنه يحتمل بعض الأمور فبدأ يقول أنه إما أن يكون هناك مرتفعات في القمر وهناك منخفضات وبالتالي المساحات المنخفضة مظللة قليلًا بالمرتفع وبالتالي درجة إضاءتها ليست بنفس قوة درجة الإضاءة التي بجوارها لذلك اختلفت درجة انعكاس الضوء عن وجه القمر، الأمر الثاني والذي قواه ورجحه أنه هناك اختلاف في طبيعة الصخور فهناك صخور ذات طبيعة معدنية تمتص الضوء والأخرى ذات طبيعة أقل كثافة فتعكس قدر أكبر من الضوء، وبالتالي بدأ يُحلل هذا المرأى الذي رآه في وجه القمر هذه الصفحات تعكس لك العقلية التي كانت موجودة في الحضارة الإسلامية، فهو لا ينظر للقمر فقط أو أنه عاكس للضوء بل هو رجل عالم له نظرة مختلفة تمامًا عندما ينظر إلى سطح القمر عندما يكون بدرًا.

لماذا أضرب هذا المثال؟ لأن ما يدور حول أن الحضارة الإسلامية في بعض كتب المستشرقين هي فقط أداة لنقل علوم الإغريق إلى الحضارة الحديثة كلام في الحقيقة لا يصمد أمام المؤلفات العبقرية التي قدمها لنا علماء المسلمين.

سنبدأ في الكلام على مسألة ونحن نستعرض التاريخ العلمي للحضارة الإسلامية لا بد أن ننتبه إلى بعض الأمور منها: أن هناك نظام لظهور العلم، العلم أساسًا هو منهج ثم نتائج، في أداء مناهج تؤدي بك إلى ظهور العلم أو ضبط العلم، ما الذي يظهر أولًا المنهج الذي يضبط العلم أم العلم ذاته؟ لا.. وفقًا للتاريخ –برغم أن هذا الكلام عام في تاريخ العلم عند العرب فالتخصصات الحديثة لم تضعه في قسم التاريخ بل وضعته في الفلسفة لا أعلم لماذا، هذا تاريخ فلماذا لم يُدرس لنا في قسم التاريخ الإجابة هذا تابع للفلسفة لأن هناك ما يسمى بفلسفة العلم– هذا ليس موضوعنا ولكن هذا التقسيم العلمي المعاصر فلو أنك في قسم التاريخ في أي مكان لن تدرس هذا الموضوع لابد أن تكون في قسم الفلسفة ولذلك معظم الكتب التي تتكلم عن العلوم الطبية أو العلوم الفلكية تجد من يقوم بتحقيقها هم خريجو قسم الفلسفة لماذا لا أعرف؟ من الممكن أن تجد كتاب في الطب حققه خريج فلسفة أو قسم فلسفة في دار العلوم، ما علاقة خريج فلسفة بالطب؟ يجيبون أن الطب أساسه ناتج عن فلسفة العلوم لا تسألني كيف فأنا لا أعرف، لكن هذا هو النسق الذي فرضوه علينا في التخصصات العلمية المعاصرة في جامعاتنا، أنا شخصيًا الذي لم أستسلم بذلك وعليه اتجهت إلى دراسة تاريخ العلوم مثل تاريخ العمران وهذا لن تجده كتاريخ العمران وتاريخ العواصم الإسلامية لن تجده في كتاب التاريخ ولا عند متخصصي الفلسفة ستجده في تاريخ العمارة وليس له تخصص من الأساس، وبالتالي مثل هذه الأمور من الأهمية بمكان أنك تجده في بعض كليات فنون تطبيقية أو بعض أقسام العمارة في بعض الكليات يدرسوا ما يسمى تاريخ الفنون أو تاريخ الآثار، طبعًا ستجده في كلية الآثار ولكن ستجده مقسمًا كتاريخ فرعوني وتخصص قبطي وتخصص إسلامي إلى آخره.

إننا نريد القول أن العلم عند المسلمين اتخذ شكلين، فرضوا علينا وبدأوا يتكلمون عن أنه لدينا علوم نقلية وعلوم عقلية –متخصصي الفلسفة– إذًا ما هي العلوم النقلية وما هي العلوم العقلية؟ العلوم النقلية هي المتخصصة في الشريعة لأننا ننقلها عن الصحابة وبعدهم التابعين حتى وصلت إلينا فهذه عملية نقلية، ليس فيها عقل؟ ننقلها فقط كما هي؟ لا تسأل هي تسمى هكذا. العلوم العقلية ما هي؟ مثل الطب والفيزياء والكيمياء إلى آخره لأن هذه قائمة على الجانب العقلي.. لو نظرت حقيقةً إلى الأمر ستجد أن في العلوم العقلية قدر غير قليل من النقل لأنك تنقل عن السابقين وتطور عليه، يعني علم الكيمياء بدأ عند السحرة الذين كان كل ما يشغلهم صنع أشياء للسحر أو يصنعوا إكسيرًا يحول التراب إلى ذهب هذا كان السياق الذي ثار عند عدد غير قليل في البدايات، ماذا عن الفلك؟ الفلك عند المسلمين غير الفلك عند اليونان، الفلك عند اليونان كانت أبراج وكانوا يعبدون عشتار وبعض النجوم ويقرأوا الطالع من خلالها وهو ما زال موجودًا حتى اليوم ما يعرف بعلم الأبراج والله أعلم إن كان علم أم لا، لكن ما زال له

تأثيره عند عدد غير قليل من الناس، هذا علم نقلي أم عقلي؟ الطب نفسه وحتى اليوم نحن ننقل عن الآخرين التجارب التي قام بها الآخرين فهل هذا نقلي أم عقلي؟ وبالتالي هذا التقسيم في الحقيقة لا يتوافق كثيرًا وفي نفس الوقت سنأتي على العلوم النقلية بغض النظر عن المسميات لكن سنتكلم عن أن العلم لدينا أخذ شكل هذه التقسيمات في مرحلة متأخرة قليلًا ابتداءً من القرن الثاني الهجري.

نعود للنقطة الأساسية التي نريد التحدث عنها وهي أن العلم يتواجد ثم يبدأ بعد ذلك يحدث نوع من عمليات الضبط، ما معنى الضبط؟ مثلًا الفقه وُجد من أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عمر بن الخطاب في اجتهاداته المعروف وموازنته للأمور ودخول بعض الأمور على حياة المسلمين لدرجة أنه على سبيل المثال الصلاة في المسجد أنك حينما تدخل للصلاة في المسجد ستخلع حذاءك وهذا لم يكن متواجدًا على أيام الرسول لأنهم كانوا يصلوا في نعالهم لأن الأرضية كانت طين أو رملية، ثم عندما حتى جاء أحد الصحابة ووضع فيها ما يشبه الزلط حتى لا يتسخ المصلون فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبالتالي فرش المساجد بالأغطية هي مسألة مستحدثة استدعت تداعيات بعد ذلك أنه يتوجب على المصلي خلع الحذاء عند الدخول للمسجد، ما نريد قوله أن العلم وُجد ثم وجدت الضوابط لهذا العلم هذا ينطبق على العلوم الشرعية أو العلوم التطبيقية، ينطبق على علم الفقه كما ينطبق على علم الطب، وجد الطب علاج الناس ثم وُجدت الضوابط العلمية لكي يُضبط العلم في ذاته، لذلك بدأ يظهر ما يسمى بكتب الحدود، عندما كنت صغيرًا كنت أعتقد أنها تتكلم عن الحدود الشرعية قطع اليد والرجم والجلد وإلى آخره من الحدود الشرعية بل الحدود التي نتكلم عنها هو تعريف العلم هذا اسمه الحد، بمعنى أين يقف حد العلم، ما هي الأمور التي تدخل داخل هذا العلم والأمور التي لا تدخل فيه، وبالتالي عندما نتكلم في الفقه فنحن نتكلم في الأمور التي تتعلق بالأداء العملي للمسلم وفقًا للأدلة التفصيلية، وعندما نتكلم في الألوهية والربوبية فهو لا يدخل في الفقه بل يدخل في العقائد، وبالتالي كلمة الحدود أو الكتب عندما أجد كتابًا مكتوب عليه الحدود هذا لا يدخل في نطاق الحدود الشرعية المتعارف عليها بل معناه تعريف العلوم، وهذا بدأ لدينا من القرن الثاني وهو ما يسمى بتصنيف العلوم وبدأنا في وضع حدود لكل علم: ما هو علم الفقه، ما هو علم التفسير، ما هو علم العقائد وهكذا، وبدأنا في وضع حدود للعلوم التطبيقية: ما هو علم الطب، ما هو علم الفلك، ما هو علم الكيمياء إلى آخره، هذه هي الحدود وبدأ المسلمون يقسمون القسمة الكبيرة ما بين علوم شرعية وما بين علوم تطبيقية منقولة لنا في أغلبها من الحضارات الأخرى فبالتالي العلوم الأصيلة الخاصة بنا هي علوم الشريعة، سنتكلم عن هذين القسمين الكبيرين: قسم العلوم الشريعة انقسم إلى مجموعة من العلوم لم يعد كل واحد يتكلم في كل شيء بمعنى أصبح لدينا علم اسمه علم الحديث هذا العلم يتعلق بضبط أمرين: المتن والسند، أما علم التفسير فهو يتعلق بمحاولة بلوغ

مقاصد الشارع من آيات أي مراد الله عز وجل إيراد هذه الآية في هذا المكان، وبعد ذلك أصبح لدينا علم اللغة لماذا؟ لكي نفهم معاني القرآن والسنة –لدينا حديث وقرآن– سنجد في أثناء البحث في علم اللغة أن الكتابات الأولى كان يتقنها العرب فلما دخل غير العرب بدأ الخلط، فأضيف إلى علم اللغة بعض الأمور منها مثلًا عملية تنقيط الحروف بدأها أبو الأسود الدؤلي بنصيحة أو إرشاد من سيدنا علي بن أبي طالب لكي يفرق بين الفاء والقاف، والتاء والثاء في الكتابة ثم أضيف إلى ذلك علم النحو وهو ما يضبط نطق الكلمة وفق موضعها، كان هناك علم قديم اسمه علم الوضع وهو وضعية الكلمة لكي تؤدي هذا المعنى لأنها تختلف في معناها إذا اختلف موقعها في الجملة، هذه العلوم كلها متعلقة بعلوم الشريعة، من العلوم المستحدثة على مدار قرون كانت العلوم الشرعية مقننة أي معروفة، وبدأت مع العهود الأولى لكن بدأ يتكلم في مادة الفقه مثلًا بشكل مُسهب بدايةً من الإمام أبو حنيفة مثلًا لذلك القول المشهور: كل من تكلم في الفقه فهم عيالٌ على أبي حنيفة، بدأ يتكلم أبو حنيفة في الفقه بشكل موسع ومن الطرائف أنه عندما يتكلم في الفقه كان له تلامذة مشهورين حتى في الكتب التي نقلت مذهب أبو حنيفة كان هناك تلميذين محمد أبو الحسن وأبو يوسف القاضي –سمي بذلك لأنه صار قاضيًا في الدولة العباسية بعد ذلك– هؤلاء من نقلوا مذهب أبو حنيفة إلى الناس ومكّنوا كثير من الناس أن تأخذه عنهم، من الأمور اللطيفة أن الإمام أبو حنيفة كان تلميذ لإسحاق بن راهوية فظل يجلس إلى أستاذه طوال حوالي ١٧ سنة ولم يجرؤ على أن ينفرد بمجلس حتى توفي أستاذه، من الأمور اللطيفة أن تلميذه أبو يوسف كان حاله رقيقًا –يحتاج للمال وكان يعول أمه– فكان يحضر له ويقول له سأعطيك مالًا يوميًا لتتعيش منه لأني أرى منك النباهة، فكان من يجلس للتدريس للناس كان له وقف ينفق منه على هذا الأستاذ فأراد أبو يوسف أن يتعجل نفسه فمن اللطائف أن سيدنا أبو حنيفة عندما وجد أبو يوسف يغيب عن مجلسه فعلم أنه اتخذ مجلس وجلس يُدرّس قبل أن يأذن له فأراد أن يعلمه أنه ما زال صغيرًا على التدريس فأرسل له شخصًا في مسألة فقال له: رجل أخذ قطعة قماش وذهب لحائك أو خياطًا ليخيطها له واتفقا على المبلغ مقابل الحياكة فما كان من هذا الرجل إلا أنه طمع في هذا القماش الذي يحيكه فأخذه لنفسه، وعندما جاء إليه صاحب القماش فرفض الحائك إعطائه الثوب، ثم تذكر الحائك عقاب الله فقرر أن يرد الثوب إلى صاحبه وأراد أن يستقضي منه أجره فامتنع الرجل قال إنما استرددت ما كنت قد سرقته مني، فذهبا للقاضي فبماذا يحكم القاضي؟ هل يستحق الحائك المال أم لا؟ فسأل الرجل أبو يوسف فأجاب أنه لا يستحق المال لأنه صنع الثوب لنفسه، فأجابه الرجل: لقد ذهبت إلى أبو حنيفة ويقول أنك قد أخطأت، فقال أبو يوسف: إذا يستحق الرجل المال لأنه صنع الثوب للرجل فبالتالي يتوجب أن يأخذ أجره، قال الرجل: لقد ذهبت إلى أبو حنيفة ويقول أنك مخطئ، كلا الأمرين خطأ فما الحل؟ فعلم أبو يوسف أنه ما

زال صغيرًا فذهب بنفسه إلى إمامه فقال: ما الحل؟ قال يُسأل الحائك أطمعت فيه قبل أن تخيطه أم بعد أن خطته؟ تسأله هل كنت وقت أن تصنعه لنفسك؟ هنا لا تستحق أجر، كنت تصنعه للرجل وبعد أن انتهيت طمعت فيه وقتها تستحق الأجر، فعلم أبو يوسف أنه ما زال يحتاج إلى المزيد من العلم حتى يستطيع أن يُفتي وأن يكون قاضيًا أو يستطيع الإفتاء في مسائل الفقه.

ما كان من هؤلاء الفقهاء –الفقهاء الأربعة الكبار– أنهم مجتهدين على المستوى المطلق، هل ليس لدينا إلا هؤلاء الأربعة؟ الأزهر يقول هناك المذهب الظاهري وأبرزهم ابن حزم فيه ومؤسسه داود الظاهري، وهناك الزيدية والإمامية ووصل بهم إلى ثمان مذاهب، هل هي ثمان مذاهب بثمان مشايخ على مستوى التاريخ الإسلامي؟ الحقيقة الأمر ليس كذلك، الأمر أن الإحاطة بالسنة والقرآن هو مُدرك عند كثير من الناس أما القدرة على الفهم والاستيعاب هي مسألة أخرى ولذلك كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رُب حاملٌ فقه لمن هو أفقه منه، يعني رب من يحمل الحديث ولكنه لم يفهمه جيدًا ولكنه يحمله لمن هو يستطيع أن يفهمه ويستخرج منه الأحكام، ومن المقولات المشهورة عن الإمام أحمد عندما استمع للإمام الشافعي كان وصف الإمام أحمد له –للإمام الشافعي– أنه كالشمس للدنيا، فكان استمع له فيقول لآخر تعالى نستمع لهذا الرجل فقال إننا في إطار جمع حديث رسول الله فماذا نصنع بهذا الرجل إنما يتكلم؟ قال الحديث تحصله بطلوعٍ ونزول أما عقل هذا الرجل فوالله لو فاتك هذا لم تحصله أبدًا، وبالتالي بدأ يخرج للناس علم الفقه حتى ما أرسل شخصًا للإمام الشافعي رسالة يقول له كيف يُفتي المُفتي؟ رسالة من ثلاث كلمات، ألّف فيها كتاب اسمه الرسالة حوالي ألف صفحة ردًا على هذه الكلمات الثلاثة، كيف يُفتي المُفتي؟ ما هي ضوابط الإفتاء؟ وهنا وضعت قواعد هذا العلم والتي عرفت بعد ذلك باسم علم أصول الفقه، وصار علمًا، هذا هو المنهج الضابط لعملية الفتوى الضابط لعملية إخراج الفقه من الفقيه، لابد أن الفقيه يكون لديه ضوابط لكي يخرج الفتوى وهكذا، ولذلك عندما نأتي لعلم الطب الناس تتعالج حتى أن جاء ابن سينا ووضع كتاب اسمه القانون، القانون ليس في القانون بل قانون في الطب وهي الضوابط التي يجب أن تتوفر في الطبيب لكي يستطيع أن يعالج الناس وبالتالي وُجدت العلوم ثم وجدت الضوابط التي تنظم هذه العلوم، كل هذا في إطار الشريعة بمعنى أن في إطار الشريعة أصبح لدينا علوم تظهر كعلم الحديث، علم الحديث هو عبارة عن جزأين كبيرين، الجزء الأول وهو الحديث في ذاته والجزء الثاني اسمه علم مصطلح الحديث، ظهر لدينا الفقه ثم ظهر علم أصول الفقه، ظهر علم التفسير ثم ظهر علم أصول التفسير، ولدينا علم اللغة ثم علم أصول اللغة وهكذا، فكل علم من العلوم خرج له منهج ضابط، طبعًا كل علم منهم لكي نتكلم في أصوله وفي تطبيقاته فهذا نرجع فيه إلى أهل الفن لأن الحديث في هذا الأمر قد لا يكون له نهاية في هذا العمر.

ولذلك عندما قلت أننا نحتاج نسمي الحضارة العربية الإسلامية وأن العربية هي عربية اللسان لماذا؟ لأن مثلًا في علم اللغة عندما نبحث عمن ألّف أبرز كتاب في علم اللغة سنجد علم الضابط كتاب الكتاب، لما يُطلق اسم الكتاب تعلم أنه كتاب في أصول اللغة أو في علم اللغة لسيبويه –هو رجل من وسط آسيا– صحيح علم أصول الفقه وضع أصوله الإمام الشافعي وهو رجلٌ عربي وليس فقط عربي بل هو منتسب إلى العترة الشريفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن عندما ننظر بعد ذلك سنجد أن كثير من الفقهاء الذين أصبحوا يُنقل فقه الفقهاء إلينا من خلالهم من أجناسٍ مختلفة ومن أصقاع العالم الإسلامي أبرز ذلك كتب السنة الكبرى انظروا إليها ستجدوا أن أولها وواحد من أهم كتب السنة إن لم يكن أهمها على الإطلاق وهو صحيح البخاري من بخارة الإمام البخاري هو اسمه محمد إسماعيل البخاري، الإمام مسلم من نيسابور، الإمام النسائي والإمام أبو داود وكثير من أهل السنة أو الذين جمعوا السنة هم من غير العرب ومع ذلك اعتُمدت كتبهم كأصول في الشريعة وليس لأحد أن يتعداها مهما فعل، ولذلك أصبحت هذه هي العلوم الشرعية التي أصبحت تدريجيًا أصول هذا الدين.

هناك علوم استجدت لم تكن متصلة أو لم تكن موجودة على الإطلاق في خلال علوم الشريعة، تكلمنا عن علم الحديث وقلنا أنه متعلق بنقل الحديث ونص الحديث نفسه والرواة، والعلم الثاني اسمه علم مصطلح الحديث ووفقًا لهذه القواعد نحدد إن كان الحديث صحيحًا أو ضعيفًا أو حسن إلى آخره، فيظهر لنا هؤلاء الرواة على أي أساس نصدقهم فظهر علم الرجال أو بمعنى أصح علم الجرح والتعديل هذا العلم هو ما يضبط مدى مصداقية هؤلاء الرواة وحال كل راوي وهل التقى مع الراوي الذي نقل عنه أم لم يلتقي، وهنا يبرز داخل هذا العلم أمور منها مثلًا قولة أحد المحدثين يقول: قد استخدموا الوضع فاستخدمنا لهم التاريخ –استخدموا الوضع في الحديث يقصد الوضاعين الذين يؤلفوا حديث لغرض ما ومن أشهر هؤلاء الشيخ المطيعي عليه رحمة الله كان في بعض الأحاديث المشهورة على ألسنتنا نقول فإذا أسمكتم فأبلحوا بمعنى إذا أكلت سمك فلتأكل بعده تمر أو بلح فيقول حديث وضعه فكهاني يروج بضاعته، أو شكوت إلى جبريل ضعف ظهري فدلني إلى أكل الفطير –حديث وضعه فطاطري– وأشياء من هذا القبيل، ومن المنقول في التراث في عمليات الوضع الحديث القولة المشهورة لابن شهاب الزهري وهو من رواة الحديث وجد شخصًا في المسجد بعد صلاة العصر يقول للعامة حديث من أحاديث الرسول يقول والله عن شهاب الزهري عن أحمد بن حنبل قال فلان عن فلان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول حديثه، وكان في المجلس شهاب بن الزهري وأحمد بن حنبل فيسألان بعضهما هل رويت هذا الحديث قال والله أول مرة أسمعه، هكذا أنا والرجل ينقل عنهما، قال يا رجل أنا ابن شهاب الزهري وهذا أحمد بن حنبل ونحن لم نرو هذا الحديث قال: ألا يوجد غيركما إني أروي عن ستًا وثلاثين من ابن

شهاب الزهري وأحمد بن حنبل، هكذا كان الوضاعين ولذلك وضع علم الجرح والتعديل من أجل أن نحدد إذا ما كان التقى الراوي بهؤلاء أم لا، ولذلك كان حتى من الأمور التي كان يستخدموا لها التاريخ بمعنى أنه يروي أحدهم عن السيدة عائشة التقت بفلان فروت وقالت له قال رسول الله كذا في مدينة واسط – مدينة واسط هذه من المدن التي سوف نتكلم عنها في العمارة الإسلامية– كان هناك مدينة صغيرة واسط قبل الإسلام أو قبل بداية العصور الإسلامية، لكن مدينة واسط التي يتكلم عليها بنيت بعد وفاة السيدة عائشة بحوالي عشر سنين، فيقول له هذا الرجل يتحدث عن لقاء في مدينة لم تُبنى إلا بعد وفاة السيدة عائشة بعشر سنوات بأي عقل؟ وبالتالي يرد الحديث والراوي بشكلٍ مطلق.

هذا الأمر وهي علوم وضعت لضبط العلوم الشرعية، فلكي نضبط مسألة السنة بدأ يظهر علم اسمه الجرح والتعديل، وهكذا بدأت تظهر لنا مجموعة من العلوم كل علم له رجاله ولذلك عندما يأتي في هذا الزمان الذي نعيشه من يتكلم –معذرةً فيما أقول زيد ونطاط الحيط– يبدأوا يناقشوا في السنة ويتكلموا عن صحيح البخاري ويتكلموا عن تفسير المفسرين ويتكلموا عن صحة السنة من عدمها فكان لنا صديق يقول لهم لا يؤخذ العلم من بائعي الجرجير –مع احترامنا للبائع– لكن لا يتكلم في العلم، عندما يأتي صحفي ليس له إلا كتابة مقالًا مثلًا إنما لا يتكلم في أمور علمية، هم أناس أفنوا عمرهم لكي يضعوا قواعد لهذا العلم ويضعوا هذا العلم ويكتبوا في هذا العلم، وبمنتهى البساطة تأتي أنت تكذب هذا العلم وتفتي فيه؟ أو ينتقد فتوى ويقول لا تصلح، كيف ذلك؟ من وضع الفتوى أفتى بناءً على ضوابط وناقش الفتوى وفقًا لضوابطها لو أنت مؤهل لهذا.

المشكلة أن كثير من الناس يتكلمون في الدين ويظنون أن هذا الأمر مباح، الحقيقة كما أننا في الطب نذهب للطبيب فيجب في الدين أن نذهب إلى أهل الفقه وحدد ما تريد الحديث فيه، أنت تريد الرد على شبهة في العقائد ابحث إذًا على متخصص في هذا العلم.

ومن العلوم التي استحدثت في الإسلام أيضًا له اسم لطيف اسمه علم الكلام –وليس علم الثرثرة– ما هو علم الكلام؟ علم الكلام وضع لكي يرد على الشبهات التي أثارها ترجمة الفلسفة اليونانية، الفلاسفة اليونان كانوا يتكلمون في أي شيء وكل شيء فبالتالي بدأت عملية النقل للفلسفة ومن يترجم يترجم، فترجمت إلينا كل ما قاله أرسطو وأفلاطون وأرسطاطاليس وكل الفلاسفة اليونان ومن بعدهم تلامذة الفلاسفة، أفلاطون وأفلاطين إلى آخره هؤلاء، كان لهم كلام لا أحد يستطيع مناقشته لأنهم وضعوا علم اسمه علم المنطق استخدموا العلماء المسلمين في بعض العلوم الشرعية، علم المنطق هذا هو كيف تضع البرهان على ما تقول وفقًا لقواعد عقلية وعلم الكلام هو كيفية الرد على الشبهات بمنطق عقلي

وليس بالكتاب والسنة لأنك لا تتكلم مع إنسان مؤمن، وبالتالي خرج لنا علم الكلام وهو ما يسموه بالفلسفة الإسلامية.

لدينا نوع من أنواع اللغط الكثير في هذا الإطار لدرجة أنه هناك بعض الأشخاص كفّروا بعض علمائنا كابن سينا وابن الفارض وغيره في كلامه في الفلسفة وطبعًا أشهر من كتب أو رد على هؤلاء كان الإمام أبو محمد الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة وهو كتاب عبقري، وهناك كتاب آخر اسمه تهافت التهافت لابن رشد وكان له منحى معين في رده على الإمام أبو حامد لكن المسألة حقيقةً تدخل في إطار المنطق العقلي في استيعاب الفلسفات المترجمة من الآخرين والتي تكلم فيها بعض الفلاسفة المسلمين بأشكال مختلفة فكان ما كان من أن البعض استوعب أن هذه الردود تتوجه إلى هؤلاء والبعض الآخر قال أن هذا الكلام بهذا الشكل كلام لا يجوز في ديننا.

المسألة في النهاية أصبح لعلوم الشريعة نطاق ضخم وتفريعات كثيرة وأصبحت علوم يجب أن يستبطنها من يتكلم في كل علم، لذلك عندنا في الفقه –لا تتعجب– لأن في الفقه لا يتكلم في علم الكلام، الإمام الشافعي قال لو أردنا لكان لنا فيه باعًا وهو لم يتكلم في علم الكلام نهائيًا، فتجد أن كل الكلام الذي يقوله الإمام الشافعي وتلامذته هو في الفقه فقط، لدينا في علم الكلام نجد آخرين ومدارس أخرى مثل أبو محمد الغزالي وابن رشد وغيره من علماء المسلمين، هذا في نطاق العقائد وهو تأصيل العقيدة الإسلامية بأدلة عقلية دون الاستدلال بالقرآن والسنة، لكن العقيدة لدينا كمسلمين الاستدلال أساسي فيها بالقرآن والسنة والشرح لها يكون في إطار القرآن والسنة، لأنك ترد على ملحد أو غير مسلم فلن تقول له قال الله أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبح هناك علم يسمى علم الكلام في هذا الإطار.

مؤخرًا ومع استفحال المشاكل السياسية وحالة التدهور ظهر علم اسمه علم السياسة الشرعية، هذا العلم لم يستقل قديمًا، نعم توجد فيه مؤلفات لكن لم يستقل كعلم له أصول إلا في عصر متأخر وكان هذا بسبب المشاكل التي ظهرت على مستوى شرعية الحكم الإسلامي، أصبح هناك مؤلفات وأصبح هناك اجتهادات وأصبح في إطار وضع الأصول الأساسية له، لأن منظومة الخلافة كما قلنا وجدت ثم بدأ يكون للعلماء فيها إنجاز.

كان هذا الجزء الكبير الخاص بالعلوم الشرعية، ونحن حقيقة إذا استطردنا في الحديث عنه سنأخذ فيه محاضرات، لكن نحن ندمجه لأجل الإخوة الكرام الذين يتكلمون في علم الحديث أو يتكلمون

في علم التزكية أو في العقيدة يمكن الرجوع إليهم لمعرفة المزيد حول ظهور هذا العلم وتطوره وأبرز علماؤه إلى آخر هذا الأمر.

نقول أن عملية التقسيم للعلوم سنجدها كما قلنا في هذه التقسيمة الكبرى، لكن داخل هذه التقسيمة سنجد أنهم قسموا العلوم إلى تقسيم قديم وتقسيم جديد ما معنى هذا؟ التقسيم القديم كان أول من بدأ يتكلم في تقسيمات العلوم كان اليونانيين أو ما نُقل عن اليونان، فكانوا يتكلمون عن أن العلم هو إما علم إلهي وإما علم تطبيقي، العلم الإلهي هو الكلام في الإلهيات والغيبيات ونشأة الكون إلى آخره، وما يدخل اليوم داخل الجامعات تحت اسم علم الأديان والعلوم الأخرى مثل علم الطب وعلم الفلك وهكذا، العلماء المسلمين بدأوا في تصنيف هذا الأمر مثل تصنيف العلوم فهناك علوم شرعية وهناك علوم نظرية أو علوم عقلية وقلنا أن هذا التصنيف يدخل فيه كلامٌ كثير لأن العلوم النقلية نفسها لابد فيها من العقل نحن مأمورون بالنظر العقلي والفقه كله قائم على النظر العقلي، لأنك لكي تقول أن هذا الدليل يصب في هذه المسألة هي عملية عقلية. بعد ذلك بدأوا يتكلمون أن كل علم له مجاله وبدأوا يتكلمون على تصنيفات العلوم كان ذلك في القرن الثاني الهجري وحتى القرن التاسع عشر ظهر كتاب العالم حاجي خليفة " كشف الظنون" وما قاله في تصنيف العلوم.

المسألة الأساسية الذي لم ينتبه لها البعض وهذا ما سنبدأ الكلام فيه وهو أن العلوم التطبيقية لها عدد من العلماء مهول بمعنى أنه لو راجعت الكتب التي تتكلم عن تصنيف العلوم مثل كتاب مفاتيح العلوم للغزالي أو كتاب الفهرست لابن النديم أو غيره من الكتب التي تتكلم في تصنيف العلوم –وكما يقول صديق لنا: البعض يظن أن الإنجاز الأكبر أو العدد الأكبر من العلماء اتجهوا إلى العلوم الشرعية، وكان هو حقيقة متخصص في العلوم التطبيقية والمنجز العلمي في الحضارة الإسلامية، فقال أنا مستعد لمناظرة أن أمام كل عالم تذكره في علوم الشريعة بمجملها سواء علم حديث أو علم فقه أو علم أصول فقه إلى آخره أستطيع أن أذكر له خمسة من العلماء في أفرع العلم الأخرى سواء في الكيمياء أو في الهندسة أو الفيزياء أو الطب إلى آخره من العلوم التطبيقية، عدد الذين تخصصوا في هذه العلوم في الحضارة الإسلامية عدد مهول والكتب التي تكلمت مثل ابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة وغيره أوردت أسماء عدد ضخم من العلماء في إطار العلوم المختلفة، فنحن لدينا مُنجز علمي في كل علم من العلوم بشكل قد لا يتخيله إنسان إلا إذا كان مطلع على مصادر هذه المعرفة، والأمر الأكثر غرابة أن هناك لجنة تشكلت منذ فترة ليست بالطويلة لمراجعة ما أُعلن من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر من منجزات علمية أوروبية، ما الغرض من هذه اللجنة؟ وماذا تفعل؟ كل ما استطاعوا فعله هو بدأوا الرجوع إلى للمخطوطات الإسلامية العلمية وبدأوا في مراجعة ما اشتهر أنه ظهر على يد علماء

غربيين من مُنجز علمي سواء في الفيزياء أو في الميكانيكا أو علم النبات أو في العلوم الطبية إلى آخره، ووجدوا أن هناك وعلى ما أذكر حتى ثلاثة أعوام مضت وصلوا إلى أن هناك ستين ألف إنجاز علمي غربي مُدعى أصله موجود في المخطوطات الإسلامية وأن هؤلاء قد سرقوا المنجز العلمي الإسلامي ونسبوه لأنفسهم، لماذا؟ لأنهم أبرزوه في أوروبا، وأوروبا لكي تكونوا على وعي واستيعاب لم تكن العلم فيها خلال القرن الثالث عشر أو الثاني عشر مستوى الجهل فيها كان أكثر من ٩٥% من الأمة الأوروبية، وبالتالي المنجزات العلمية الإسلامية كانت تصل إلى الصفوة الذين يتصلوا إلى الحضارة الإسلامية وهذا ما سنتكلم عنه في المحاضرة القادمة وهي معابر نقل الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبي، وقد أشرنا إلى بعضها سابقًا ما كان في الحروب الصليبية والمناطق التي اختلطت مثل صقلية وغير ذلك، هذا المنجز العلمي الإسلامي في المخطوطات الموجودة والمتاح أغلبها في العالم الغربي والمكتبات الغربية أخذه أسماء لامعة في التاريخ العلمي الأوروبي ونسبته لنفسها، وأبرز ما نستطيع أن ننقله في هذا الإطار هو المنهج العلمي، المنهج العلمي لم يبدأ مع ديكارت بأي حال من الأحوال بل بدأ مع علماء الحضارة الإسلامية في المشرق الإسلامي، وهنا سوف أستأذنكم لأقرأ لكم من كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون، هذا الكتاب يستعرض الحضارة العربية بشكلٍ مباشر في أزمنتها المختلفة، طبعًا هناك أكثر من كتاب في هذا الإطار من المستشرقين مثل كتاب "حضارة العرب في القرن الرابع الهجري" لآدم ميتز، وكتاب "حضارة العرب" لغوستاف لوبون:

"كانت حضارة الفرس وحضارة بيزنطة العظيمتان تقذفان بنيرانهما الأخيرة عندما بدأت الفتوح العرب وقد استوقف العالم الذي فتحه أتباع النبي خيالهم المضطرم فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم لمثل نشاطهم في فتوحاتهم، ولم يلبث الخلفاء –خلفاء المسلمين– بعد أن شادوا دولتهم أن أنشأوا في جميع المدن المهمة مراكز للتعليم، وجمعوا حولهم كل عالمٍ قادرٍ على ترجمة أشهر الكتب ولا سيما كتب اليونان وحدث ما جعل أمر تلك الترجمة سهلًا فقد كانت معارف اليونان والرومان العلمية القديمة منتشرة في بلاد الفرس وسورية منذ زمن وبيان ذلك أن النساطرة –كانوا أتباع الديانة المسيحية في فرقة من الفرق– لما نُفوا من دولة الروم –تم نفيهم لأنهم على خلاف مع الكنيسة الرومانية– أقاموا في مدينة الرها العراقية مدرسة لنشر معارف اليونان في آسيا وأن تلك المدرسة لما هُدِّمت في عهد زينون الإيزوري –في الحضارة الساسانية أو في حضارة بني فارس– أنها كانت من نتائج هذا القبول الحسن أن قصد علماء أثينا والإسكندرية بلاد فارس عندما أغلقها جستنيان –كان إمبراطور روماني مشهور– فنقلوا إلى أكثر لغات الشرق انتشارًا كالسريانية والكلدانية أهم كتب علماء اليونان ووجد العرب عند فتحهم لبلاد فارس وسورية خزائن من العلوم اليونانية وأمروا بنقل ما في

اللغة السريانية منها إلى اللغة العربية ولم يلبثوا أن أمروا أن ينقل إليها ما لم يكن قد نُقل فأخذت دراسات العلوم والآداب تسير قدمًا إلى الأمام، ولم يدم اكتفاء العرب بما نُقل إليهم إلى لغتهم طويلًا قد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية على الخصوص ليستقوا منها علوم اليونان ثم تعلموا اللغة اللاتينية واللغة القشتالية في إسبانيا كما يشهد بذلك ما في مكتبة الإسكوريال من المعجمات العربية اليونانية والعربية اللاتينية والعربية الإسبانية التي ألفها علماء المسلمين".

أهمية المعاجم أنها تجعل مرجع لمن يترجم ومن يريد أن يفهم، كما يحدث اليوم عندما يوجد كتاب بأي لغة فستحتاج إلى معجم أو إلى قاموس لكي تعرف معنى هذه الكلمة باللغة العربية، هذه هي عملية النقل التي تكلمنا عنها.

نأتي لمناهج العرب العلمية ماذا يقول غوستاف لوبون:

"ليست المكتبات والمختبرات والآلات غير وسائل للدرس والبحث، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها، قد يستطيع المرء أن يكون مطلعًا على علوم الآخرين وقد يبقى عاجزًا عن التفكير وابتداع أي شيء مع ذلك، فيظل تلميذًا غير قادرٍ على الارتقاء إلى درجة أستاذ –معنى ذلك أن كل ما قلناه عن عمليات الترجمة ليست بالضرورة تصنع حضارة أو إضافة وستظل تلميذًا برغم أنك تعرف لغة الآخرين– وسيبدو من الاكتشافات التي نذكرها في الفصول التالية مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس والآن أقتصر على ذكر المبادئ العامة التي وجهت أبحاثهم –ما المنهجية التي عملوا بها– لم يلبث العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان أن أدركوا أن التجربة والترصد خيرٌ من أفضل الكتب –الترصد هو الملاحظة (التجربة والملاحظة ثم بعدها يأتي الاستنباط والاستنباط هو استنتاج النتائج من هذه التجربة)– وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جدَّ علماء القرون الوسطى في أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها –علماء القرون الوسطى لم يعرفوا هذا المنهج وهو التجربة والملاحظة والاستنباط إلا بعد ألف سنة من دخول العرب إلى هذا الميدان– ويُعزى إلى بيكون على العموم أنه أول من أقام التجربة والترصد اللذين هم ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الأستاذ ولكنه يجب أن يُعترف اليوم أن ذلك كله من عمل العرب وحدهم وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ولا سيما هامبول فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير –هو أحد المستشرقين الكبار ومن مؤسسي الاستشراق في الغرب– أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم قال: إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي يجهلها القدماء تقريبًا، وقال مسيو سيديو –أحد المستشرقين الكبار أيضًا–: إن أهم ما اتصفت به مدرسة

بغداد –في الحضارة العباسية أو في الدولة العباسية– هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لأعمالها وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقًا مؤديًا إلى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادئ قال بها أساتذة من العرب وكان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهج المُجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات.

قام منهج العرب على التجربة والترصد وسارت أوروبا في القرون الوسطى على درس الكتب والاقتصار على استظهار وحفظ رأي المعلم، ونقله دون إضافة للأجيال التالية، والفرق بين النهجين أساسي ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفارق ما بين المنهجين".

ونكتفي بهذا القدر لأننا أنجزنا ما نريده من هذه القراءة وهو أن العلوم التطبيقية لها منهج سار عليه العرب قبل أن يُكتب، أي أن من يتكلم في الطب لم يتكلم عنه لمجرد أنه كما يقولون يؤلف دون معرفة، بل هناك منهجية سار عليها علماء أجلاء مثل ابن سينا والرازي وغيره في كل علم تكلموا فيه ناتج عن تجربة قاموا بها وملاحظة واستنباط للنتائج التي أدت إلى أنهم أضافوا إلى العلوم بل صنعوا علوماً تطبيقية سنتكلم عنها في الجزء التالي، ولكن قبل أن نستكمل الحديث في هذا الشأن لابد أن نشير إلى بعض النقاط الأساسية في هذا الطريق، النقطة الأولى أن طبيعة المجتمع الإسلامي أو نستطيع أن نقول طبيعة الدولة في التاريخ الإسلامي لها طبيعة تختلف عن الطبيعة التي نعيشها اليوم بمعنى أن ما كنا نسرده من أحداث سياسية وحروب وصراعات وهو الغالب في كتابة التاريخ لم يكن متصلًا بالمجتمع بشكل مباشر أو بشكل كبير، هناك فصام حدث منذ ما فعله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في فصل أو في الحكم القهري لخلافته بيزيد وما حدث بعد ذلك من صراعات أثّرت قليلًا على المجتمع في ظهور نعرات مثل النعرات الشيعية والخوارج وغيرهم لكن هناك مساحة من المجتمع كانت على مسافة من هذه الصراعات خاصةً أن تطورها أنها هدأت بعد قليل واستمر المجتمع الإسلامي في نموه الحضاري بمعنى أن مؤسساته التي كانت تعمل على ترسيخ الأمن استقرت في عهود قريبة من بعد هذه الصراعات وبدأت في تأسيس منظومات منفصلة عن صراعات الحكم، وهذا سوف يكون ظاهرًا عندما نتحدث بشكل أوفى في محاضرةٍ قادمة عن الأوقاف لأن النظام الوقفي في الحقيقة نظام عبقري لأنه أتاح للمجتمع أن ينفصل عن السلطة في كثير من مقدراته، عندما نتكلم عن المؤسسة التعليمية ونتكلم عن الثقافة العامة ونتكلم عن نشأة العلماء لا نجد هناك من تدخل للدولة، المنظومة التعليمية لم يكن لها مقررات مقررة من قِبل الدولة كما يحدث في هذه الأيام، اليوم المقررات تقررها الدولة وتفرضها على التلاميذ، هذا الأمر كان في العهود الإسلامية يقرره العلماء ما هو المنهج الذي يجب أن يتعلمه الطفل ثم ما هو التطور

الطبيعي لهذا المنهج ثم يتجه كل شاب إما إلى حياته العملية كصانع أو كتاجر أو كفلاح إلى آخره، أو إلى النطاق العلمي الذي يبرع فيه وهنا يأتي دور المعلم في توجيه تلامذته فنجد أن هناك علوم مشتركة وهناك علوم متخصصة بمعنى أن العلوم المشتركة تجد الكل يتعلم القرآن والسنة وشؤون الفقه التعبدية – هذه ثقافة عامة– بعد ذلك يأتي التخصص ستجد علماء في التفسير وعلماء في الفقه وعلماء في أمور الشريعة ومقاصد الشريعة مثل الإمام الشاطبي وغيره ثم ستجد هناك أناس يتخصصون في علوم الدنيا مثل من يتخصص في علوم الفلك أو في علوم الطب أو في علوم الكيمياء إلى آخره من هذه الأمور، هذه الدائرة التعليمية لم يكن للدولة تدخل فيها، هي كانت تحت إدارة العلماء والعلماء كان يُنفق عليهم وعلى حياتهم من قِبل الأوقاف التي كانت توقف على العلماء وعلى أهل العلم وعلى طلبة العلم، هذه المنظومة كانت تعمل داخل العالم الإسلامي كله وليس في مكان محدد، وأحيانًا كانت الدولة تتدخل لدعم ذلك من قِبل أنها تحاول بناء مكان لحيازة الكتب لكي يتمكن الباحث أو العالم أو المتعلم من الذهاب إلى هذا المكان ليجد مكتبة عامرة ويجد نُساخ ينسخون ما يريد من المراجع ويجد مترجمين لبعض الكتب التي لم تترجم إلى العربية يترجمونها له، يقوم بهذا دوائر متخصصة يُنفق عليها أحيانًا من الدولة أو يُنفق عليها من الأوقاف لكن الدولة لم تكن تتدخل بذاتها في إقرار ما يتعلمه الناس. لذلك، نقلت إلينا علوم مختلفة حتى أننا نجد علوم الفقهاء استجهنوها –الخمريات لأبو نواس نُقلت إلينا– شعر أبو نواس وحياة أبو نواس، والأغاني للأصفهاني وما فيه من سير المغنيين والفنانين وكل هؤلاء.. هذه كانت طبيعة المجتمع، المجتمع كان يحمي كل هؤلاء يعترض هؤلاء على هؤلاء لكن هذا الاعتراض لا ينقلب إلى حالة من حالات العنف أو القهر أن يترك هؤلاء مجالهم أو يُذعن هؤلاء لما يدور بما يخالف ما يعتقدون.

بالتالي كانت طبيعة المجتمع وهذا هو المغزى فيه قدر عالي جدًا من الحرية، هناك صراعات على السلطة من يتولى ومن لا يتولى هذه مسألة لا تشغل المجتمع في قليل أو كثير لكن المسائل الكبرى في الجانب السياسي كان يحدث فيها ما يحدث وهو ما تحدثنا عنه، لكن الجانب الاجتماعي كان مسألة فيها قدر كبير من الاستقلال وكان فيها قدر كبير من الحرية واستيعاب الاختلاف داخل هذا المجتمع، لذلك نجد كتب تتكلم عن النصرانية والاعتراض على النصرانية والاعتراض على اليهودية وتفنيد ما قاله النصارى لكن النصارى يعيشون معهم واليهود أيضًا، ولهم ذمتهم ويُذهب إليهم للتجارة معهم ويُتقبلون داخل المجتمع إذا ألّفوا كتابًا تجده مثل كتب موسى بن ميمون اليهودي موجودة حتى اليوم وهي تتكلم عن الشريعة اليهودية فبالتالي هذه الأمور التي كانت تدور في نطاق العلم والثقافة وإدارة الحياة العلمية داخل المجتمعات الإسلامية كانت منفصلة عن الصراع السياسي، هذا جانب. كان هناك مساحة من

التدخل أو أن هناك أحيانًا تستخدم السياسة لخدمة بعض المذاهب لكن هذه شؤون لم تكن مؤثرة على تداول العلم ونموه والتطور الحضاري للحضارة الإسلامية.

الأمر الثاني الذي لابد أن ننتبه إليه وهو أن العلم لم يكن حكرًا، قد يكون هناك صراعًا في مكان مثل ما كنا قد تكلمنا عنه من صراع داخل الأندلس في حرب الطوائف فيبدأ العلم في ظل حالة الخوف يتراجع فتجد أن حركة العلم تبدأ تنتقل إلى القاهرة لأن القاهرة مستقلة، حروب الصليبيين تنتشر في بيت المقدس فتجد أن العلم يتراجع عن بيت المقدس إلى منطقة أخرى لكي يبتعد عن مناطق الدمار والحروب، العلم لكي ينمو أو الحالة الحضارية لكي تنمو تحتاج إلى عناصر أساسية هي الحرية والأمن والاستقرار الاقتصادي، هذه العناصر الأساسية توفرت للحضارة الإسلامية على أزمان متطاولة، نحن لا نتكلم عن بقعة ضيقة بل نتكلم عن مساحة واسعة من الأرض وبالتالي إذا كان هناك مشكلة في مكان مثل منطقة الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي منطقة الشام نجد أن الحركة العلمية تنتقل إلى منطقة المغرب العربي تحصل هناك مساحات صراع الطوائف وينتقل إلى حالة حروب الاسترداد ووصول الفرنجة إلى السواحل المغربية في مرحلة معينة من التاريخ فنجد أن حركة العلم تبدأ في الانتقال إلى المغرب الأوسط ثم تنتقل إلى القاهرة وتنتقل إلى الشام بعد انجلاء غمة الصليبيين، وهكذا تبدأ حركة العلم تبدو لنا مستمرة داخل الحضارة الإسلامية، لأن الحضارة الإسلامية التي نتكلم عنها فنحن لا نتكلم عن منطقة معينة فنحن لا نتكلم مثلًا عن مصر أو الأندلس أو الشام أو خراسان بل نتكلم عن مُجمل الإنتاج العلمي الحضاري للأمة الإسلامية، ولذلك قسر المسألة على ما يقال على الحضارة العربية هذا يعود فقط إلى من يكتب بالعربية، وكما قلنا من قبل أن الذين كتبوا بالعربية أفراد كُثر لم يكونوا ينتمون إلى ما يُعرف اليوم باسم العالم العربي، كُثر منهم سنجدهم من وسط آسيا قد يصل الأمر إلى ماليزيا وإلى المغرب العربي إلى آخره، لذلك القوميات التي تظهر تريد أن تُبعد شعوبها عن اللسان العربي لكي تقطعها عن حضارتها وجذورها التي نمت في عصور الحضارة الإسلامية، ولذلك نجد أن دولة مثل تركيا عندما جاء من حول اللسان التركي من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني صنع قطيعة مع التراث العثماني الذي امتد على مدار قرون في كتابات حضارية فأصبحوا لا يستطيعون قراءتها ولا يستطيعون التعامل معها وهذا صنع قطيعة مع تاريخهم، هم اليوم يحتاجون إلى مترجمين لكي يترجموا من الكتابة العثمانية إلى الكتابة التركية الحديثة، أصبح هناك مترجمين لهذا وهم ليسوا بالكثرة وإن كان هذا أحد العناصر التي استهدفوها لكي يقطعوا هذه الأمة عن جذورها، فبالتالي يجب أن ننتبه إلى هذين العنصرين: طبيعة الدولة الإسلامية وفي نفس الوقت من الناحية الأخرى هي طبيعة أو العناصر الأساسية لنمو العلم، العنصر الثالث أننا لا نتكلم عن التاريخ العلمي الإسلامي ليس في بقعة معينة أي

أننا لا نتكلم عن تاريخ العلم في مصر أو الأندلس، هناك مؤلفات لهذا الأمر بدون شك لكننا نتكلم عن تاريخ العلم في الأمة الإسلامية بغض النظر عن البقعة الجغرافية أو المساحة الزمنية لهذا الأمر، لذلك عندما تحدثنا المرة السابقة عن تصنيف العلوم مثلًا قلنا أن تصنيف العلوم هو ما اتجه إليه العلماء – صحيح كانت البداية لهذا الأمر تصنيف العلوم ما هي العلوم ثم ما هي العلوم التي تدخل في إطار منطوق العلم ثم ما هي المناهج التي تعتمد لكي نستطيع أن نقول أن هذا القول قول علمي– فبالتالي أول من تكلم في ذلك كان بدون شك كان فلاسفة الإغريق، لماذا يصنفوه؟ لأن هذا قريب من موضوع الفلسفة وموضوع عقلي وفلسفي إلى حدٍ ما ولكن هو أيضًا يعتمد على المعرفة بالعلوم المختلفة، العلماء المسلمين دخلوا إلى هذا الإطار وأقدم ما قُدم لنا هو جابر بن حيان قدم لنا رسالة اسمها رسالة الحدود، وفي المرة السابقة تكلمنا عن كلمة الحدود في هذا النطاق ليس معناها حدود الشريعة أو الحدود الشرعية التي نسمع بها جميعًا كحد السرقة أو حد القاتل إلى آخره بل نحن نتكلم عن حدود بمعنى ما هو حد العلم، ما هو أوله وما هو آخره، عندما نتكلم عن علم مثل علم الفقه فنحن نتكلم عن الأحكام التفصيلية من الأدلة الفرعية أو من الأدلة بترتيبها الشرعي المعتمد في علم أصول الفقه فهذه هي مساحة الفقه، وعندما نتكلم المسائل الخاصة بذات الله أو صفات الله فهنا دخلنا في علم آخر اسمه علم العقائد وأحيانًا يطلق عليه علم الكلام وكنا قد تكلمنا في هذا الإطار، هذه العلوم قلنا أن لدينا فرعين كبيرين في العلوم وفقًا لتصنيف علماء المسلمين غير تصنيفات أرسطو وغيره من فلاسفة الإغريق أن هذا الكلام تكلم فيه أولًا الفلسفة مثل ابن سينا والفارابي وغيره وبعد ذلك دخل فيه علماء الشريعة مثل ابن حزم والغزالي وغيرهم، لماذا؟ لأنه دخل إلى إطار مساحة العلوم الشرعية، ما هي حدود كل علم وما هي العلوم ومنهجية كل علم في هذه العلوم، هذا الإطار تكلمنا عنه في المرة السابقة وتكلمنا عن العلوم التي اختُص بها المسلمون –علوم خاصة بالمسلمين– مثل علوم الشريعة والتي تكلمنا أنها مثل علوم الفقه وعلم اللغة العربية وعلم التفسير وعلم الحديث إلى آخره، وأن كل علم يبدأ ثم يخرج العلم الضابط له، بمعنى أنه أي علم من العلوم يبدأ أولًا على سبيل المثال علم الحديث يبدأ الناس في تناقل الحديث ثم ضبط الحديث نفسه بحيث أن يسجل، ثم يخرج لنا عندما تظهر مشاكل فيبدأ يخرج لنا علم اسمه علم مصطلح الحديث، وحتى نستطيع أن نفهم أو من يريد التحدث في هذا العلم يجب عليه المعرفة بمصطلحاته ويخرج لنا منهجية لضبط هذا العلم، وبالتالي خرج لنا علم اسمه علم الجرح والتعديل أو علم الرجال –وهو أحوال الرواة– وخرج لنا علم السند وعلم المتن كل هذا في داخل علم كبير اسمه علم مصطلح الحديث، كذلك علم أصول الفقه وهكذا.. داخل كل علم من العلوم خرج لنا علم أصول هذا العلم أو المنهج الضابط لهذا العلم.

ننتقل الآن إلى الدائرة الأخرى التي تكلم عنها علماء تصنيف العلوم العربية أو الأسماء العربية الإسلامية وهي ما يُطلق عليه العلوم العقلية أو العلوم التطبيقية وهي في مجملها تطوير لعلوم سابقة – نقلت إلينا– مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء إلى آخره، وفي المرة السابقة أشرت إلى مخطوطة كنت أقرأها منذ فترة قصيرة للحسن بن الهيثم قلنا أنها كانت تناقش مسألة دقيقة في علم الفلك وهي الأثر الذي في وجه القمر كان يناقش أنك لو نظرت إلى القمر عندما يكون بدرًا ستجد أن القمر فيه كأن فيه رسم رقيق جدًا في خلفية ضوئه هذا الأثر هو الذي ينظر إليه الحسن بن الهيثم ليناقشه ما هذا الأثر؟ وفي بداية المخطوطة اتبع المنهج العلمي، لأنه لدينا في المنهج العلمي منهجين: منهج التجربة والرصد والاستنتاج وهذا نجده في الكيمياء وفي الطب، ولدينا منهج المشاهدة والرصد والاستنتاج أيضًا لماذا؟ لأنه ليس لدينا تجربة فيه كعلم الفلك –علم الفلك ليس هو علم قراءة الطالع الذي يتكلمون عنه– لكن علم الفلك عند المسلمين قصة أخرى تطور عن هذه الخرافات لكن كان أصله هذه الخرافات التي نقلت إلينا من بعض الحضارات السابقة لكن تطور إلى أننا بدأنا نرصد الكواكب وكان من جميل الأشياء التي قام بها أحد علماء المسلمين أنه أنشأ مرصد –قبل أن أكمل رسالة الحسن بن الهيثم– هذا المرصد عبارة عن مجموعة من العدسات لكن هذه العدسات في الحقيقة في أحد الأفلام الوثائقية التي شاهدتها من قريب وجدت أن هذه هي المنهجية المتبعة في بعض المراصد الحديثة، لا أدري عن بقية المراصد أنا لست متخصص في هذا القطاع، لكن المرصد الذي وضعه هذا العالم المسلم كان يتجه إلى السماء بزاوية محددة ثم تنتقل الرؤية إلى مرآة مسطحة أي يستطيع النظر إليها كما لو كنا ننظر إلى منضدة، مرآة تنقل الصورة الموجودة في هذه العدسات تنتقل الصورة في النهاية إلى مرآة فينظر إليها كما ينظر إلى صفحة كتاب أمامه وبالتالي صورة السماء تنعكس داخل هذه المرآة فبالتالي يستطيع أن يرصد كافة النجوم التي يستطيع هذا المرصد أن يلتقطها وبالتالي إذا مرّ شهاب أو نيزك أو أي شيء يظهر في هذه المرآة فيتم رصده بسهولة لأنه يتم مراقبة المرآة بشكل سهل ويستطيع الراصدين حول هذه المرآة الذين يعملون بشكل مناوبات أن يرصدوا حركة النجوم والشهب والنيازك التي تظهر في صفحة السماء، هذا الأمر أدى إلى أنهم أصبحوا قادرين على معرفة مواقع النجوم وأصبح هناك تسميات تجد لدينا ما يسمى بالدب القطبي الصغير والدب القطبي الكبير ومجموعات شمسية أصبح لها مسميات عربية في الأساس وانتقلت إلى الغرب بعد ذلك لأنهم أخذوا هذا الأمر عن العرب وعن المسلمين، وبعد ذلك هذا هو كان المرشد الأمين للبحارة في البحر الذي لم يكن لديهم وسيلة لمعرفة الاتجاهات إلا هذه النجوم والتي كانت ترشدهم إلى الشمال والجنوب، ماذا لو كانت السماء مُعتمة وممطرة وهم لا يرون نجوم لا يسترشدون بها فكيف يعرف اتجاهه؟ فاخترع المسلمون آلة اسمها الإسطرلاب وهي آلة يستطيعون ضبطها قبل الخروج

بمراكبهم على اتجاهات محددة في السماء وبالتالي عندما ينظرون من خلالها فيعرفون اتجاهاتهم شرقًا أو غربًا أو الزوايا التي يجب أن يسيروا فيها حتى يصلوا إلى بر الأمان.

وبالتالي العلوم التي كان ينتهجها المسلمين لم تكن علوم مجردة، الآن هناك بعض العلوم اسمها العلوم المجردة أي أنه يتكلم في العلم حتى تظهر له فائدة، لكن العلوم الإسلامية تنبع من احتياجات الناس، ما معنى هذا الكلام؟ ما كان يقوم به الحسن بن الهيثم في القمر كان نوعًا من أنواع المناقشة العلمية لهذا الأثر هو يريد أن يعرف السبب وهو لا يستطيع أن يرى سطح القمر فالمراصد لم تكن بتلك الكفاءة التي تجعله يصل إلى سطح القمر الذي نعرفه اليوم، وبالتالي في بداية المخطوطة الخاصة به يضع حوالي ثمان فرضيات علمية وينتهي إلى أن يرجح فرضيتين منهما: أن هناك اختلاف في الارتفاعات على هذا السطح –سطح القمر– واختلاف في عناصر التربة وبالتالي اختلاف الكثافة بين مكان وآخر يؤدي إلى اختلاف درجة انعكاس الشمس عن هذه التربة، واختلاف الارتفاعات يؤدي إلى اختلاف أيضًا في درجة الضوء الذي يصل إلينا من القمر فيصل بعضه أسبق من بعض فيؤدي إلى هذا الاختلاف الذي يظهر في وجه القمر، والذي ثبت علميًا الآن مصداقية الفرضيتين، في المرة القادمة أقرأ لكم كل فرضياته العلمية وكيف قام بتحليلها وفقًا للمعلومات المتداولة في عصره وكيف استطاع الوصول إلى هذه النتائج.

نعود إلى المنهجيات العلمية، قلنا أنه لدينا منهجيتين المنهجية الأولى: وهي التجربة والرصد ثم الاستنتاج ثم إخراج القانون أو النتيجة النهائية، المنهج الثاني: وهو المشاهدة والرصد والتتبع هل الحالة متكررة أم لا أو ثابتة ثم الاستنتاج الذي يصل إلى صياغة قانون منه أو شيء من هذا القبيل.

نبدأ في توضيح أنه في هذا الإطار أن هاتين المنهجيتين العلميتين وقد قرأنا في المحاضرة السابقة لغوستاف لوبون وهو يتكلم عن أن هاتين المنهجيتين هما ما استقر عليه العلماء المسلمين وبعدها نُقلوا بعد ذلك على أنهم منهج العلم عند الغرب والذي تكلم عنهم سواء كون أو غيره من علماء الغرب أو المقدمات العلمية للحضارة الغربية عن المنهج العلمي الذي يجب أن يُتبع لكي نصل إلى حقائق علمية وليست مجرد استنتاجات نظرية أو فروض تخيلية.

في هذا الإطار كانت العلوم الإسلامية تتطور بشكل كبير جدًا ولذلك تكلموا أنه كان هناك مؤسسات علمية إسلامية، قبل أن نتكلم عن العلوم في ذاتها سنتكلم عن أمرين: الأمر الأول: عملية التدرج العلمي، كيف يتم تكوين العلماء وما هي المستويات؟ تكلمنا عنه من قبل بشكل سريع ولكن سنتكلم عنه بشكل أوسع، الأمر الثاني: بداية الانتقال العلمي إلى الغرب، كيف نقل الغرب علومنا؟ المنطقة

الأولى: نحن نتكلم عن مؤسسات علمية بشكلين: الأول: عملية التنشئة العلمية والثاني: دعم البحث العلمي، عملية التنشئة العلمية قلنا أن هذا الإطار لم يكن للدولة تدخل كبير فيه أو نستطيع أن نقول أنه لم يكن هناك تدخل على الإطلاق لكن هناك حث من جانب الثقافة السائدة، ما معنى حث؟ الثقافة السائدة هي الثقافة الإسلامية رأس هذه الثقافة هو القرآن والسنة، القرآن أول ما بدأ قال (اقرأ) وبالتالي أصبح جزء أساسي من عُرف الناس أن يتم تعليم الأولاد كتاب الله عز وجل وشيء من سنة رسول الله وشيء من الفقه وشيء من الحساب وسنتعرف كيف تطور الحساب وخدم الديانة الإسلامية، وبالتالي أصبح هناك ما يُعرف أو شكلين من أشكال تعليم الأولاد الشكل الأول: هو الكُتَّاب والذي بدأ من العهود الأولى يجتمع الأولاد مع معلم يعلمهم كتاب الله عز وجل، بدأ هذا الأمر في العهود الإسلامية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الجميع يتعلم القرآن عند نزوله واستمر هذا الأمر في دعمه ويتتالى مع الأجيال الجديدة في عهود الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، أصبحت المساجد هي المدرسة الأولى للأولاد ثم استقلت لعدم الضجيج، وأصبح هناك مجالس علمية وأن يكون هناك مكان مخصص لهم سُمي الكُتَّاب إما يكون في المسجد أو في صحن بجوار المسجد، ظل الكُتَّاب موجودًا لفترة طويلة وفي كل مكان وهو المعلم الذي يأخذ الأولاد ويحفظهم شيء من القرآن وشيء من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الحالة الأخرى التي كما يقولون عنها أبناء الأمراء وأبناء الملوك كان لهم المؤدِّب الخاص والذي بدأ من عهد الدولة الأموية وليس من عهد الباشوات، هذا المؤدِّب الخاص هو معلم –لا تظن أنه شخص فقير فلدينا مثلًا الإمام الطبري كان معلم لأبناء الخليفة– كان بعض الفقهاء الكبار الذين هم في مرحلة من مراحلهم كانوا معلمين لأولاد الملوك وبعد ذلك يمكن أن يتولوا مناصب كأن يصبح إمام المسجد الكبير أو قاضي من القضاة إلى آخره، لكن كان هذه هي البداية ثم انتقل الأمر إلى شكل أكثر رصانة أن أصبح لأولاد المدرسة لهم معلمين على مستوى معين يذهبوا لهم ويعلمونهم إلى جانب الفقه أو مع القرآن والسنة بعض الحكمة وشيء من سياسات المُلك وإدارة السلطة، كانت هذه هي المؤسسة الأولى وبعد ذلك هناك ما يسمى بمجالس العلم التي كان ينتقل إليها الطفل بعد أن ينتهي من المرحلة الأولى حفظ القرآن وحفظ قدر لا بأس به من السنة أو فقه العبادات وبعض العلوم المكملة كعلم اللغة وبعض الشعر ويستطيع الكتابة وبعض الحساب لماذا بعض الحساب؟ لأن هناك بعض العمليات الحسابية داخل الشريعة الإسلامية سنتكلم عنها حالًا.

المؤسسة الثانية هي مجالس العلم، هذه المجالس هي المرحلة الأعلى لمن يريد أن يتلقى العلم لكي تزداد معارفه وهنا يبدأ في تلقي علم الحديث وعلم مصطلح الحديث وعلم الفقه وعلم أصول الفقه وعلم التفسير وعلم أصول التفسير وهكذا هذه مجالس العلم تكون للكبار، ثم بعد ذلك ينتقل إلى المرحلة

البحثية لكي ينتقل لأن يكون باحثًا أو معلمًا ولكي ينتقل لأن يكون معلم يجب عليه أن يذهب لعالم في تخصص معين يتلقى على يديه العلم ويقرأ مؤلفاته العلمية في هذا التخصص فيجيزه في هذا العلم – شهادة الليسانس– لكن شهادة الماجستير والدكتوراه كانت قصة أخرى والتي هي بموجبها يستطيع الإفتاء في هذا العلم، هناك فرق بين أن تُعلّم العلم وأن تستطيع أن تجتهد داخل هذا العلم هذه درجة التي تستطيع بها أن يُتلقى عنك الجديد، لذلك في مادة مثل الفقه نحن لدينا الكثير من الفقهاء ولكن الذين استطاعوا أن يكونوا مُلمين ولهم تلاميذ حملوا لنا هذا العلم كانوا هم الفقهاء المعروفين الأربعة أو هم بالأصح أكثر من ذلك يصلوا حوالي ٢٧ أو ٢٨ فقيه، منهم سفيان الثوري، ابن عيينة، إسحاق ابن راهوية، عندنا أطراف مما كانوا يتحدثون فيه، لكن من لدينا فقههم بشكل كبير هم الفقهاء الأربعة الكبار بالإضافة إلى ابن حزم أو داود الظاهري أو الإمام جعفر الصادق إلى آخره من هؤلاء الأئمة هذا بالنسبة للفقه، لدينا في التفسير أئمة في التفسير ولدينا أصول التفسير ولدينا مدارس في التفسير معروفة عند أهل هذا التخصص.

لماذا نتكلم عن هذه الدوائر فهناك دائرة أخرى والتي هي لمن لم يجد نفسه في هذا الإطار سيجد نفسه في إطار علم الفلك فيبدأ في الدخول لمرصد من المراصد ويبدأ يتعلم أشكال العلوم ويبدأ في التخصص في نطاق الرياضيات وحل المشاكل الرياضية المعاصرة له، أو يدخل في نطاق الطب ويبدأ يحصل على إجازته في الطب.

وكما قلنا أن الإجازة في العلم لا تأتي إلا بامتحان، ما معنى الامتحان؟ الامتحان ليس أن تذهب للامتحان غيبًا، الامتحان كان عند علماء المسلمين أنه بعد أن تقرأ يبدأ في سؤالك فيما قرأت نظام Open Book، كالامتحان الذي اختبر به أبو حنيفة لأبو يوسف عندما أراد أن ينفرد بدرس فأرسل له شخص يمتحنه أو يسأله سؤالًا ليشعره أنه ما زال تلميذًا، نجد مثلًا الإمام الرازي يتكلم في أحد كتبه الطبية فيقول: لا يُجاز الطالب في الطب حتى يُمتحن في التشريح فإن لم يمر فيه مرًا حسنًا لا يعتمد كطبيب، العلامة الأساسية أنه لابد من الامتحان الأساسي في التشريح، لماذا؟ لكي نكون على معرفة بأنه قادر –ليس شرطًا أن يكون طبيب جراح– لكن لمعرفة مدى تمكنه من الوصول للأعضاء المختلفة، فيطلب منه مثلًا أن يفصل الكبد ويتم ذلك على حيوان، ولكن تشريح الأبدان كان داخل في إطار الممارسة والتي كانت تتم على بعض جثث الموتى الذين لا يُعرفون أو الموتى في الحروب كانت تؤخذ بعض الجثث للجراحين فيظهروها لطلابهم لأنها ممزقة في الأساس، يظهرون لهم أجزاء الجسم الداخلية وكيف يصل إليها بمعنى من وقت أن بدأ في تشريحها كيف يصل إليها، كيف يصل إليها؟ الكثير لا يعلم أن الغرب لم يكن هناك جراحة كان هناك –معذرة بعض الناس يمكن أن تغضب مني– عند أهل الكتاب

لديهم ما يسمى ماء كان يقرأ عليها القسيس الإنجيل أو الله أعلم ما الذي يقرأه لكن هناك مياه مقدسة تُرش عليهم وتُرش على المرضى، والآن في الحقيقة هناك بعض الناس وأنا لا أقلل من أهمية هذا لكن أنا فقط أقول أن هذا ليس له علاقة بالطب، قد يكون له علاقة بأمور أخرى ليس هذا هو موضوعي ولكن الموضوع الطبي –هناك بعض الناس تقول الاستشفاء بماء مقروء عليها قرآن– هذا ليس استشفاء من أمراض طبية، مع كل الاحترام والتقدير لمن يفعلون هذا ليس له علاقة بالطب هو له علاقة بأمور روحانية واعتقادية ليس هذا مجال لمناقشتها، لكني أتكلم عن الأمور الطبية.. الغرب كانوا في هذا التوقيت في القرن الثامن وقت أن جاءت الحروب الصليبية كان يعتبر المرض –أي مرض– حتى الأوبئة من عقاب الله عز وجل وبالتالي لابد من الإذعان لعقاب الله لأن هذا يطهرك وبالتالي لا تتعالج، أقصى ما يمكن أن يحدث هو أن يحضر القسيس ويرش عليك الماء التي قرأ عليها وبعض الأمور التي يقومون بها مثل التي تُتداول في بعض الأفلام الغربية في عمليات علاج الحالات التي يتكلموا عليها كالمسكونة بالجن إلى آخره إما أن يسكنك جن أو عقاب من الرب فبالتالي لا يوجد علاج لأن هذا الأمر يطهرك حسب اعتقادهم.

عندما جاءت إحدى الأميرات أو ملكة من ملكات الغرب سكنت في بعض الممالك الصليبية في أثناء فترة الحروب الصليبية التي استقرت الأمور ولم يكن هناك حرب عانت من آلام في بطنها فاشتكت مرير الشكوى من هذا الألم الشديد الذي يعاودها فجاءها من يقول لها أن هناك عند العرب من يُخفف هذه الآلام فاستدعته فأحضروه –هذه هي كانت مساحة التداول– وهنا أريد أن أتحدث عن النقطة الرابعة التي سبق وأن ذكرت أن هناك بعض النقاط أريد أن أثيرها هي انتقال العلم كيف انتقل العلم من عند المسلمين والعرب إلى الحضارة الأوروبية أو إلى الغرب الأوروبي –وقتها لم تكن ظهرت أمريكا– هذا الأمر كان أحده إقامة الصليبيين في المشرق الإسلامي، الجانب الآخر كانت إسبانيا لأن الحدود الأخرى هي الغرب الأوروبي كفرنسا وبريطانيا وبعد ذلك منطقة ألمانيا وإيطاليا إلى آخره، هذه المساحات الغربية لم تكن تعرف الطب إلا بعض الطقوس لأن الكنيسة كانت مهيمنة والكنيسة كانت ترى أن هذه الأمراض كانت عقاب من الله وبالتالي كان الجميع على نفس الحال، لدرجة أن القساوسة كانوا يقولون لا تستحم لماذا؟ لأنك تتعبد وتفرز عرق أثناء العبادة فهذا عرق مقدس وبالتالي لا تستحم، ولذلك مسألة النظافة كانت لديهم فيها مشكلة، ولذلك مساحة العطور في فرنسا كان سببهم سوء الرائحة فكانوا يتداولون العطور بقوة ويبحثون عن أقوى أنواع العطر لتخفيف الرائحة الكريهة لأنهم لا يعرفون النظافة وإزالة الأوساخ عن أجسامهم، أنا لست متبحرًا في هذا لكنه متداولًا في الغرب الأوروبي وهذا جزء من الثقافة الأوروبية

والمعروف حتى اليوم في الثقافة الأوروبية لدرجة أن بعض الفنانين خرجوا وقالوا نحن لا نستحم إلا في حالة الحاجة.

هذا الأمر جعل أن هذه الملكة عندما جاء الطبيب واستطاع أن يعالجها ببعض الأعشاب الطبية وجدت أن هذا الأمر مستساغ فليس هناك مبرر للاستمرار في أن يتألم، وبالتالي بدأت تطلب من هذا الطبيب من أين أتيت بهذا فجاء لها بما طلبت، إلى أن وصل الأمر أنها طلبت منه أن يُعلّم بعض من حولها وصفاته الطبية لعلاج مثل هذه الحالات فبدأ من هذا الباب ينتقل إلى الغرب الأوروبي بعضًا من العلوم الطبية، ونُقل من ضمن المترجمات بعد أن كنا نترجم عنهم أصبحوا هم يترجمون بعض الكتب الطبية بالفعل وبدأ يُفتتح مدرسة لتدريس هذه العلوم الطبية داخل بعض الكنائس، لأنه لم تكن هناك مدارس خارج الكنائس وبدأوا في نقل بعض هذه العلوم إليهم مثل العلوم الطبية وغيرها.

وسنُفاجأ بأنه لدينا علماء المسلمين واحد من أشهر الجراحين، ليس فقط من أشهرهم في تاريخ الطب بل هو الذي استطاع صناعة الكثير من الأدوات الطبية مثل: الجفت والمشرط والمقصات الطبية وما يُمسك به العروق داخل الجسم أثناء العمليات الجراحية كل هذا وأكثر وضعه أو صنعه طبيب مسلم في الأندلس اسمه الزهراوي، كان الزهراوي عبقرية طبية قلّ نظيرها وله كتابات قليلة لكن في كتاباته وصف وصفًا ورسم هذه الأدوات الطبية والتي بدأت تنتقل إلى الغرب الأوروبي مع نقل كتابه في وقته إلى المدارس الطبية التي كانت أُنشئت في الغرب الأوروبي وأصبحت هذه الأدوات مستعملة إلى يومنا هذا بأشكال متطورة لكن كثير منها ما زال على حالته التي وضعها هو، الزهراوي احفظوا هذا الاسم جيدًا.

قَسَم أبوقراط هل تسمعون عنه؟، هذا القَسَم اخترعه أحد فلاسفة الإغريق ليكون دستور أخلاقي للطبيب، هذا الدستور الأخلاقي كان يتبعه الطبيب المسلم لأنه كان جزء من المعلم يبدأ ينقله للطبيب أن يكون في خدمة المريض كائنًا من كان هذا المريض وهذا ما جعل الطبيب المسلم يعالج الملكة الصليبية التي احتلت أرضه، وأنه على الطبيب أن يعالج كل مريض كائنًا من كان، وهذا ما جعل أحد خلفاء المسلمين أن يأمر واحد من أشهر الأطباء أن يضع كتابًا اسمه خُلُق الطبيب وهذا كتاب هو الذي كان العُمدة في أخلاقيات الطبيب الذي يجب أن يلتزم بها عندما يمارس مهنة الطب، من الأشياء التي اخترعها المسلمين –لكي نستوعب– خيوط الجراحة والتي كانت من أكبر المشاكل في أي عملية جراحية عندما كان يجريها حتى الإغريق والرومان الذين –كان الكُتاب أو من كتبوا في الطب بشكل علمي وجاء المسلمون بعد ذلك يكملون عليها– أن الخيوط كانت تتلوث وبالتالي كانت لديهم مشكلة كبيرة عندما

يُجري خياطة داخلية –الإنسان عنده جرح داخلي وتم الفتح وحتى لا يحدث نزيف يجب أن يخيط من الداخل ويغلق الجرح من الخارج ويلتئم، فيجب أن يفتح مرة أخرى لكي يزيل الخيط وإلا الجسم نفسه سيبدأ في تكوين صديد داخلي حول هذا الخيط لأنه جسم غريب– فبدأ الطبيب المسلم يكتشف الخيوط التي لا تحتاج إلى إعادة فتح فبدأوا يصنعونها من أمعاء الحيوانات وخاصةً أمعاء القطط فهذا الخيط الذي يُصنع من أمعاء الحيوانات لا يحتاج الطبيب للفتح مرة أخرى لكي يزيله لأنه يتواءم مع جسم الإنسان بسهولة والجسم يتعامل معه ويلتئم الجرح والخيط نفسه يذوب تلقائيًا بعد ذلك ولا يكون هناك حاجة لفتح الجرح مرة أخرى لإزالة الخيط، وكان يتم استعماله في الخياطة الداخلية أثناء العمليات الجراحية والخياطة الخارجية.

الأمر الثاني والأهم في هذا الإطار هي عمليات البنج، ما معنى عمليات البنج؟ مثلًا عندما تُجري جراحة كبيرة، مثلًا الزهراوي أجرى جراحات داخل الدماغ –كان وحيد عصره في هذا الإطار– أول من استطاع أن يصنع أو يجري عمليات جراحية داخل رأس الإنسان، الأطباء المسلمين لم يُجروا جراحات ليس فقط داخل الرأس بل في داخل العين، صمموا أدوات جراحية للجراحة داخل العين، وسنتكلم عن الحسن بن الهيثم والذي قام بصنع شيء متعلق بالطب، السائد في علوم البصريات في كثير من الأوقات أو إلى ما نُقل إلينا كثير من المؤلفات الإغريقية عند المسلمين، والمسلمين بدأوا يكتشفوا أن هذه المسائل تحتاج إلى اختبار وكان هناك شك عند بعض من كان يبحث في هذا الشأن عند الأطباء المسلمين إلى أن جاء الحسن بن الهيثم وحسم هذه المسألة ما هي؟ عملية النظر كان إلى عهد ما قبل الحسن بن الهيثم كانوا بدأوا يتشككون في مسألة أساسية هل العين ترى بنور يخرج منها ولا نور يصل لها، اليوم تقول بكل بساطة أن النور كان يصل لها لكن الأمور لم تكن سهلة بهذا الشكل، لماذا؟ لأنك لديك القدرة على الرؤية أثناء الظلام كيف ذلك؟ بضوء بسيط جدًا حتى ولو كان ضوء القمر أو بعض النجوم أي أن العين تتكيف مع الضوء الموجود، لم يكن أحد قد درس العين لدرجة أنه يعلم أن أقل درجة ضوء يمكن أن تتكيف مع عدسة العين خاصةً عندما تكون قد اعتادت على الظلام، لم يكن هناك إضاءة ليلية أو أنوار كهربائية أو غيره فبالتالي كانت العيون كانت تتلاءم مع درجات ظلام غير ما نحن عليه اليوم، وهذا ما يعرفه أصحاب الخبرة الذين عافاهم الله من كف البصر الذين تم علاجهم خصوصًا إذا مر عليهم فترة تقريبًا لمدة سنة فإنه يستطيع الرؤية في درجة من العتمة لا تستطيع أن تتخيل أنه من الممكن أن يرى فيها أحد، بمعنى أن تكون الغرفة شديدة الظلام –وذلك عن تجربة– يستطيع أن يرى في درجة عتمة أنت كشخص طبيعي لا تستطيع الرؤية فيها لكنه يستطيع الرؤية ويستطيع المشي، طبعًا

ليس بوضوح تام ولن يستطيع مثلًا قراءة كتاب في هذا الأمر لكن يستطيع التعامل مع ما حوله بدرجة عالية من الكفاءة.

المسألة بالتالي كانت عند الحسن بن الهيثم هو بدأ يدرك أن داخل العين هناك عدسة وداخل هذه العدسة توجد الشبكية وهذه الشبكية هي التي تنقل الصورة إلى العقل والعقل هو الذي يترجمها ويترجم هذا إلى الوعي، تركيبة العين هذه بدأ يرسمها بشكل واضح لأول مرة ويدرك ملامحها هو الحسن بن الهيثم احفظوا هذا الاسم جيدًا لأنه رجلٌ خطيرٌ جدًا لكن مشكلته أنه تواجد في زمن صعب، لذلك نقول أن الأمن والحرية من العناصر المهمة جدًا لتطور العلم.

الحسن بن الهيثم أصدر كتابه اسمه كتاب المناظر في فترة الدولة الفاطمية في مصر كانت على بدايات حكم الحاكم بأمر الله، وكان الحسن بن الهيثم استطاع أن يفعل هذا والحقيقة كان هناك شخص قريب منه كان الحسن بن الهيثم يطلب منه بعض الطلبات فكتب بعض ما كان من أمره مع الحسن وكان آخر تجارب للحسن بن الهيثم كان يدرس مسألة والتي تكلم عنها نيوتن وهي جاذبية الأرض – التفاحة التي سقطت على رأسه– فالحسن بن الهيثم بدأ يدرس قوة جاذبية الأرض للكتل المتساوية مع انحراف العنصر ثم بدأ يدرس الاختلاف إذا اختلفت كتلتين فكيف تكون المسألة بالنسبة للجاذبية فكان يأتي بحجر ويأتي بكتلة من الحديد الفارق واضح ما بين الكتلتين أن هذه كتلة حديد ضخمة وهذا حجر صغير وكان يطلق الاثنين إلى الأرض ويبدأ في قياس فرق الزمن وبدأ في كتابة وهذا ما كتبه فيما بعد لأنه كان يختبر مقولة لإخوان الصفا وهي مجموعة علمية تكلمت في أمور كثيرة جدًا مجموعة اسمها رسائل الرسائل لإخوان الصفا بعضها فيها أمور عقائدية فيها ارتباك لكن في أمور علمية دقيقة جدًا هم تكلموا على أن إذا سقط جسمان اختلفا في الكتلة يصلان إلى الأرض في نفس الوقت إن لم يكن هناك مقاومة أي أن الهواء لم يكن رافعًا لأحدهما عن الآخر، بمعنى إذا سقطت طائرة وسقط عصفور ولم يكن هناك ما يرفعهما كتيارات هوائية سيقعا في نفس الوقت في زمن واحد، هل هذا صحيح؟ علميًا هذا صحيح لكن الاختلاف يكون حول قوة مقاومة الهواء لهذه الكتل الساقطة وهذا ما كتبه إخوان الصفا وهو الذي حاول الحسن بن الهيثم أن يكتبه ولكن عندما كان يُجري هذه التجارب حدثت كارثة وهي أنه عُرف بالحكمة والعلم فأراد الحاكم بأمر الله أن يُوليه القضاء، هو كان على علم بالشريعة كبقية علماء المسلمين في العصور المختلفة لأنها كانت العلوم الأساسية التي يتلقونها جميعًا لكن الحسن بن الهيثم كان يعرف الحاكم بأمر الله جيدًا ويعلم جيدًا أنه سيوليه اليوم ويقضي عليه في اليوم التالي، فما كان منه إلا أنه ادعى الجنون لكي يتركه الحاكم بأمر الله ولكنه لم يتركه بل وضعه في مستشفى لكي تتم معالجته، لأن الحاكم بأمر الله لم يكن يترك أحدًا في شأنه، أكبر مثال أنه أنشأ دار كتب وأحضر العلماء وبعد أن بدأ

العلماء في الاستقرار وبعد ٦ شهور أمر جنوده بإغلاق دار الكتب على العلماء الموجودين فيها وإشعال النيران وكان هذا أحد تصرفاته الشهيرة.

فهذا هو الحسن بن الهيثم الذي كتب كتاب المناظر واكتشف تركيبة العين الحقيقية وأن العين تتلقى الضوء وبالتالي تكون الصورة من خلال درجة انعكاس الضوء على الأجسام، أن الضوء ينعكس على الأجسام إلى العين فتتكون صورة هذا الجسم وفقًا لحالة هذا الانعكاس وبالتالي عندما يحدث ظلام فلا ترى هذا الجسم وبالتالي لا يكون هناك صورة فتكون العتمة التي نراها، فبالتالي كانوا يتكلمون عن الضوء وكان أول كتاب يتكلم في هذا العلم بشكل منطقي وعلمي كان كتاب المناظر للحسن بن الهيثم في علم الضوء وانعكاس الضوء وتكوين الصورة داخل العدسة داخل العين وانتقالها بعد ذلك إلى الوعي الإنساني.

نعود إلى الطب، هذا الأمر جعل أن علماء المسلمين بدأوا يتعاملون مع العين على أن هناك عدسة أحيانًا تُعتم لذلك عرفوا عمليات المياه البيضاء وبدأوا في علاجها، وعمليات المياه البيضاء هي عبارة أن هناك عدسة أصبح فيها نوع من أنواع –هو ليس علاج كامل ولكن هو محاولة لعلاج المياه البيضاء نجحت في بعض الأوقات– يحدث نوع من أنواع المياه أو شيء من الدم يكون على عدسة العين الداخلية وهي ما تسمى بالمياه البيضاء الآن أو ارتشاح عبارة عن مياه تتسرب من الأوردة ومن الشرايين داخل العين فيحدث سحب لهذه المياه حتى تصفو العين وتستطيع أن ترى مرة أخرى، هذه العمليات تمت على يد المسلمين.

نتحدث عن البنج –أرجو ألا تنزعجوا– لأن علماء المسلمين اكتشفوا تأثير الأفيون والحشيش وعرفوا تأثيراتهم على العقل الإنساني أنه من الممكن تخدير الإنسان فبدأوا يستخدموها ويستخرجوا منهما بغليهما معًا مع بعض الأعشاب الأخرى ثم يقوم الطبيب بوضعها في قطعة من الإسفنج ويبدأ في وضعها بشكل خفيف على الفم والأنف لأنهم وجدوا أنها عندما تصل إلى الأغشية –أغشية التنفس– يبدأ الإنسان يذهب في غيبوبة لا يشعر من خلالها بالألم وبالتالي يستطيعوا إجراء الجراحة، وبعد ذلك لكي تتم عملية الإفاقة يبدأ الطبيب بإبعاد قطعة الإسفنج ويضع قطعة إسفنج أخرى فيها شيء من الخل عندما يستنشقها المريض تبدأ تزيل أثر السائل الذي سبق وهو سائل الأفيون والحشيش فيبدأ الإنسان في استعادة وعيه، هذا الأمر استخدموه لكي يستطيعوا إجراء الجراحات العميقة داخل الجسم الإنساني بدون آلام مبرحة، فبالتالي بالإضافة إلى عمليات التبريد لأنهم اكتشفوا عمليات التبريد والتي كانت محدودة إلى حدٍ ما وهو أن وضع العضو من الثلج يبدأ في فقدان قدر من الإحساس العصبي لديه، وكان يستخدمها

المسلمين في عمليات البتر، كانوا قبل إجراء عملية البتر كانوا يضعون العضو الذي سيتم بتره أو المنطقة التي تعلوه مباشرةً في القدم أو اليد أو خلافه أو الإصبع في ماء أو ثلج حتى يستطيع أن يقوم بعملية البتر دون إحداث ألم كبير للإنسان، لأن كانت الجراحة أو ما كان يُعرف قبل ذلك هي عمليات الكي بالنار وهذا ما بدأ علماء المسلمين يتجاوزوه تمامًا من خلال تطوير المعرفة الطبية والتي استطاعوا العمل عليها والتفوق فيها ونقلاه تدريجيًا عبر مؤلفاتهم كمؤلفات ابن النفيس في كتابه الشامل الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى والدورة الدموية الكبرى وفقًا لتحقيق قرأته منذ زمن أن ابن النفيس في كتابه الطبي الكبير اسمه الشامل وهو حوالي ٣٠ مجلد استطاع أن يصل إلى الدورة الدموية الصغرى والدورة الدموية الكبرى للإنسان وكيفية التعامل مع كلٍ منهما لكي تصح حياة الإنسان.

هذا بعضٌ من تاريخ العلوم عند المسلمين وهذه المدارس الطبية كانت تُمارَس خلال مؤسسات ستجد لها اسم معروف في التراث الإسلامي اسم بيمارستان –مكان العلاج أو المستشفى بالمصطلح المعاصر–.

قبل أن نختم أقول أنه كان بجانب العمليات الجراحية كان هناك الطب النفسي الجسمي، أول من تكلم عن أثر الحالة النفسية على جسم الإنسان كان الأطباء المسلمين وبدأوا يكتبوا كتابات عن أن حالة الإنسان النفسية تؤثر على أجزاء من جسمه مثل عمليات القرحة وتجلط الدم وهكذا، وأحيانًا على الإبصار وبدأوا يتكلمون على العلاج النفسي الموازي للعلاج الجسمي ولذلك كان هناك بيمارستانات أو مستشفى خاصة للعلاج النفسي وكان في القاهرة في مستشفى في وسط القاهرة لعلاج الحالات النفسية كانت مستشفى كبيرة واستمرت فترة من الزمن وكانوا يُعالِجون بأشكال مختلفة منها صوت خرير المياه ووجدوا أن هذا الأمر يجعل الإنسان يهدأ وتخرج منه الأعراض النفسية مثل الاكتئاب أو القلق أو أي شيء يعاني منه نفسيًا بالإضافة إلى بعض العلاجات الطبية للجسم الإنساني، ومن الأشياء التي يجب أن أقولها قبل الختام أن علاج النفس الإنسانية عند المسلمين أخذ طبيعة إنسانية بمعنى أنه كانت تتم زيارات اجتماعية للمريض النفسي لكي يتحسن نفسيًا وكانت المستشفيات النفسية تقام في وسط المدينة، وعندما جاء الغرب بحضارته إلينا أول مستشفى نفسي أقاموها لعلاج الأمراض النفسية والعصبية والتي كانت تسمى مستشفى المجانين أقاموها في الصحراء في القاهرة في صحراء منطقة العباسية أقاموها في إسطبلات الخيول وكانوا يربطون المرضى النفسيين بسرج الخيول وكان علاجهم بالضرب وبالجَلد والذي تطور فيما بعد وأصبح الصدمات الكهربائية، فكان هذا هو شكل العلاج الذي كانت تعتمده الحضارة الأوروبية حتى مطلع القرن العشرين في العلاج النفسي وهو أسلوب ربط الإنسان بحيث لا يستطيع الحركة ويُضرب كل يوم حتى ينهار جسمه كان هذا العلاج هو ما صدّروه لنا وأول مستشفى أقاموها

كانت في العباسية قبل أن تكون عامرة كانت صحراء فأقاموها في صحراء العباسية في إسطبل للخيول كان مخصصًا لأحد المعسكرات البريطانية وكان هذا في نهاية القرن التاسع عشر عبر اثنين واحد منهما طبيب بريطاني والآخر ذهب إلى بريطانيا ليتعلم علاج الأمراض النفسية فجاءوا إلى مصر وأسسوا هذه المستشفى.

كان هذا الفارق حتى مطلع القرن العشرين بين استيعاب الطبيب الغربي واستيعاب الطبيب المسلم أن هذه نفس إنسانية مريضة فيجب التعامل معها بشكل رفيق ولا بد من توفير الهدوء له والمنظر الذي ترتاح له العين والصوت الذي يذهب بما في النفس من كدر وما بين حضارة غربية كانت تُعالج، لأنها لم تكن تستوعب حتى استطاع الطب أن يتطور عندهم لمعرفة الإنسانية ثم عرفوا المعارف الإسلامية في وقت متأخر خاصةً ما يتعلق بأمور النفس الإنسانية لأنهم وضعوا ما يتعلقوا بالنفس الإنسانية عند المسلمين في نطاق ما يعرف باسم التصوف وعلوم السلوك الإنساني الخاصة بالمسلمين لم تدخل إلى النطاق الطبي إلا متأخرًا في العصر الحالي.

بهذا نختم هذا الجزء مستوعبين أن هذه هي الحضارة الإسلامية التي عمت الأرض في فترة من الفترات وأن هذه هي القيمة الإسلامية التي نُقلت إلى الغرب وصنعت حضارتهم وصنعت تقدمهم وصنعت ما هم عليه اليوم وهو ما نستورده اليوم منهم ونقول هذه حضارة الغرب المتفوقة التي ندين لها بما يوجد في مستشفياتنا وفي معاملنا وفي حياتنا من تقدم والفارق ما بين ما يعيشه المسلم عندما يذهب إليهم وبين ما يعيشه من تخلف لأننا فقدنا هويتنا وبالتالي فقدنا علومنا وفقدنا القدرة على أن نتمثل لقيم الإسلام في صناعة هذه الحياة الطيبة التي كانت وما زالت من قيم الإسلام الأساسية وهي صناعة الحياة الطيبة لكل مسلم، وتبعات ما جاءنا من استعمارٍ غربي.

نعيد التأكيد على أن هناك خصائص للتاريخ العلمي للحضارة الإسلامية أنه لا يرتبط ونحن نسرده بترتيب زمني لكن نحن نتكلم عن تاريخ العلوم في الأمة الإسلامية في العالم الإسلامي وبالتالي لا نرتبط بزمن ولا نرتبط بأرض، لن نقول أن هذا ظهر في عصر الدولة العباسية في منطقة مصر أو في منطقة تونس وهكذا ولكن نحن نتكلم عن ظهور الاكتشافات العلمية والمخترعات التي ظهرت في الحضارة الإسلامية بعيدًا عن مسألة الترتيب الزمني أو البعد المكاني فنحن نرتبط بالموضوع في ذا العرض أكثر منا ارتباطًا بالزمن الذي ظهر فيه هذا الاكتشاف أو ذاك.

المسألة الثانية أن هذا الأمر مرتبط في حركته بحالة الاستقرار فالإنتاج العلمي يحتاج إلى استقرار كما نقول استقرار أمني أو كما هو مشهور الآن بالاستقرار السياسي إلى حدٍ ما والمسألة الثانية

هو نوعًا ما القدرة الاقتصادية للمكان، أي لا بد أن يكون هناك إنفاق على هذا الإنتاج العلمي لأن العالم يكون متفرغ لأدائه العلمي فيحتاج لمن ينفق عليه وهذا الأمر يستتبع وجود نوع من القدرة الاقتصادية في هذا المكان سواء يكون الإنفاق من قبل الأوقاف أو العطاء المستمر من جهات تتبع الدولة أو لا تتبع الدولة.

المسألة الأخيرة التي يجب أن ننتبه إليها أن الأداء الحضاري في الحضارة الإسلامية أو الأداء العلمي في الحضارة الإسلامية سواء كانت علوم شرعية تنتمي إلى طائفة العلوم الخاصة بالمسلمين وهي التي تكلمنا من فقه وتفسير وغيره أو الأداء العلمي بمعنى الطب والهندسة والرياضيات وغير ذلك من العلوم التطبيقية أن هذا الأداء كان في عمومه بعيدًا عن الصراع السياسي وإن كانت العلوم الشرعية تتداخل مع هذا الصراع السياسي بشكلٍ أو آخر في بعض الأوقات ولكن لم يكن هذا ديدن العلوم الشرعية بمعنى أن الأداء العلمي كان مستقل عن السلطة السياسية سواء من ناحية حالة التعلم أو من ناحية حالة الإنجاز بمعنى المؤلفات العلمية، المؤلفات العلمية لا تُنجز لصالح الحكومة ولا لصالح سلطان ولا من أجل إرضاء أحد، الأداء العلمي كان أداءً يخدم إما العلم ذاته أو يخدم الناس بشكلٍ كبير وكان هذا السمت الخاص بالعلوم التطبيقية، كانت خدمة للناس أما العلوم الشرعية بعضها خدمة للعلم ذاته بمعنى أن من كان يؤدي كان يؤدي أحيانًا من خلال افتراضات علمية وكان هذا مشهور في مذهب الأحناف بشكل كبير بمعنى أنه يضع فرضية ويبدأ في رؤية الأحكام الشرعية المترتبة على هذه الفرضية والحقيقة أن هذا منهج أصبح اليوم يؤصل من خلال ما يُعرف بعلوم المستقبل –بمعنى إذا حدث في المستقبل كذا فماذا سيكون من موقفنا أو كذا– وهذا ما يُعرف اليوم في العلوم السياسية في دراسة الأزمات بمعنى لو حدثت كارثة بالشكل الفلاني كيف يكون التعامل، هذا جزء من العقلية التي تتحرك خاصةً عند مذهب الأحناف.

نخرج من ذلك بأن الإطار الذين نتحرك فيه هو إطار ما تكلمنا عنه في المحاضرة السابقة وهو الإطار العلمي التطبيقي يتعلق بشكل أساسي بما يخدم الناس، بمعنى ما هو الشيء الذي يُسهل حياة الناس وما الذي يحفظ للناس أسلوب معيشتهم بشكل أكثر يسرًا وأكثر جمالًا وأكثر سهولة، وديدن الأحكام الفقهية مرتبط.

وهنا سنتكلم اليوم أنه كنا في المرة الماضية تكلمنا عن الطب وكيف كانت الإنجازات الطبية تخدم تطوير العمليات العلاجية وأن هذا التطوير كان لصالح المرضى بمعنى أنه عندما عَمِل الأطباء على استخراج خيوط خياطة الجروح سواء داخل الجسم أو خارجه من أمعاء الحيوانات وخاصةً أمعاء

القطط كان هذا الأمر تحسبًا أو محاولة لعلاج مشكلة تحدث عند الجراحات أنهم يضطرون لفتح الجرح أو يحافظوا على الجرح مفتوحًا لكي يستطيعوا إزالة الخيط حتى لا تحدث أضرار للجسم من رفض الجسم وما يتبع ذلك من شؤون قد تؤدي إلى تكون صديد أو أورام إلى آخر ذلك فكانوا يضطرون إلى فتح ليزيلوا الخيط ثم يعودوا لخياطة الجرح الخارجي وهكذا، أما الخيط الجديد الذي صنع من مواد عضوية من أمعاء الحيوانات أصبح لا يحتاج لهذا الأمر وكان هذا من مصلحة المريض بشكل أساسي.

وتكلمنا على أن الأطباء المسلمين تكلموا عن الأمراض النفس جسمية وكيف أن الصدمات النفسية من الممكن أن تؤثر على الحالة الجسدية وأن هذا كان جزء من العلاج، أنهم كانوا يعالجون الحالة النفسية للمريض مع علاج الحالة الجسدية له، ولذلك كان داخل المستشفيات وكان المعروف بالبيمارستان المنصوري في القاهرة أنه كان هناك مكان مخصص لبعض الحالات كانوا يصنعوا لهم مثل النوافير أو شلال صناعي، لأن صوت خرير المياه كان يهدئ النفوس وكانت المستشفيات توضع بجوار الحدائق أو الخضرة وكانوا يُوضعون أمام هذه المناظر التي تساعد النفس على الهدوء لكي تساعدهم على الشفاء، فكان بجوار تمويل عمليات تعليم الأطباء وعمليات بناء المستشفيات كان أيضًا الإنفاق على المرضى وكان ذلك من خلال منظومة الوقف، نبدأ في شرح مسألة الوقف لأنها ستتعلق بمسائل في العمارة الإسلامية سوف يكون الحديث عنها لاحقًا.

منظومة الوقف الإسلامي بدأت من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أول وقف كما يُتداول في كتب الفقه كان وقف عمر بن الخطاب وأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يحبس أصلًا من الأصول هذا الأصل يُدر ربحًا يعني مثلًا أرض زراعية عندما يخرج محصولها لا يأخذه صاحب هذه الأرض الزراعية ولكن أوقفها لصالح عمل من أعمال البر، هذا العمل إما أن يكون صدقة على الفقراء المحتاجين من قبل صاحب هذه الأرض أو يكون إنفاقًا على أحد أوجه العلم، وانتشر هذا جدًا فيما بعد في العصور الإسلامية اللاحقة أن أحد الناس يحبس أرضًا أو عقارًا يدر ربحًا فيُحفظ هذا الأصل في حياته أو بعد وفاته ويُنفق منه على هذا الباب من أبواب الخير الذي يضع له هو نظام ثم يُحدد أو يُعين ناظرًا للوقف هو الذي ينظر في شؤون الوقف يحافظ عليه ويعمل على استثماره وزيادة غلته أو زيادة العائد منه لكي يُنفق على هذا الباب من أبواب الخير وهذا ما يطلق عليه اسم الصدقة الجارية التي يُحبس أصلها ثم يكون العائد منها يُنفق على أحد أوجه البر من قراءة قراء أو رعاية طلاب أو رعاية محتاجين أو مرضى إلى آخر هذه الأوجه من أوجه البر.

دخل في هذا الإطار أن الخلفاء بدأوا في عمل أوقاف وكذلك من عُرفوا بالمصطلح السياسي الإسلامي بالسلاطين، أيضًا بدأوا في عمل ما يُعرف باسم الأوقاف الملوكية أو أوقاف السلاطين، كأن يوقف السلطان منصور بن قلاوون أوقافًا معتبرة من أراضي زراعية وعقارات، عقارات بمعنى محلات مؤجرة ويقوم بتحصيل إيجارها وهذا الإيجار يُنفق على المستشفى، المستشفى في المصطلح الإسلامي اسمها بيمارستان –مكان الاستشفاء باللغة الفارسية– هذا البيمارستان كان يُلحق به مدرسة طب، هذه المدرسة كان من فيها أطباء يشرفون على مجموعة من الطلاب وفي نفس الوقت مكان لاستشفاء وعلاج المجتمع المحيط من المجتمع الإسلامي، وبالتالي أصبح هناك منظومة اجتماعية تتدخل السلطة فيها بأنها توجه مزيدًا من الدعم للجانب الاجتماعي لكن لا تتدخل في إدارتها تمامًا، بمعنى أنه لا توجد وزارة صحة بل يوجد ناظر وقف يتم تعيينه ويكون إما قاضيًا أو يكون شخصًا معتبرًا في المجتمع له مكانته يقوم على رعاية هذا الوقف والإشراف على الأوجه التي حددها من صنع هذا الوقف أو من كان صاحب هذا الوقف، هذه منظومة اجتماعية صرفة لا تدخل للسلطة فيها، التدخل الوحيد يكون عملية التوثيق لهذا الوقف، بمعنى أن يأتي شخص يكتب وثيقة ويضعها في المحكمة أو عند القاضي بحيث أن بعد وفاته لا يستولي الورثة على هذا العقار أو هذه الممتلكات، وتكون بمثابة شيء محصل من الضرائب من المصادرة من تغول المجتمع المحيط لأنها تنفق على أحد أوجه البر المعتبرة داخل المجتمع، سواء هذا الأمر دخل إلى إطار عمليات الاستشفاء ودراسة الطب وتنظيم المسائل العلاجية داخل هذه البيمارستانات التي كانت تنتشر في المدن والدول الإسلامية بمختلف الأصقاع، كانت هذه هي مدرسة الطب.

شيء آخر في المنظومة الإسلامية، كان هناك دخول للدول مثل دول فارس والدول التي كانت تحت حكم الرومان كان هناك نظام اسمه نظام السخرة هو عاد في مرحلة لاحقة لكن نحن نتكلم عن ساعة الدخول الإسلامي لهذه المناطق كان هناك نظام السخرة وهو أنه يجعل الناس تعمل بدون أجر لصالح الدولة أو لصالح أمير وكان هذا جزء من منظومة استمرت في أوروبا اسمها المنظومة الإقطاعية لن ندخل في تفاصيل هذه المنظومة التي كانت تسمى أقنان الأرض وهي عبارة عن إقطاعي يملك الأرض والبشر الذين يعملون عليها، يعملون ويأكل إنتاجهم وليست لهم أجرة لديه، كانت هذه المنظومة تجعل الناس تعمل لحساب الدولة أو لحساب صاحب الأرض دون أن يكون لهم هم شيء، ولما دخل النظام الإسلامي تغير الوضع أنه جعل لمن يعمل أجر، وكان التوجيه النبوي بأن يعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه وما كان من أقوال كثيرة في الحفاظ على حقوق العاملين والعمال في كل عمل، هذا الأمر جعل إلغاء نظام السخرة، جعل أن في أعمال كان هؤلاء المسخرين وهؤلاء العمالة والتي كانت تعمل

بأعداد ضخمة، فكان بالتالي تقوم بكل ما يريدونه، أما في المنظومة الإسلامية لكي تجعلهم يعملون يجب أن تخصص لهم أجر وكان يجب أن يتوافق وكانت أحيانًا هناك أعمال شديدة الصعوبة سواء أعمال بناء أو غيره، فبدأ علماء المسلمين يوجدوا السبل لإحداث أعمال لم تعد من السهل أن تحضر لها عمالة، مثل ماذا؟ مثل نقل الصخور من الجبل إلى المكان الذي يُراد أن يبنى فبدأوا في اختراع اختراعات وهي التي عُرفت والتي نسميها اليوم علم الميكانيكا، سموه عند المسلمين اسم لطيف اسمه علم الحيل، كيف تصنع حيلة بحيث تقوم بهذا العمل بأقل جهد وأكثر كفاءة فبدأوا في عمل ما يسمى بالروافع، كانت العمالة تقوم الحجارة في مكان لكن عملية نقل هذا الحجر من مكان إلى مكان آخر أو رفعه من مكانه لأنها كانت صخور كبيرة يُراد نقلها أو عدد ضخم من الصخور فتوضع في إطار صندوق أو شبكة أو شيء من هذا القبيل وترفع من المكان، كان هذا أحد الاستخدامات التي سُميت حيل أنها يبتكر حيلة لتسهيل عملية رفع هذا الثِقل لأنه ليس لديه العمالة التي يدفع لها أجر يكفيها فبدأوا يستخدموا هذه الأساليب وبدأ المهندسين المسلمين أن يدخلوا إلى هذا المسار كيف له أن يحل المشكلة لأنها مشكلة حياتية أصبح لها حل علمي.

سأصف لكم وصف لطيف لآلة من الآلات التي ورد ذكرها وكانت من الأشياء اللطيفة التي لابد أن ندركها أو نسمع عنها لكن ليس لدينا تفاصيلها، هذه القصة حدثت في مطلع القرن التاسع الميلادي في القرن الثالث الهجري أو أواخر القرن الثاني الهجري في عهد هارون الرشيد وهي كان هناك ملك في وسط فرنسا وكان يملك فرنسا وإيطاليا هو شارلمان أو ما يطلق عليه بشارل الكبير أو العظيم، هذا الملك كان من القوة والسطوة بحيث أنه لم يعد طامعًا في غزو العالم الإسلامي بل جعل الوضع مستقرًا لديه ومنع كثير من الهجمات التي كانت تنادي بالهجوم على المشرق الإسلامي، ودخل في صداقة مع الخليفة الذي كان في زمنه هو هارون الرشيد وكان هارون الرشيد ذو عقلية بخلاف ما كان أو يشاع عنه أو من يسيئوا له في قصص ألف ليلة وليلة كانوا يقولون على حكمه كانوا يعيش قصة ألف ليلة وليلة في الحقيقة كالنساء والخمر والسهر إلى غير ذلك، هارون الرشيد لم يكن ينام كل ليلة قبل أن يسجد لله مئة سجدة يعني ٢٥ ركعة كل ليلة، نتخيل الفارق بين ما كان عليه حال الرجل وبين ما كان يشاع عنه، هارون الرشيد أرسل بهدية من مخترعات عصره وكانت هذه الهدية عبارة عن ساعة، هذه الساعة صنعها أحد علماء المسلمين –سنتكلم عن علماء المسلمين في الهندسة فيما بعد– هذه الساعة كانت تتحرك بالقوة المائية بعد ذلك كانت هناك ساعة إسلامية أيضًا تتحرك بالقوة الميكانيكية قبل أن يطوروا القوة بحيث أنها تكون قوة ميكانيكية ليست قوة مائية، كانت تسكب الماء فتتحرك العجلة بشكل منتظم فكان شكل الهدية بالنسبة لشارلمان والتي كانت ضخمة جدًا لأنها كانت عدة أمتار في عدة أمتار، فكان وصفها كالآتي: عبارة عن ارتفاع عدة أمتار في عدة أمتار وعند تمام كل ساعة يسقط منها عدد من

الكرات المعدنية، كانت تدور بشكل منتظم بحيث أنها عند انتهاء كل ساعة وكان اليوم مقسمًا إلى ٢٤ ساعة، كانت تسقط عددًا من الكرات المعدنية في إثر بعضها بعدد الساعات فوق قاعدة نحاسية ضخمة فيُسمع لها رنين يشبه الموسيقى يُسمع دويه في أنحاء المكان وفي نفس الوقت يُفتح باب من الأبواب الإثنى عشر المؤدية إلى داخل الساعة ويخرج منها فارس يدور حول الساعة ثم يعود ويدخل من هذا الباب مرة أخرى، عندما تصل الساعة إلى الثانية عشر يُفتح اثني عشر بابًا ويخرج اثني عشر فارسًا دفعة واحدة ويدورون دورة كاملة حول هذه الساعة ويدخلون من الأبواب الاثني عشر التي فتحت فيدخلون إلى الخلف مرة ثانية وهكذا دون توقف لأنها تعمل بقوة الماء الداخلي الذي يتحرك داخل الساعة نفسها، هذا الوصف اتفقت عليه المراجع العربية والأجنبية الذين كانوا مواكبين هم من وصفوا هذا الوصف، بالنسبة لهم الرهبان قالوا أنه ساكنها جن وقالوا أن هذا كمين مثل قصة حصان طروادة اعتقدوا أن هؤلاء الفرسان ويهجموا عليهم، فما كان منهم إلا أن اجتمعوا وتربصوا بالاثني عشر فارسًا الساعة ١٢ وهجموا عليهم فكسروهم ودخلوا لكي يقتلوا الجن بداخل الساعة فكسروا الساعة من الداخل ولم يجدوا شيئًا ولم ينالوا من الأمر سوى إفساد الساعة وكان عقابهم شديد من الملك شارلمان الذي أفسدوا هذه الهدية العجيبة التي قُدمت له.

المسألة بالتالي نحن في إطار أننا نتعامل مع علم مهم جدًا أن أقرأ لكم عبارة ابن خلدون حول هذا العلم فيقول في تعريفه لعلم الهندسة: "هذا العلم هو النظر في المقادير إما المتصلة كالخط والسطح والجسم وإما المنفصلة كالأعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان –هذا كلام ابن خلدون– في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية –يعني عملية أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان– وأن كل مثلث فزواياه مثل قائمتيه مثل أن كل خطين متقاطعين في الزاويتين متقابلتان منهما متساويتان –كل هذا درسناه في علم الهندسة في الصف الأول والثاني الإعدادي– ففي النهاية يتكلم أن هذا علم –أنا أريد الوصول إلى كلامه حول– من جملة منافعها –علم الهندسة– العلاج عن الجهل المركب لما أنها علوم يقينية لا مدخل فيها للوهم فيعتاد الذهن على تسخير الوهم والجهل المركب ليس إلا من غلبة الوهم على العقل وبالتالي "واعلم أن الهندسة –هذا كلام ابن خلدون– تفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره لأن براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها على الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المنهج أي الطريق السوي، وأنه كان يقال أن على باب أفلاطون من لم يكن مهندسًا فلا يدخل منزلنا وكان شيوخنا –هذا كلام ابن خلدون– رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابونة للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينفيه من الأوصار والأرداد –القاذورات التي تعلق به– إنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه"،

وبالتالي كان ينظر علماء المسلمين من أمثال ابن خلدون وغيره إلى علم الهندسة أنه علم ينظم العقل ويبعده عن الأوهام والكلام الذي لا طائل من ورائه.

نحن طبعًا نتكلم عن علم الهندسة ليس أن المسلمين اخترعوه بل هم نقلوه ككتاب إقليدس وغيره من الكتب القديمة ولكن علماء المسلمين في الحقيقة أضافوا إضافات خطيرة جدًا في علم الهندسة، ومن المهندسين المشهورين على سبيل المثال هناك أسرة اسمها بنو موسى بن شاكر، كانوا ثلاثة من الإخوة أحمد ومحمد والحسن والحقيقة كانوا متخصصين في علوم الرياضيات والفلك والهندسة وقاموا بعمل كتاب اسمه الحيل النافعة وصفوا فيه أكثر من مئة أسلوب أو جهاز بشكل دقيق جدًا لدرجة أن ويل ديورانت في كتاب قصة الحضارة يتكلم عنه أن هذا يُعد أبرع كتاب في هذا العلم، وأن من خلال الرسوم التفصيلية بدأوا يتكلمون عن عمليات الروافع وتسهيل عمليات النقل للأثقال الكبيرة بحيث أنها تتحول إلى أحمال خفيفة ووصفوا مئة حالة من حالات الروافع التي تسهل عمليات نقل الأثقال وضبط الأقيسة وغير ذلك، كان هذا واحدًا من الكتب التي تكلمت في هذا العلم.

عندنا أيضًا ثابت بن قُرة كان عراقيًا وكان على غير ملة المسلمين ونتاج ممارسته لبعض هذه الأنشطة العلمية طُرد من ديانته ودخل في علوم الإسلام وصاحب أولاد شاكر وبدأ يساهم في علم الهندسة لأنه وجد محمد –أحد أولاد شاكر– وجد أن له عقلية رياضية فتشاركا معًا وبدأ هذا الرجل يُنتج كثير من الكتابات الإسلامية وله مؤلفات جيدة مثل كتاب في الشكل الملقب بالقطاع وفي مساحة الأشكال المسطحة والمجسمة وفي قطوع الأسطوانة وتبسيطها، كان له كتابات في العلوم الهندسية على نفس خطى أولاد شاكر.

جاء بعده أحمد بن خلف المرادي وكان في الحقيقة يتكلم في مسائل في غاية الأهمية بالنسبة لحياة الناس بمعنى يتكلم عن مسألة رفع المياه وتنظيم عمليات كيف ترفع الماء من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى، سنتكلم بعد قليل عن عالم آخر غير أحمد بن خلف المرادي كان موجودًا في الأندلس واستطاع أن يطور الساعة المائية إلى ساعة ميكانيكية ويقدم أشكال متطورة من عمليات رفع الأحمال وعمليات رفع المياه.

لدينا أيضًا عبقري زمانه هو بديع الزمان الجزري، نحن نرى في كل مكان الساقية في الأرياف والبقرة تدور والساقية ترفع المياه وتروي الأرض، لم يفكر أحد من أين جاءت فكرة الساقية، من ابتكر فكرة الساقية هو بديع الزمان وهو من بدأ يتكلم عن عمليات رفع المياه من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى من خلال مجموعة تروس خشبية أو معدنية بحيث أن تكون عملية مستمرة في عمليات رفع سواء

من النهر الأدنى إلى الأرض الأعلى أو من الآبار، لذلك طور ليس فقط عملية ري الأرض بل بدأ في عمل شيء جديد كان بداية المضخات الحديثة والتي تسمى مكابس المياه، في العصر الحديث كل من يحتاج مثلًا لموتور مياه يتم تركيب سكس بلف حتى لا تعود المياه مرة أخرى، هذا الرجل هو من اخترعه، ابتكر أيضًا المضخات الذاتية بحيث أن الحركة الخطية أن المياه تبدأ في ملء المكان ويكون هناك مكبس لدفع هذا الماء داخل أنبوب ليرفعه إلى أعلى ويتم توزيعه بعد ذلك في صهاريج أو في أنابيب أخرى، وفي نفس الوقت هذه المياه يتم كبسها في مكبس آخر حتى لا تنقطع المياه، هذا المكبس يعمل على أن يمتلئ فما أن يفرغ هذا من دفع الماء الذي بداخله وينسحب لكي يملأ فيبدأ المكبس الآخر يدفع المياه لنفس الخط من الماء، ووراء هذا المكبس صمام يمنع رجوع الماء، هذا الصمام هو من اخترعه لكي يندفع هذا الماء للأمام ولا يعود للخلف من خلال أنه يحول مسار الماء من خلال السواقي التي كانت ترفع الماء إلى هذه المكابس.

الاختراع الثاني أنه اخترع كيف نحول الحركة الخطية، هناك شيء نُحركه يعطينا حركة خطية فكيف نحولها إلى حركة دائرية وكان هذا أحد الأشياء الأساسية في كل المضخات الحديثة، كيف أنه يصنع مجموعة من التروس تحول الحركة الخطية إلى دائرية لكي تكون عملية رفع المياه إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل إذا أردنا.

كانت هذه بداية نقلة في عمليات رفع المياه والمضخات والتي استمر العمل –ونحن نقول أن العلم على مسار التاريخ يتطور بغض النظر عن الحضارة التي تحمله سواء كانت حضارة توحيدية أو حضارة كافرة ليس لها علاقة، هذه مسائل علمية من يأخذ بأسبابها فهو يتولى شأنها ويُعرف بين العالمين بها، ولذلك حتى مؤرخي العلوم الغربيين يعترفون بفضل هؤلاء العلماء في أداؤهم وما أنجزوه ولذلك تكلمنا عن أن هناك مجموعة علمية الآن تعمل على إعادة نسبة فضل ما تم اكتشافه ونسبه الغربيون لأنفسهم لكي يعودوا به إلى أصحابه الحقيقيين من علماء المسلمين وصلوا إلى حوالي عدد ضخم، عدة عشرات من الآلاف وما زالوا يعملون على أكثر من ربع مليون من الاكتشافات العلمية التي ادعى الغرب أنه من اكتشفها وهي في حقيقتها من اكتشاف علماء المسلمين.

في هذا الإطار نبدأ في الانتقال إلى إطار آخر داخل الهندسة ولكن هندسة البناء، وهذا تمهيدًا لكلامنا على الجزء الأخير في التاريخ الذي نتكلم عنه وهو العمران، العمران بمعنى عمليات البناء، علم الهندسة كما تطور في علم الحيل يوجد لدينا تطور داخل عمليات البناء نفسها، بمعنى أن هندسة البناء أصبح لدينا أسلوب خاص في هندسة البناء، ولدينا أيضًا هناك تقليد داخل الأبنية أن المهندس بعد أن

ينتهي يصنع لوحة عليها آية من آيات الله عز وجل التي تحض على العمران ويكتب أن هذا البناء تم بمعرفة فلان، وفلان هذا أحيانًا لا يكون مسلمًا، على سبيل المثال أحمد بن طولون وكان كما تكلمنا في التاريخ السياسي أول من استقل بإحدى الولايات وهي مصر عن الخلافة العباسية وكانت بداية بادرة تطورت بعد ذلك وانتشرت وأصبحت سمة للتاريخ العباسي الأخير وهي استقلال الولايات عن التبعية الاسمية ولكن هي في الحقيقة استقلال عن الخلافة بشكل كبير.

أحمد بن طولون أراد أن –قام ببناء مدينة وسنتكلم عن المدن الإسلامية حالًا– يبني مسجدًا وأراد أن يكون هذا البناء مميزًا عن كل ما سبقه من أبنية فيبني سطحًا بلا أعمدة أي يريد بناء سطح واسع جدًا يكون بهو المسجد ولا يكون فيه أعمدة تتقاطعه فهو يريد بهوًا مفتوحًا، وكان من المهندسين كان هناك مهندس غير مسلم ولص –بنى له بناء سابق وسرق في ميزانيته فسجنه– وعندما كان هذا المهندس في السجن سمع على أن أحمد بن طولون يسأل المهندسين المحيطين به وخبراء البناء عن كيف يمكن بناء بهو بلا أعمدة فقالوا له أنه وفقًا لخبراتنا لابد من أن يكون هناك أعمدة حاملة للسطح حتى لو تباعدت قليلًا لكن يتوجب أن تكون في وسطه ولا يصلح أن يكون هذا البهو بهذا الشكل وبهذه المساحة التي أرادها أحمد بن طولون –مسجد أحمد بن طولون إن لم يكن أكبر فهو واحد من أكبر المساجد الموجودة في القاهرة أو في مصر كلها في العصر المملوكي والعثماني وليس في مصر الحديثة (أصبح هناك سباق على اتساع المساجد مع قلة عدد المصلين)– المسألة بالتالي وصل خبر هذا الطلب إلى هذا المهندس في سجنه فأرسل رسالة من داخل سجنه فقال: مطلبك لن يتحقق إلا بمثلي –بمعنى عبقرية هندسية مثلي– فما كان من أحمد بن طولون عندما وصلته الرسالة إلا أن أرسل في طلب هذا الرجل فقال له: أتستطيع أن تفعل ذلك؟ قال: أريد الأمان من مولاي حتى أفعل –يقصد العفو– فقال لك ذلك فبدأ يضع رسمًا تخطيطيًا ونفذ فيه منظومة بناء كانت نقلة في حالة العمران أو في حالة الهندسة البنائية في مصر في هذا الوقت.

المسألة بالتالي أنه كان هناك نوع من التطوير دائمًا في الأشكال الهندسية بحيث تشمل أمرين، أن تتفق مع الروح أو المقاصد الإسلامية والإتقان والناحية الثالثة الجمال، في الحقيقة الجمال في العمارة الإسلامية مقصد من المقاصد الأساسية داخل هذا العلم أو داخل هذا المفهوم، لابد لنا ونحن نتكلم عن العمران الإسلامي أن نقول أن العمران الإسلامي له أكثر من شكل أو تصنيف لكي نتكلم عنه، لدينا في بناء المدن وفي تهيئة المدن، لا نريد إرباككم في الكلام، ما معنى تهيئة المدن؟ يعني نأتي على مدينة قديمة وتعطيها سمت إسلامي أو تبني مدينة جديدة جدًا من البداية، لدينا نموذجين على مستوى الحضارة الإسلامية: النموذج الأول: هو ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة كانت يثرب

معروفة وكانت بيوت عادية والنموذج الثاني: بيت الله الحرام وحوله الذي ما نعرفه من عمران كان منتشرًا في مكة قبل الإسلام، لكن النموذج الذي صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بدأ ببناء المسجد عندما وصل المدينة وقال لهم اتركوها فإنها مأمورة يقصد ناقته وعندما جلست في مكان قال هذا هو مكان المسجد وبدأوا في بناء المسجد وبجواره كان غرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثابة بيت رسول الله وبيت الحاكم وبالتالي أصبح النموذج هو تهيئة المدينة لمنظومة جديدة من التفكير وهو أن قلب المدينة هو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتالي هي إعادة تهيئة للمدينة القديمة وهو أن يبدأ في تحريك المنظومة إلى منظومة جديدة أنه هناك قلب للمدينة هو الذي يجتمع فيه الناس وأصبح اسمه المسجد الجامع فكان أحد أساسيات تهيئة المدن القديمة لكي تكون مدينة إسلامية.

المدن الجديدة من البداية يوضع هذا الأمر في نظر من يخطط المدينة نفسها، أول مدينة خططها المسلمين كانت في عهد عمر بن الخطاب كانت مدينة الكوفة وبعدها كانت مدينة البصرة وبعدها كانت مدينة واسط وهكذا ومدينة الفسطاط في مصر إلى آخره، هذه مدن أنشئت أساسًا للحضارة الإسلامية، طبعًا الكوفة اشتُهرت لأن سيدنا علي بن أبي طالب نقل العاصمة من المدينة التي كان فيها ما فيها بعد مقتل سيدنا عثمان فنقل عاصمة دولته إلى الكوفة في العراق، المنظومة الإسلامية بدأت في وضع تخطيط وأول ما خططت فهو المسجد في قلب المدينة ثم بعد ذلك تترك مساحة وتبدأ تخطط المساحات التي تخصص للسكن، وكان منظومة السكن منظومة قبائلية بمعنى أن قبيلة كذا في المكان الفلاني وقبيلة كذا في هذا المكان وهكذا أي تكون بجوار بعضها، واصطنعوا غير سور المدينة اصطنعوا لهذه الأماكن أبواب، هذا الباب يُقفل بعد غروب الشمس أو مع غروب الشمس ويُفتح مع الفجر أو بعد صلاة الفجر وبالتالي أصبح هناك منظومة ما يسمى بمسجد الصلوات أو المصلى داخل هذه المناطق وهناك المسجد الجامع في قلب المدينة، هذه العمارة السكنية أو الشكل العام للمدينة الإسلامية، بدأت تتطور المسألة أنه يكون مع بناء عواصم جديدة مثل بغداد عندما سقطت الخلافة الأموية نقل العباسيين عاصمة الخلافة إلى مناطق نفوذهم أو التي يشعرون فيها بقوتهم مثل العراق وأسسوا وظلوا في الكوفة فترة ثم نقلوا العاصمة إلى عاصمة يبنونها وهي بغداد وأسسوها على المنظومة الإسلامية منذ البدء فكانت البداية هي نظام تخطيط وفقًا للحضارة الإسلامية أو منظور الحضارة الإسلامية.

ولكي نكون واعين أن الفقه الإسلامي لم يكن بعيدًا عن هذه المسألة بل كان شديد القرب والمخطط الأساسي لمنظومة المدينة الإسلامية، وقبل أن نُسهب في الكلام على مسألة الهندسة المعمارية والمدينة الإسلامية والحضارة الإسلامية لابد أن نشير إلى أن منظومة البناء في الحضارة الإسلامية تتعدد بمعنى أنه لدينا منظومة بناء عسكري؟ ما معنى عسكري؟ يعني هناك أبنية عسكرية وهي ما يعرف باسم

القلاع مثل قلعة صلاح الدين، وقايتباي في الإسكندرية وقلعة عدلون في الأردن إلى آخره، وهذه القلاع قلاع عسكرية، منظومة بناء عسكري، وجزء من منظومات البناء العسكري ما يسمى بالمرابط حتى أنه لدينا دولة أُسست في المغرب اسمها دولة المرابطين، هذه المرابط أماكن عسكرية سنتكلم عنها، وكانت لها أكثر من شكل بمعنى هناك مرابط برية ومرابط بحرية أي تكون قريبة من السواحل، وهذه الأماكن عسكرية لكن سكانها لم يكونوا أصلًا عسكريين لكن أغلبهم من الصوفية والزهاد، لماذا؟ لأنه ينقطع فيها بمفرده لا يذهب إليها بزوجته أو أولاده هذا إن كان متزوجًا في الأصل، وبالتالي أصبحت مطلبًا لمن يريد الانقطاع عن الناس فأصبح أكثر سكانها من الصوفية، هذه المنظومة العسكرية سنتكلم عنها بشكل ما.

المنظومة الثانية هي منظومة المدن ما بين تهيئة المدن مثل المدينة المنورة التي تكلمنا عنها، ومثل دمشق التي بدأت أن تكون عاصمة الخلافة في عهد معاوية بن أبي سفيان، ومثل القسطنطينية بعد أن دخلها محمد الفاتح وهكذا، أو مدن إسلامية صرفة مثل بغداد والفسطاط والقاهرة وفاس وتونس والقيروان كل هذه مدن إسلامية صرفة أنشأت الحضارة الإسلامية هذا شكل آخر.

داخل هذه المدن توجد منظومة عمارة أخرى منظومة عمارة الخدمات العامة؟ ما معنى الخدمات العامة؟ أعني البيمارستانات التي سبق الكلام عنها –المستشفيات– أماكن تطلق عليها اسم التكايا ما معنى التكايا؟ مفرد تكية وهي لفظة أطلقت على مكان تدخل تتكئ فيه أو تنام أو تأكل فيها مجانًا كعابري السبيل مثلًا، ولها وقف ينفق عليها، وهناك السبيل هذا السبيل للجلوس والاستراحة فيه وليس للنوم لكن السبيل كان أساسًا للشرب ويوجد بالقاهرة أنا زرت بعض الأماكن مثل سبيل كتخدا وسبيل محمد علي وسبيل المنشاوي، بعض الأماكن معروفة باسم السبيل أو بناء خاص تمر به للشرب لأنه لم تكن هناك حنفيات كالموجودة اليوم، طبعًا لا تعلمون لماذا سميت حنفية؟ –الصنبور أو مصدر الماء في البيت– سأحكي لكم قصة اسم الحنفية في مصر بالذات ولماذا سميت حنفية؟ لأنها تنتسب إلى المذهب الحنفي وهذه حقيقة، المسألة أن هذه الأبنية مخصصة لسقيا الناس وكان الناس لها مكان وكان هناك ناس تعمل على صب الماء للمارة لمن يريد، ولم تكن هناك في الحضارة الإسلامية في عمليات النقل لم يكن هناك سيارات أو محطات بنزين كان هناك البهائم (كالأحصنة والحمير والجمال) هذه الحيوانات تعطش بالطبع فأقاموا لهم سبيلًا بجوار سبيل البشر، ودخلت مع سبيل الحيوانات الكلاب والقطط ومن يعطش من الحيوانات يمر إلى هذا المكان وكان هذا قائمًا بجوار مسجد السيدة زينب أو بجوار مشهد السيدة زينب في القاهرة ورأيته إلى عهد قريب حتى أن جاء محل من محلات الطعام ووجد أن هذا السبيل غير مناسب له فغطاه للأسف وكان حتى اليوم الحيوانات قد تعودت على وجوده وتذهب إليه للشرب منه حتى عهدٍ قريب.

هذه الأبنية كان منها بناء خاص لرعاية الغاضبات والمطلقات –أي تذهب الزوجة التي ألقى عليها زوجها يمين الطلاق بألا تبيت في بيته وتعود في اليوم التالي– أو الغاضبات –التي تتغاضب مع زوجها فتذهب إلى هذا البيت بضعة أيام لتبيت فيه في أمان وتنفق عليها من أوقاف خصصت على هذا البيت–.

من الأوقاف الجميلة جدًا وقف كان في القاهرة اسمه وقف الإناء المكسور، العبد الذي يرسله سيده لإحضار أي شيء كالفول واللبن وانكسر الإناء منه، فيجمع هذا الإناء المكسور ويذهب به إلى هذا المكان الوقف الخاص بالإناء المكسور ويقدم لهم الإناء المكسور فيأخذ مثله أو قريب منه سليم حتى لا يعاقبه سيده، فكان هذا أحد الأوقاف، كانت هناك حالة من الرحمة التي كانت في الأبنية الاجتماعية، هذا بخلاف طبعًا الأبنية الخاصة بالمشردين وكان من يقوم على خدمتها ما يعرف باسم التكايا، كان المشردين وعابري السبيل وانقطع بهم الحال بحيث أنهم لا يجدون طعامًا فيذهبوا إلى هذه الأماكن حتى يأخذوا معهم ما يسد رمقهم ويبيتون في بيوتهم أو يأتوا كل حين لكي يطعموا فيها من غير دفع أي مقابل في هذا الإطار، كانت هذه أبنية الخدمات العامة.

هناك الأبنية الرسمية مثل قصر الخلافة أو قصر الأمير أو دار القضاء وكان هذا في البداية جزء من المسجد، القضاء كان في البداية في عهد عمر بن الخطاب وعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان داخل المسجد ثم استقل ببناء بعيدًا عن المسجد منذ عهد عثمان وأصبح القضاء له مبنى خاص بجوار المسجد.

هناك أبنية من ضمن أبنية الخدمات العامة ولكنها ليست مجانية –لها مقابل مالي– الحمامات، بناء البيوت في الحضارة الإسلامية كان الغرض الأساسي منه أن يحافظ على البيت فلا يكون هناك مياه كثيرة تسال داخل البيت فلا تؤثر على الحجارة كالذي يحدث اليوم إذا فسدت مواسير المياه فيؤثر على صلاحية البيت نفسه لاستمرار السكنى، فكان يوضع خدمات أساسية جدًا الشرب أو شيء من هذا القبيل، ولكن هناك أبنية خاصة بالحمامات، ووضع كتب في فقه الحمامات سواء البناء أو الاستخدام داخل الحمامات، كيف لمن يدير الحمام أن يجعل هذا الحمام آمنًا لأن هناك حمام للسيدات وحمام للرجال، فكيف يكون هناك درجات متفاوتة حتى لا يمرض الناس، هناك رقابة وهناك كتب لتنظيم مسألة الحمام داخل هذا البناء الاجتماعي، كل هذا داخل الحضارة الإسلامية.

الأبنية الأخرى كالمكتبات وكانت سمت داخل العمران الإسلامي فريد من نوعه، لأن الحمامات في خدمة الناس والمكتبات والمدارس التي كانت تنتشر داخل المدن الإسلامية كانت ظاهرة لم تكن

موجودة في أي حضارة سابقة بمعنى أن الرحالة حتى سواء الشرقيين أو الغربيين كانوا يصفون المدن التي كانت تتكلم عن هذه الجوانب من العمارة الإسلامية بشكل من الانبهار، بمعنى أنك تجد مدينة كالقاهرة –ولكي نستوعب مدينة القاهرة ليست مدينة واحدة هي ثلاث مدن على مدار التطور التاريخي– بدأت بمدينة الفسطاط ثم مدينة القطائع التي بناها أحمد بن طولون، وبعد ذلك مدينة القاهرة التي بناها جوهر الصقلي في عهد الدولة الفاطمية، ثم جاء صلاح الدين الأيوبي فوضع سور حول الثلاث مدن معًا وأطلق عليها القاهرة، حسب الاسم الأخير أو المدينة الأخيرة التي كانت عاصمة الدولة الفاطمية، وبالتالي القاهرة التي نتكلم عنها ليست مدينة واحدة بل ثلاث مدن متلاصقة مدينة الفسطاط كان القلب فيها مسجد عمرو بن العاص والذي ما زال قائمًا حتى اليوم، المدينة الثانية القطائع وقلبها مسجد أحمد بن طولون والذي ما زال قائمًا حتى اليوم، والمدينة الثالثة هي القاهرة وقلبها الجامع الأزهر وطبعًا ما زال قائمًا عاملًا منارة للعلم حتى يوم الناس هذا.

مدينة القاهرة وحدها عندما زارها في عصر المماليك بعض الرحالة وصفوا أن فيها ثلاثمائة حمام، مدينة مثل مدينة حلب أو مدينة دمشق هذا بخلاف دور العلم داخلها، مدينة دمشق وصفوا أن فيها أكثر من مئة مكتبة مفتوحة للباحثين وطلبة العلم، بخلاف مكتبات العلماء الذين ينقلون العلم من خلال كتبهم ودراستهم لكن هي مكتبتهم الشخصية، يأتي إليها الباحثين لكن هي مكتبة خاصة، لكن المكتبات العامة كانت أكثر من مئة مكتبة في دمشق وكذلك كان في القاهرة وقرطبة، فكان من الخدمات التي تقدم للناس أنه كان منشأة مفتوحة للناس لها قسم للاطلاع ومعها حرفة أظن أنها لم تعرف قبل الحضارة الإسلامية وهي النُساخ هي حرفة لها طائفة وصناعة قائمة بجوارها هي صناعة الورق وصناعة الأحبار وبالتالي مثل هذه الأمور تدخل في داخل العمارة داخل المدينة الإسلامية سواء كانت مدينة أنشئت إسلاميًا في الحضارة الإسلامية أو كانت سابقة وتم تهيئتها لكي تكون قائمة بما يتناسب مع قيم الحضارة الإسلامية.

الحديث عن العمارة الإسلامية حديث ذو شجون ويحتاج إلى حوار طويل كما الحديث عن العلوم الإسلامية، وقد كان ما سبق هو مقدمة نستأنف الحديث الآن عن العمران الإسلامي، ونحن لا نستنكف أن نصفه بهذا الوصف لأنه تميز بميزاتٍ واتصل بأصول المصادر الإسلامية والفقه الإسلامي بشكلٍ وثيق، كما أننا نجد فيه اختلافًا عن المنظومة التي سبقته في الحضارات السابقة عليه أو حتى في الحضارة المعاصرة التي اتسمت باتباع نهج العمارة في الغرب والتي تفترق في كثير من ملامحها عن العمران الإسلامي.

تحدثنا فيما سبق أن أنواع العمارة الإسلامية تعددت بمعنى أن هناك عمارة عسكرية وهناك عمارة للمدن الإسلامية وافترقت بين أمرين وهي تهيئة المدينة القديمة التي دخلها المسلمون والمدينة التي أُسست أساسًا في الحضارة الإسلامية، وثم داخل هذه المدن ما كان من منشآت هناك منشآت لها صفة الخدمات العامة وهي تفترق ما بين خدمات عامة مُمولة من خلال منظومة الأوقاف الإسلامية وما بين خدمات بأجر مثل خدمة الحمامات كما قلنا في المرة السابقة.

ثم هناك فقه البناء للدور الإسلامية، الدور بمعنى البيوت الإسلامية.. نبدأ من الأصغر للأكبر رغم أن المنطق يقول العكس لكن دعونا فقط لكي نبين فيما هو ملتصق بنا أكثر، العمارة في البيت الإسلامي مدخل البيت الإسلامي وهذا ما نجده موجودًا مثل ما شاهدته في بيت معروف باسم بيت السحيمي أو بيت الكرتلية في ميدان السيدة زينب وبيت السحيمي في منطقة الحسين، هناك نمطين من البناء وللمتأمل أو الذي يستطيع أن يزور مثل هذه البيوت والتي كنت حريصًا فيما كنت أحضره من مؤتمرات في عواصم عربية أن أزور المدن القديمة أو المنطقة القديمة في هذه المدينة مثل صنعاء أو في الرباط أو غير ذلك في المغرب، فكنت أذهب إلى المدينة القديمة في دمشق وفي حمص وفي حلب، الحقيقة وجدت قدرًا من الاقتراب بين العمارة الإسلامية في هذه الأماكن اقترابًا شديدًا فيما بينها وكأنها نُسخت من بعضها البعض مع فوارق في منطق بعض الأماكن عن الأخرى، ولكن تتسم جميعًا –وهناك فارق ما بين أن يكون البيت لأحد أمراء العسكر وبين أن يكون البيت لأحد المدنيين سواء التجار أو الأطباء أو غيرهم– عندما تدخل إلى بيت التاجر مثل بيت السحيمي أو بيت الكرتلية أو غيره من البيوت التي ما زالت قائمة وهي قائمة من العهد المملوكي على هيئتها التي سوف تجدها عليه إذا زرتها اليوم أن المدخل له ممر ثم الدخول إلى مساحة تفترق إلى بابين مساحة تدخل مباشرةً إلى ساحة الضيافة في السطح الأرضي ومدخل آخر تدخل منه إلى الغرف العلوية وهو خاص بالحريم، أي مكان يدخل منه الحريم ليصعدوا للدور الأول وهناك مساحة يدخلها الرجال إلى مساحة الضيافة في الدور الأرضي وهذا تجده أن مساحة الضيافة تُفتح على ساحة فيها خضرة أو زرع أو ورود إلى آخره من أشكال الحياة النباتية وأماكن الضيافة حقيقةً تجدها أنها مقاعد متسعة تَسَع أن يجلس فيها المرء وإن أراد أن يتكئ أو ينام فيها قليلًا أو يأخذ قليلًا من الراحة تتسع له كذلك تسع هذا الغرض، هذا الشكل من أن الدخول إلى أماكن الضيافة في الدور الأرضي ثم مساحة خضراء إذا أردت أن تجلس في هواء هذه المساحة وفقًا لخبراء البناء تساعد على خروج الهواء الساخن من داخل الغرف ومن داخل الأماكن المغطاة إلى أن يحمل الهواء الساخن إلى الأعلى وينزل بالهواء الرطب إلى الأسفل وبالتالي تكون مساحة التهوية إلى البيت من داخله، أي أن هناك ساحة مفتوحة داخل البيت نفسه.

لو ذهبت إلى بيت أحد أمراء العسكر مثل أكثر من بيت ستجدونه أيضًا في منطقة الأزهر أو غير ذلك ستجد أن الدور الأرضي خاص بالخيل وبعض الغرف لأعوانه من المماليك، غرف نوم خاصة بأعوانه أو جنوده من المماليك أو حتى عبيده ومكان خاص بالخيل كانت هذه المساحة عند تشرع في الدخول للبيت، ثم مدخل يرفعك إلى الدور الأول والذي كان خاصًا بالضيافة –لاحظوا الفارق– الدور الأول الأرضي مخصص للخيل والعبيد والمماليك ويسمى بالسلاحليك –المكان الذي يحفظ فيه السلاح– وهذا تحسبًا إما لخروج سريع من خلال الخيول أو لاتقاء هجوم قد يحدث فيكون هناك من الجنود من يصدون هذا الهجوم، الدور الأول تجد فيه شيء من الأماكن الخاصة بالضيافة ولكن ستجد فيه أكثر من فتحة للاطلاع أو للدفاع عن البيت، بمعنى فتحة مربعة لها مثل النوافذ حاليًا –موضوع عليها زجاج لكنها لم تكن كذلك– كانت مساحات مفتوحة للاطلاع على الداخل ومهاجمته أو صده إذا كان مهاجمًا للبيت، والسُلم الذي يصعد ملتف بحيث يسهل سده على الصاعد كان هذا الدور الأول، ثم الدور الثاني غرف، ثم الدور الثالث للحريم وبالتالي المماليك كانوا جواريهم أو الزوجة لا يريدون لها أن تتعرض لأي اعتداء فتوضع في أعلى الدار الذي تتعدد طوابقه ما بين اثنين أو ثلاثة، دور الضيافة هو الدور الأول بعد الدور الأرضي والمخصص للسلاحليك والخيول والجنود أو العبيد الذين يستطيعون أن يدافعوا عن البيت، الدور الأول هو الضيافة مع غرف نوم قد يكون لمماليك آخرين مقيمين في الدار أو للضيوف ولرجل البيت أو صاحب البيت، ثم الدور الثاني خاص بمبيت صاحب البيت وجنوده والدور الأخير أو قد يكون ليس هذا الدور إما أن يكون دورين أو ثلاثة المهم أن يكون الدور الأخير مخصص للحريم بحيث تكون المراحل السابقة هي مرحلة دفاع عن دور الحريم بحيث لا يصل إليها المعتدي، وهذا لأن في مراحل التاريخ الإسلامي المتأخرة كان سمت أن يكون رجال العسكر متعرضين للهجوم أو قائمين بحركة مهاجمة فيكون البيت أقرب إلى القلعة الصغيرة أو الحصن الصغير، وهذا فارق أساسي ستجده في العمارة داخل البيوت ما بين بيوت قادة العسكر أو المماليك أو رجال الحكم ستجد هذا السمت من البناء، السمت الإسلامي للبناء العادي أو البناء المدني أو بناء التجار والأطباء وخلافه تجد أن المدخل هو مدخل طويل لا يكشف البيت ثم هناك افتراق جزء يدخل إلى مساحة الضيافة في الدور الأرضي هذا الدور يطل على حديقة صغيرة مفتوحة إلى السماء وصحن البيت كصحن المسجد مفتوح إلى السماء لو دخلت أي مسجد من المساجد القديمة ستجد أنه بنفس الترتيب مدخل ثم صحن المسجد مفتوح إلى السماء ثم المحراب الذي يكون مظللًا وبداخله المنبر الذي يعتليه الخطيب، هذه عمارة المسجد وسنتكلم عنها فيما بعد.

المسألة بالتالي داخل البيوت افترقت ما بين رجل العسكر أو رجل جيش أو من المماليك الذين يكونون من رجال الجيش وما بين الناس التي يمارسون الحياة المدنية بأشكالها المختلفة لهم سمت آخر ليس في ذهنهم مسائل الهجوم العسكري أو التعرض للهجوم إلى آخره من هذه المسائل، بل المسألة تتعلق ببيت له خصوصية مثل أن الحريم يدخلون إلى مكان والرجال يدخلون في مكان، الضيافة لها مساحتها والضيافة تتسع ما بين الجلوس والاتكاء أو حتى المبيت بشكل وافي، بالإضافة إلى الخدمات تكون محيطة بهذا المكان من مطبخ قريب من ذلك المكان إلى آخره من الخدمات اللازمة لشؤون الضيافة، هذا هو البيت.

الدور أو بناء البيوت سنجد أن في مدينة الكوفة وقت أن تأسست في عهد عمر بن الخطاب كان توجيه سيدنا عمر أنه لا يعلو في البناء بحد الإسراف ولا يكون مقصرًا عن أداء ما بُني الغرض منه، وبالتالي طلب من البناءين أو من قام بالإشراف على بناء المدينة أن يكون بناءها لا يتعدى الدورين، نجد المدينة بشكل عام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وبداية عهد عمر لا تزيد عن الطابق الأرضي وطابق فوقه، دور واحد فقط، الكوفة اعتلت في مبانيها بدلًا من دور واحد أصبحت دورين، مدينة البصرة ومدينة واسط التي أشرف على بنائهم سيدنا سعد بن أبي وقاص خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قادة الفتح كان البناء بدأ يعلو إلى ثلاثة أدوار في هذا البناء حتى في عهد الدولة الأموية بدأ البناء يتحول من دور إلى قصور، أصبحت هناك حالة استقرار وحالة من الرغد وحالة من التشبه قليلًا بالحضارات السابقة فبدأ الأمراء والخلفاء يبنون قصرًا والقصر ملحق به حديقة إلى آخره، لك أن تتخيل مثلًا لو كنت زرت القاهرة في أي فترة من الفترات كان الجامع الأزهر في مقابله كان مسجد الإمام الحسين والذي لم يكن موجودًا وقت بناء القاهرة، المنطقة التي أمامه وهي حي الأزهر بأكمله بالمنطقة المعروفة اليوم باسم الموسكي وسوق الموسكي وخان الخليلي وكل هذه المناطق كانت عبارة عن قصرين –ومن يعرف قصص نجيب محفوظ بين القصرين– كان هذا شارعًا فاصلًا ما بين مكانين، شارع طويل يصل إلى باب النصر، باب النصر إلى جواره باب الفتوح لكن باب النصر هو من دخل منه المعز لدين الله الفاطمي، وبعد هذا الباب ومن يصل إلى باب النصر وعند الدخول منه وعلى يساره يجد جامع الحاكم بأمر الله ثم شارع طويل على يمينه مجموعة من العمائر الإسلامية سواء مساكن عادية لأناس عاديين أو محلات قديمة أو بعض المدارس الإسلامية والمساجد الإسلامية من العصور المختلفة سواء المملوكية أو العثمانية، هذا الشارع لم يكن فيه مساكن نهائيًا ولم يكن فيه مسجد الحاكم بأمر الله وقتها، وقت بناء القاهرة هذا الجزء على اليسار كان القصر الصغير واليمين كان القصر الكبير إلى أن تصل إلى الجامع الأزهر هذا الشارع بأكمله وهو على مسافة أكثر من كيلو متر أو كيلو ونصف

متر كان هذا قصر على اليسار قصر يسمى القصر الصغير وعلى اليمين القصر الكبير وهو قصر الحكم، القصر الصغير فهو للضيافة واستقبال الضيوف والوفود وشيء من هذا القبيل، أما القصر الكبير فللمبيت والحريم ولبقية شؤون الدولة ولذلك سمي الشارع باسم بين القصرين، وبالتالي كانت هذه القصور قصور فارهة ولها جنائن عامرة بكل أشكال الحياة النباتية وأحيانًا يضاف إليها حياة حيوانية من الحيوانات المستأنسة مثل الغزلان أو بعض الطيور النادرة أو الببغاوات أو العصافير الملونة إلى آخره من هذه الأشكال التي تُبهج الناظر إليها.

في عهد الدولة الأموية بدأ بناء القصور وحرصًا من أنهم لا يتعدوا الحدود الإسلامية كانوا يستخدمون الزخرفة النباتية، والتي استخدمها الفنان المسلم بذكاء شديد فلم يكتفي بالرسومات فأصبحت هذه الرسومات غائرة فأصبحت محفورة داخل الحوائط ثم أصبحوا يشكلونها من الجص أو ما يسمى بالجبس، الجص هو أداة للتشكيل عجائنيًا ثم يجف فيصير صلبًا، والأخشاب التي صنع منها في مصر ما يعرف باسم المشربية هي شكل نباتي متشابك يسمح بالنظر ودخول الضوء ولكنه لا يسمح لمن ينظر له لا يرى من خلفه، فصار يخدم غرضًا إسلاميًا مقصودًا وهو الإضاءة مطلوبة سواء للجلوس أو القراءة أو غير ذلك ولذلك لغض البصر أنك لا تستطيع أن تجرح الناظر إلى هذا المكان، هذا الفن الإسلامي دخل في عملية البناء في العمران الإسلامي.

الأمر الثاني أنه في علو الدور لم يكن هناك دار تجرح دار بمعنى أن اتجاهات العلو لا بد أن يُبنى معها حوائط عالية بحيث أنك لا تجرح أحدًا بالنظر ولا يجرحك أحد، بحيث لا تكون في مرمى بصر من يُبصر ولا تكون جارحًا لجارك بأي شكل من الأشكال، ولذلك عندما ننتقل من عمارة الدور إلى عمارة بيوت الله عز وجل وهي المساجد نجد أنه كان لكي يصل صوت المؤذن مع اتساع المدن الإسلامية فكان لابد أن يعلو في مكانه عن مساحة المدينة لكي يصل صوته لأنه لم يكن موجودًا وقتها ما يعرف اليوم بمكبرات الصوت، وهذا الأمر سنجده حتى في النسق الاجتماعي أن معظم المؤذنين وكان هذا حتى عهد قريب في كثير من الأماكن كان معظم المؤذنين من مكفوفي البصر حتى إذا صعد إلى المئذنة لا يجرح أحد لأنه سيعلو على كل أسوار البيوت وبالتالي يجب أن يكون مأمونًا بأنه لن يجرح بيتًا ولن ينظر إلى مكان لا يصح النظر إليه فكان معظم هؤلاء إن لم يكن كلهم من المؤذنين الذين يصعدون إلى المآذن كانوا من مكفوفي البصر لهذا الغرض، فكان يصعد إلى المئذنة وهي التي تعلو كثيرًا من البيوت أو كلها وبالتالي تكون البيوت في أمان من النظر إليها.

عمارة المساجد حقيقةً بدأت تأخذ شكلًا مختلفًا عن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد توسعته سواء في عهد سيدنا عثمان ثم في عهد معاوية بن أبي سفيان وتطور الأمر حتى أن –ما عرفته عندما زرت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كتب الله لنا زيارته– مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم هو مساحة المدينة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسجد رسول الله كان مساحة مربعة صغيرة تقريبًا ١٩ ذراع في ١٢ ذراع وكان يظلل جزء منها بسعف النخيل، ونحن نعرف قصة المنبر الذي صُنع لرسول الله فترك الجذع الذي كان يقف عليه فحنّ إليه الجذع فهذه القصة التي نعرفها جميعًا، هذه العمارة الإسلامية أو هذا الشكل بدأ يتطور من مسجد رسول الله فبدأ ينتقل إلى كل مكان يدخل إليه المسلمون، طبعًا بيت الله الحرام شيء آخر ومختلف لأن له كينونة وهو وجهة القبلة التي يتجه إليها المسلمين جميعًا، لكن كل مسجد فيما بعد أصبح له سمت عام في كل المساجد، تجد فيه مدخل خاصةً أن المدخل كان يتعمد العمران الإسلامي أو المهندس الإسلامي أنه يصنع مدخل طويل بحيث تسير فيه تدريجيًا لكي تستشعر أين أنت، كثير من المساجد الآن تدخل على صحن المسجد مباشرةً، بينما المساجد القديمة تجد أن فيها ممر تدخل وتسير وكأن فيه مسافة لكي تخلع عنك شيئًا مما كان يشغلك قبل أن تدخل إلى هذا المكان، هذا المكان له خصوصيته وقدسيته هذا المكان يجب أن تنشغل فيه بشيء آخر فتدخل إلى المسجد وتدخل إلى ممر طويل ثم يدخل بك هذا الممر إلى صحن المسجد، بعد الدخول تجد أن هناك ساحة مفتوحة إلى السماء وبعد ذلك تدخل إلى مساحة المحراب وهي غالبًا مستطيلة الشكل ويكون فيها محراب مجوفًا وبجواره المنبر الخاص بالخطيب وكان قديمًا يوضع أو يكون هناك مكان لما يقال عنه أنه مكان كان يجلس عليه الذي يقرأ القرآن، ولكن كان يجلس فيه مقيم الشعائر أو ما يسموه المُعيد الذي يُعيد إسماع الناس ما يقوله الخطيب أو المدرس لكي يعلو صوته، أو أنه يكبر فهذا يكبر بعده لكي يُسمع من هم خارج المسجد، فتجد مساحة عالية خلف مساحة المحراب خاصة بمجلس هذا الشيخ.

وبالتالي كانت هذه العمارة والشكل الخاص بالمسكن سواء المسكن المدني أو مسكن الرجل العسكري ثم بعد ذلك المساجد وكان هذا السمت العام بها هو صحن مفتوح ثم المحراب واختلفت التفاصيل من مسجد لآخر بدأت التفاصيل تأخذ شكل فني عالي مع المسجد الأموي ومسجد الصخرة ومسجد بيت المقدس أو المسجد الأقصى وكل هذه المساجد بنيت في العصر الأموي بعدها جاءت مساجد أخرى، أما ما كان قبلها كان مسجدًا بسيطًا مثل مسجد الفسطاط ومسجد عمرو بن العاص والذي تطور بعد ذلك في شكل مسجد أحمد بن طولون في مدينة القطائع ومسجد الأزهر الذي كان في عهد الدولة الفاطمية وحافظت على الشكل المعتاد تجد أن جميعهم فيهم مدخل ثم تؤدي إلى صحن المسجد ثم

إلى منطقة المحراب، هناك مساجد تجد أنها من الاتساع بحيث أنك تجد المحراب أو الصحن مقسم إلى أربعة إيوانات –الإيوان هو مساحة واسعة ليكون مدرسة لقراءة القرآن أو مدارس فقهية يجلس فيها المشايخ لتعليم التلاميذ– وهذه مسألة تتعلق بالمدارس لأن المسجد كان هو الموطن الأول أو المكان الأول الذي يُلقى فيه العلم ثم خُصصت مباني كمدارس مُلحقة بالمساجد وما زال هذا الأمر قائمًا في بعض الأماكن وما زال إلى عهدٍ قريب كان لدينا ما يطلق عليه أستاذ العمود أو شيخ العمود، شيخ العمود يجلس في المسجد وظهره إلى أحد الأعمدة ويكون مخصص لتدريس علم من العلوم الشرعية مثل التفسير أو الفقه أو اللغة إلى آخر ذلك.

كان هذا سمت داخل المدينة الإسلامية، سواء كانت المدينة أُسست كمدينة إسلامية أو تم تهيئتها لتكون مدينة إسلامية، بجانب المسجد كان في المدينة الإسلامية كان هناك دائمًا شيئين: قصر الأمير أو قصر الخلافة والناحية الأخرى دار القضاء كان هذين المبنيين أولًا يتواجدون داخل المسجد القضاء داخل المسجد والحاكم نفسه يدير شؤونه من داخل المسجد كان ذلك في العهد الخلافة الراشدة كما رأينا، بيته كان بيتًا صغيرًا لكن بعد ذلك انفصلت دار القضاء ثم انفصل دار الأمير وأصبح إدارة الشؤون السياسية لها قصر سواء إقامته مع إدارة شؤون الدولة وقصر الخلافة، ودار القضاء أصبحت دار منفصلة إما تكون بجوار المسجد أو تبعد عنه قليلًا لأنه بجوار المسجد بشكل دائم كان يوجد شيئين: الأولى: الحمام، الثانية: الأسواق أو السوق، كان دائمًا بجوار المسجد السوق العمومي للمدينة وكان هذا لأن الناس تحضُر للصلاة فبالتالي يكون السوق بجوارها لكي يقضي المصلون حاجتهم من الأسواق من البضائع المختلفة، تصميم الأسواق أن كل بضاعة يكون لها مكان كل نوع بضاعة له سوق متحد لذلك تجدوا مثلًا في المدن الإسلامية المختلفة مكان خاص للعطارين، تجدون تجار العطور أو الحبوب في مكان، تجار الذهب (الصاغة) فبالتالي كانت تقسم الأسواق بهذا الشكل، ثم المدينة تُقسّم في فترة من الفترات حسب القبائل قبيلة كذا في مكان متحد وهذا المكان يغلق مساءً ويفتح صباحًا ما السبب؟ من يعرف تاريخ مصر في أثناء الحملة الفرنسية كان هناك أزمة كبيرة جدًا ما بين نابليون والنظام الاجتماعي المصري فكانوا يقولون حدثت ثورة بسبب كسح أثناء مطاردة الثوار فأدى ذلك لعدم استطاعتهم الدخول فحطموا أبواب الحارات، كانت هذه الحارات قبائل أو عائلات أو ناس متحدة مع بعضها، لو راجعت الفقه الإسلامي تجد أن هؤلاء اسمهم العاقلة يقولون (وديته على العاقلة) يعني لو حدث شجار ما بين شخصين وأصابه أو قتله خطأ يقولون (وديته على العاقلة) من هم العاقلة؟ قبيلته، أين هذه القبائل؟ هذه القبائل أصبحت تسكن في حارات أو في شوارع، هذا الشارع يغلق مساءً ويفتح صباحًا ولذلك إذا وُجدت جثة ميت شخص مقتول في أحد هذه الحارات فمن يتحمل ديته؟ الحارة بأكملها أو الشارع لأنه يُقفل فلا

يدخل فيه أحد إلا إذا كان من سكان هذا المكان فإذا كان هناك قتيل فهو يتعلق بأحد هؤلاء فإن لم يُعرف يتحمل الجميع ديته وهذا في الفقه الإسلامي، فمنظومة البناء ارتبطت بالفقه الإسلامي.

نجد في كتب الفقهاء تنظم عرض الشارع وتنظيم أماكن الجلوس، في جزء من العمارة الإسلامية هناك جزء ترفيهي فتوجد مقاعد للناس في الشوارع ومقاهي إلى آخره، وبالتالي هذه المجالس تنظم بحيث لا تجرح الناس ولا تسبب ضوضاء للناس فينظم مكانها وفقًا لضوابط فقهية وضعها الفقهاء، عرض الشوارع لابد أن يكون مناسبًا لعدد البيوت بحيث لا يكون شديد الضيق فتكشف البيوت بعضها بعضًا ولا شديد الاتساع بحيث يهدر عرض الشارع فيما لا يفيد، هذا الشكل وكان على مقربة من المسجد توضع الخدمات العامة مثل دار المحتسب، والمحتسب هو الشخص القائم على ضبط الأسواق أو ضبط الآداب العامة فلا بد أن يكون مكانه بجوار السوق، بعد ذلك يأتي البناء الثاني وهو الحمام لماذا؟ لأنه كان من سنن الإسلام يوم الجمعة هو الاستحمام ومن السنة أن يستحم المسلم يوم الجمعة فكانت الحمامات شيء مهم كما أن هناك الوضوء، فلم يكن الوضوء داخل المساجد وهنا أذكر لكم قصة الحنفية، أول ما بدأ عملية نقل الماء عبر أنابيب لتنتهي بصنبور تفتحه وتغلقه كان هذا في مرحلة بدايات القرن العشرين، المذهب الذي كان يُعتمد أو المعتمد في المشرق الإسلامي وفقًا للدولة العثمانية كان المذهب الحنفي ولكن كان في مصر المذهب الشافعي له منزلة والمذهب المالكي خاصةً في صعيد مصر ثم في المغرب العربي له منزلة كبيرة، فكان الناس يتشككون هل هذا الماء مُطهِّر؟ بمعنى قد يكون طاهرًا ولكنه مُطهِّر أي يجوز الوضوء به والاغتسال به، فأول من أجاز استخدام الصنبور كان الأحناف فسموه الحنفية لهذا السبب، فما كان من أهل المدن إلا أن أصبح هذا الحمام له آداب وله فقه وله سياسة عليها رقابة من جهاز المحتسب، قلنا أن جهاز المحتسب يقوم على الرقابة على شؤون الأسواق والآداب العامة وما قد يكون من خدمات عامة، القاضي يُشرف على الأوقاف كل وقف له ناظر لكنه يشرف على هذا الناظر ويحاسبه حتى لا تكون فوضى، أما من يُشرف على الحمامات والخدمات العامة هو المحتسب، هذه هي المنظومة الإسلامية داخل المجتمع الإسلامي، بالإضافة إلى مثلًا الشؤون الصحية يبدأ في الإشراف عليها شخص مساعد للمحتسب في الشؤون الصحية ويكون على علاقة بالطب، وهنا حقيقةً بالإضافة إلى الأمور الأخرى المتعلقة بالآداب العامة في الطرقات.

لكن هناك نقطة أود أن ألفت النظر لها قبل الانتهاء من هذه المحاضرة عن شيء مرَّ بي من فترة قصيرة مع أحد الأصدقاء كنت أتحدث مع صديق حول أننا نريد إعداد بحث لطيف عن المشايخ من السيدات، ما معنى هذا؟ نريد أن نعرف متى بدأ يكون هناك متخصصة في الفقه من النساء أو متخصصة في التفسير من النساء، نحن لدينا الآن أساتذة من التفسير والفقه والحديث من النساء سواء

في جامعة الزيتونة أو الأزهر أو في جامعة القرويين في فاس، هناك من النساء من يُدرّس الحديث والتفسير، وقد التقيت ببعضهم في بعض المؤتمرات، فقلت له نريد أن نرى في الأزهر متى حصلت أول امرأة على العالمية في التفسير أو أول امرأة حصلت على العالمية في الحديث، وبدأنا نقول أننا نود الاستفسار من المشايخ في عصرنا الحديث، فقال صديق كان يجلس معنا: أنا البحث الخاص بي حول رسالة في علم الحديث لواحدة –أنا لا أذكر الاسم حاليًا– واحدة من الشيخات التي كانت تدرس علم الحديث في فلسطين، فقلت له: هذا جيد، متى كان هذا الأمر؟ فقال: من أربعة قرون من الزمن أي أربعمئة سنة، وكان لها مشيخات كلهن من النساء أربعمئة من المشائخ من السيدات، أنا ذهلت من الرقم وذهلت من هذا الحديث، فتعجبت وسألت: أربعمئة؟ قال: نعم، قلت له: هل أوردتهم في رسالتك؟ –كانت رسالته في هولندا في الدراسات الإسلامية– قلت له: أربعمئة من السيدات كانوا يعلمن الناس علم الحديث؟ قال: نعم، وأنا أرهقت لكي أتتبع الأربعمئة سيدة التي كان تلقت العلم منهم كابرًا عن كابر، بخلاف الرجال، نحن نتكلم عن عالمات في الحديث أربعمائة كانوا في منطقة الشام وفلسطين من أربعمائة سنة ونحن نبحث اليوم على من أخذت العالمية في فروع العلوم الإسلامية، من يتكلم عن أن العصر الحديث تطور بالمرأة، وأثناء إعدادي للمحاضرات وجدت أن هناك امرأة تولت شأن البيمارستان المنصوري وتولت مسؤوليته لأنها كانت ابنة طبيب وكانت مساعدة لأبيها ثم توفى أبيها فتولت هي المسؤولية وتركوها تتولى المسؤولية حتى اعتزلت هي العمل، كانت طبيبة والطبيب كما قال الرازي لا يكون طبيبًا إلا إذا امتُحن في التشريح، فبالله ارحمونا من الكلام على فضل الحضارة الحديثة على المرأة، انظروا في تاريخنا وانظروا إلى من كان من العلماء من السيدات سواء في علم الحديث أو في علم التفسير أو في علوم الفقه وأخرجوا لنا هذه الكنوز، الحقيقة أنا كمتخصص في علم التاريخ لكن هذه الأمور لم أكن أنتبه إليها وأنا أدرُس وحتى ما أقوم به الآن من ضمن تاريخ العلوم وتاريخ العمران إلى علم التاريخ أو إلى منهج التاريخ لا أظن أن هناك كثيرون يفعله، وبالتالي في تاريخ المرأة في العصور الإسلامية الكثير والكثير مما يجب أن أنتبه إليه وهذه النقطة أردت أن أوردها حتى لا أكون قد فرطت في هذا الحق الذي يجب أن يكون للمرأة من دورها في الحضارة الإسلامية، المرأة في الحضارة الإسلامية لم يكن دورها فقط أن تربي العلماء بل هي أيضًا أضافت إلى العلم وقامت بدورها في نقل العلم سواء العلم التقني أو في مجال العلوم الإسلامية، وهذا ما يجب الانتباه له.

في نهاية هذه الدقائق نقول أن الحضارة الإسلامية عندما كانت تبني مدنها الإسلامية كانت تنتبه إلى مجموعة من المعايير، انتقلنا من الدار إلى دار العبادة إلى دار الخدمات العامة إلى تكوينة المدينة والخدمات داخل المدينة، المدينة نفسها وقت أن يتم اختيار موقعها إذا كانت ستُنشأ مدينة إسلامية كانوا

يحرصون على أن يكون هناك مجرى مائي بجوار هذه المدينة وبالتالي تجد أن مدينة بغداد على النهر ومدينة القاهرة قريبة من النهر وهكذا يكون لها مورد مائي قوي بحيث لا يكون سكانها في حاجة إلى نقل الماء من بعيد، ولذلك كانت أحد الأخطاء أو كانوا حديثي عهد ببناء المدن وعندما بنوا الكوفة فكانت على مسافة فأرادوا أن يقتربوا من الماء شيئًا قليلًا بعد أن اختاروا مكانها الذي بنوها فيه وعندما جاءوا بعد ذلك إلى مدن أخرى كانوا شديدي الحرص على أن يكون هناك من الماء ما يكفي هذه المدينة والمسألة بالتالي تدخل في إطار اختيار مكان المدن لم يكن عشوائيًا وإنما كان وفقًا لمعايير كانت يضعها خبراء في بناء المدن أو في مصالح الناس في هذا الوقت.

تجري الدقائق سريعًا وما زلنا في إطار الحديث عن العمران الإسلامي لكن سوف نكتفي بهذا القدر ونستكمل الكلام في المحاضرة القادمة إن شاء الله تعالى ونتبعه بعملية التواصل أو نقل الحضارة إلى الغرب الذي أنشأ حضارته الخاصة فيما بعد بما يعرف باسم الحضارة الغربية وهو الأمر الذي يجب أن نشير إليه بما يكون من فضل المسلمين على الحضارة المعاصرة سواء في الجانب العلمي أو في جانب العمران، لأن جانب من العمران ليس بالقليل قد نقل إلى الحضارة الغربية ثم بعد ذلك استوردناه في شكله الأخير فكان ما كان من واقعنا المعاصر.

نتمنى أن يكون الحديث قد أوفى ببعض مما أردناه من إيضاح حول فقه العمران الإسلامي وكيف كان وما آلت إليه الأمور بعد ذلك، ونشرع في ختام ما تحدثنا فيه من نواحٍ مختلفة حول التاريخ الإسلامي، في هذه المرة سوف نتكلم بشكلٍ مختصر عن كيف كان العالم الإسلامي يضُج بالعلم وينقل هذا إلى كل مناحي المعمورة، إلى كل مناحي الأرض سواءً في حربه أو سلمه، فبالتالي سنبدأ في القول أن هذه المناحي المختلفة من التاريخ الإسلامي والعلم الإسلامي والعمران الإسلامي بدأ ينتقل إلى الأمم المجاورة، والحضارات عندما تبدأ وتكون في قمتها تُصبغ ما حولها بصبغتها وهذا ما نراه اليوم، مثيل ما يحدث اليوم أننا نتمثل أو نسعى أن نكون على خطى الأسبق أو الأعلى منا حضارة وهذا سمت نجده في الحضارات بشكل متتابع، الميراث الحضاري هو مسيرة تاريخية مختلفة عن الصراع السياسي، بمعنى أننا من الممكن أن نتصارع كأمة إسلامية مع أمة أخرى لكن المسيرة الحضارية في انتقال العلم وانتقال العمران مسألة مختلفة، فنجد أنه برغم أن الأمة الإسلامية مثلًا في بداية أمرها عندما نشأت الدولة الإسلامية الأولى نشأ معها مفهوم التلاقح الحضاري .. انتقال الحضارات الأخرى إليها، وسنجد أن أول بداية في هذا الأمر هو الأمر القرآني لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مبتدأ الرسالة ومن هذا الأمر جاءت كل مناحي الحضارة الإسلامية، ماذا نقصد بهذا الكلام؟ وما هو هذا المبتدأ؟ المبتدأ هو كلمة (اقْرَأْ) الأمر الإلهي لرسول الله في غار حراء والذي رد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة "ما أنا

بقارئ"، من جميل تفسير المفسرين لهذه الكلمة أن الآية الثانية بعد اقرأ ما هي؟ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) فكان هذا هو مبتدأ الرسالة ومبتدأ الحضارة الإسلامية ومن جميل التفسير للمفسرين لهذا الأمر كذا مستوى، القراءة هنا ليس مقصود منها القراءة كما فهمها رسول الله وردّ على الأمين جبريل بأنه ليس بقارئ –لا يستطيع قراءة الكتب– لكن هو المقصود أنك تقرأ في آيات الله ومخلوقات الله وفي كون الله عز وجل فتستخلص منه الإيمان، ثم تستخلص منه العبرة، ثم تستخلص منه العلم الذي يخدمك في هذه الحياة، وتستخلص من هذه الآيات ما يعينك على أن تحقق مراد الله عز وجل في الأرض من عمرانٍ ومن علمٍ ومن بذلٍ ومن عطاءٍ ومن إسكانٍ أو سكينةٌ تنشرها بين الناس، وبالتالي هذا المفهوم بدأ ينتقل من رسول الله إلى صحابة رسول الله ثم إلى الأمة الإسلامية بأسرها، ولذلك نجد أن الأمة الإسلامية لم تجد غضاضة في أن تنقل هذه المعالم الحضارية الموجودة في الأمم الأخرى، فنجد سيدنا عمر بن الخطاب يأخذ بكثير من معالم الحضارة سواء في فارس أو في الروم ويضعها ويقننها من الدواوين وتنظيم المالية الإسلامية وتنظيم شؤون الدولة الإسلامية وبداية ما نعرفه اليوم باسم الزمن الهجري، حتى لغط الكثير في بعض الأوقات حول التهنئة ببداية السنة الميلادية فيقولون هذه سنة لا تخصنا – هذا تقويم شمسي وهذا أمر لا علاقة بالأديان نهائيًا هل أعطيتم الشمس للمسيحيين والقمر لنا المسألة ليست بهذا الشكل على الإطلاق– المسألة بالتالي نأخذ فيها البعد الحضاري فبالتالي الأمة الإسلامية نعم صارعت الفرس لكن استفادت من معالم الحضارة الخاصة بها وأخذت منهم بعض النظم، صارعت الروم حتى استطاع محمد الفاتح أن يدخل القسطنطينية ولكن استفاد المسلمين من هذه الأمة ومن نظمها ومن ملامح التقدم الحضاري عندها وبالتالي بدأ المسلمون يستوعبون معالم الحضارات السابقة.

كثير من معالم العمران بدأنا نستفيد من الآخرين ولكن كان عندهم صور وأشكال وتماثيل ولديهم حركة تسمى الحركة الأيقونية واللاأيقونية وكان صراع حول هذه المسائل هذا ليس وقت لشرحه، لكن هذا الأمر أدى إلى صراع –التماثيل ما يزعمون أنه أمور يتعبدون إليها من صورة السيدة مريم وسيدنا عيسى إلى آخره– نحن قلنا هذا مرفوض في ديننا لأنه توجد نصوص شرعية ترفض التجسيم وبالتالي بدأنا في وضع الشكل النباتي، النزعة التي نبسطها ونقول أن المسألة لدينا خشنة واخشوشنوا بل بالعكس نحن في دعاء السفر "وأعوذ بك من سوء المنقلب وكآبة المنظر" أي أننا نستعيذ بالله عز وجل من كآبة المنظر، وبالتالي الجمال جزء من ديننا الإسلامي.. هذا على مستوى العمران، وبالتالي بدأت الحضارة الإسلامية تستوعب الحضارات السابقة وكان شكل هذا الاستيعاب له مراحل تكلمنا عن بعضها في مرات سابقة

عندما تكلمنا عن الترجمة وعن دخول العلوم الإسلامية أو عن دخول الحضارات السابقة إلينا ثم بدأنا نستوعبها وبدأنا نستخرج مُنتجها، هذا المنتج الإسلامي بدأ يتمثل في علوم وفي نظم إلى آخره.

هناك جزء مهم جدًا نقلناه للغرب سنتكلم عن كيفية نقله، ثم استوردنا نظامهم الذي كان موجودًا في العصور الوسطى، من اللطيف أنه إذا نظرنا على منظومة الدولة الإسلامية على مستوى التاريخ الإسلامي سنجد أن الصراع السياسي موجود في فئة معينة لكن المجتمع مستقل ويسير بمقدرات مختلفة، بمعنى أننا سنجد أن مقدرات الدولة في الرعاية الاجتماعية تسير عبر منظومة ضخمة اسمها منظومة الأوقاف، منظومة الأوقاف هذه ترعى الجانب الصحي والتعليمي بجانب رعاية المعوزين وهكذا، وبالتالي تبدأ تتحرك بشكل مدني، بشكل لا سياسي بمعنى ألا تتدخل فيه الدولة هذا الأمر يُشرف عليه القاضي أو يُشرف عليه ناظر الوقف ويبدأ في تنظيم هذه المسألة في داخل المجتمع بحيث أن الجانب الصحي يأخذ حقه والجانب التعليمي يأخذ حقه وجانب رعاية العمران يأخذ حقه، حتى كان هناك في أوقاف داخل المنظومة الإسلامية للجيوش، من الأشياء اللطيفة أن بعض الأميرات في الدولة العثمانية أقامت أوقاف للجيش العثماني، وهناك أوقاف خاصة بالبحرية العثمانية، حتى في الإسكندرية هناك واحدة معروفة باسم أم البحرية وكانت زوجة قائد البحرية في وقت من الأوقات في عصر محمد علي وما بعده وكان لها أوقاف لسلاح البحرية، فمنظومة الأوقاف هذه لا تتدخل فيها السلطة السياسية إلا مؤخرًا، في الدولة الإسلامية منظومة الأوقاف هي التي تدير المجتمع، ويأتي إلى جانبها منظومة العلماء الذين يخرجون من منظومة الأوقاف الأهلية وبالتالي ليست هناك سيطرة للدولة على إخراج العلماء، هؤلاء العلماء يؤخذ منهم القضاة الذين يشرفوا على هذه الأوقاف ويحكمون بين الناس، وبالتالي منظومة المجتمع جعلته مجتمع حي يتحرك سواء في مسائل التجارة أو الرعاية الاجتماعية أو العلم والتعليم.. كل مقدرات المجتمع بيده، الجانب السياسي والجهاد وحماية الثغور هو أمر خاص بالسلطة وكان هذا الأمر فيه مراوحة بين شدٍ وجذب بين أقطابه وصراعاته السياسية.

حقيقةً الإشكال أن حرية هذا المجتمع، المجتمع الفاعل مع بعضه والذي يستطيع إدارة شؤونه، نحن قد نقلنا هذه المنظومة إلى الغرب وهو الآن المجتمع فاعل جدًا وهم استحدثوا فوق ذلك كيف لهذا المجتمع أن يفرز السلطة السياسية وهذا لم نقم إلا بجزء صغير منه ليس هذا وقت الحديث عنه، لكن المجتمع أصبح مجتمع فاعل من خلال مقدراته، فهناك ما يسمى بالنقابات واتحادات العمال .. إلى آخره، كان لدينا ما يسمى بطوائف الحرف وقد صادرناها لحساب الدولة في نهاية القرن التاسع عشر بمعرفة الاحتلال البريطاني في مصر وفي أماكن أخرى كان بمعرفة الاحتلال بمقدراته التي دخلت على العالم الإسلامي.

أين ذهب العلم الذي لدينا؟ حقيقةً جزء كبير من العلم الموجود لدينا بعضه عبر وبعضه سُرق، ليس العلم هو ما سُرق أو العلماء بل العلم كان له معابر شهيرة جدًا بدأت من القرن العاشر الميلادي والغريب أنها بدأت مع الحملات الصليبية.. الحملات الصليبية جاءت بأعداد ضخمة جدًا فاستطاعت القضاء على الجيوش التي تواجهها واستقروا كممالك صليبية في منطقة الشام وفلسطين، وظلوا مئتي سنة وبالتالي استقروا ولم تكن الفترة كلها حرب، خلال هذه الفترة بدأ نوع من أنواع كما يقولون التلاقح الفكري ما بين المسلمين المحيطين بهذه الممالك ويتعاملوا معها لأن من يزرعون الأرض والصناع كلهم مسلمين في هذه المناطق أما الصليبيين محاربين فقط.. هذا جانب، الجانب الآخر كان في الأندلس وما يجب أن نعرفه أن الأندلس ليست إسبانيا الحالية بل إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وصقلية كل هذا كان جزء من دولة الأندلس، حتى البرتغال كانت جزء من الدولة الأندلسية والبعض يُرجِع كلمة البرتغال لأنها كانت منطقة البرتقال ومزارع البرتقال لذلك تم تحريف الاسم إلى البرتغال حاليًا، هذه المنطقة التي كانت حروب بينها وبين ما يعرف بقوات الفرنجة في الشمال فيما يعرف بحروب الاسترداد –هذا الاسم الصليبي أو المسيحي للحروب التي يريدون فيها القضاء على دولة الأندلس– هاتين المنطقتين الحربيتين كانتا بداية الالتحام ما بين المنطقة العربية أو المنطقة الإسلامية بمعنى أصح والمنطقة الأوروبية، هذا المنطق الحربي لم يكن دائمًا حروب قائمة فبدأت الأمور تهدأ فيبدأ الاحتكاك فمن أشهر الأحداث أنه كانت إحدى الأميرات الأوروبيات موجودة في مملكة بيت المقدس في العهد الصليبي ومرضت مرضًا شديدًا في معدتها ولم يستطع أحد علاجها وهم أصلًا لا يعالجون لاعتبارهم أن المرض هو تكفير ذنوب، وعندما لم تستطع تحمل الألم فبحثت عمن يخفف عنها ألمها فأتوا لها بطبيب مسلم فأعطاها دواءً أذهب عنها هذا الألم فاستبقته، وبدأت تُكلّف بعض الناس الموجودين أن يتعلموا منه ما يفعله، بدأت بشائر نقل علم يسمى علم الطب إلى جانب علم يسمى علم الصيدلة الذي كان يسمى قديمًا علم الصيدنة وهو يقوم على تركيب الأدوية من الأعشاب لأنه لم يكن هناك صناعة كيميائية للأدوية بل كانت كلها من الأمور الطبيعية والذي نسميه اليوم الطب العربي وأحيانًا يسمونه الطب الصيني لأن الطب الصيني نفس الشيء والطب الهندي أيضًا، كان الطب العربي كان قائم على استخدام الأعشاب بمقادير معينة لتحقيق عمليات علاجية.

في الأندلس أصبح الأمر يأخذ مرحلة أكثر تقدمًا بمعنى أنه بدأت تكون هناك جراحات ليست في الأسنان بل وصلت إلى المخ والعين والجسم والزُهري كان أشهر جراح حتى أنه كثير من الأدوات الجراحية الموجودة اليوم كان هو الصانع الأول لها وكيف يستطيع تشريح الجسم بشكل منتظم وكيف يستطيعون استخدام القنّب أو الحشيش كمخدر مع المريض قبل بدء الجراحة إلى آخره من هذه الأمور،

هذه الأمور استدعت أن ملوك أوروبا كانوا يرسلون بعثات فكان هناك بالإضافة إلى عملية التلاقح الفكري كان على البعثات أن ترى كيف يتعامل المسلمون، بدأ من خلال هاتين المنطقتين: منطقة الإمارات الصليبية ومنطقة شمال الأندلس يحدث فيها تبادل خبرات، بدأ الغرب يشعرون بأن لديهم مشكلة لأنهم أرسلوا أبناءهم لكي يتعلموا خارج البلاد، بدأ في هذا العهد في القرن الحادي عشر والثاني عشر بدأت مسألة البعثات الأوروبية للبلاد المتقدمة العربية وفي هذه الفترة كانت العمليات الحربية مستمرة وبدأ يحدث نوع من أنواع استرداد بعض المناطق لحساب أوروبا، وكان من هذه المناطق صقلية وجنوب إيطاليا، وبعض مدن شمال الأندلس فكانت صقلية وشمال الأندلس وتحديدًا مدينة طليطلة كانتا نقطتا تحول في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا .. كيف؟ من هاجم صقلية كانوا من فئة أوروبية كانوا يريدون استعادة هذه الأراضي تحت ضغط –كان يتم تهجيرهم من أوروبا– فلم تكن لديهم مشكلة كبيرة مع المسلمين بل بالعكس بدأوا في التسامح مع المسلمين الذين يعيشون في نفس المكان وبدأوا في تكوين جهاز ترجمة إلى أن جاء فريدريك الثاني في صقلية، كان فريدريك الثاني هذا متواجدًا في نفس العصر الذي كان يتواجد فيه الملك الكامل ابن صلاح الدين الأيوبي، الملك الكامل في الحقيقة كان هناك سفارات بينه وبين فريدريك وارتكب كارثة –سأتكلم عنها بعد قليل– لكن فريدريك كان قصة خاصة، كان تعلم منذ أن كان صغيرًا على أيدي معلمين عرب فكان عالمًا باللغات سواء بالعربية وبعدة لغات أخرى بالإضافة إلى قراءاته في العلم العربي والأدب العربي، ولإعجابه الشديد بالعلوم العربية أقام جامعة في نابولي دخلت تحت حكمه هذه الجامعة متخصصة في العلوم العربية هذا التخصص يقوم على ترجمة المخطوطات العربية سواء في الأدب أو في الفلسفة أو التقنية والطب والصيدلة والهندسة إلى آخره.. كانت هذه مهمتها، جامعة نابولي هذه من أوائل الجامعات في القرن الحادي عشر وبدأت تقوم على هذه المهام، المدينة الأخرى التي بدأت نفس المهمة مدينة طليطلة بعد أن أخذها بعض قوات الفرنجة واستولت عليها لأن هذه المدينة كانت عاملة بالمكتبات الإسلامية فلم يسلك فريدريك سلوك كثير من البرابرة الذين كانوا يحرقون الكتب كما كان يحدث عندما يدخلون على أي مدينة إسلامية فيحرقونها ويحرقوا الكتب الموجودة تحت بند أنها كتب للكفار بالنسبة لهم، بل أنه احتفظ بكل المكتبات وأقام مركز لترجمة هذه الكتب إلى اللغة اللاتينية، قلنا البداية كان الاحتكاك والتعايش ما بين المسلمين وسكان هذه المناطق من غير المسلمين كالفرنجة والصليبيين، المرحلة الثانية: عمليات الترجمة المنظمة داخل جامعة نابولي وفي صقلية وفي طليطلة في شمال الأندلس.

هذه كانت هي المرحلة التي بدأت فيها عملية انتقال العلوم من الحضارة الإسلامية إلى العصور الأوروبية التي كانت يصفونها أنها عصور الظلمات –العصور الوسطى– نحن ليس لدينا عصور وسطى

بل كانت في أوروبا، ولكي تكونوا مدركين عندما جاءوا إلى مصر يسألون عن أنه هل هناك عصور وسطى إسلامية؟ فقالوا: لا هذا تخصص أوروبي، العصور الوسطى مصطلح يستخدم في التاريخ الأوروبي لأن من يتكلم عن العصور الوسطى يُدخلون فيها التاريخ الإسلامي وهذا كلام علميًا غير صحيح وغير دقيق وأصبح مرفوض أكاديميًا حتى على مستوى التخصص، كلمة العصور الوسطى تختص بالتاريخ الأوروبي ولا تنسحب على الجانب الإسلامي بأي شكل من الأشكال، يعني في التاريخ الذي كان هناك فيه منظومة الحكم البابوي أو الحكم الإلهي في مناطق أوروبا كلها والإقطاعيات كان من يملك الأرض كان يملك البشر فوق الأرض، يذبحهم أو يبيعهم أو يقطعهم يفعل بهم ما يشاء كان هذا هو مسمى الإقطاعي، أما ما كانوا فوق الأرض كانوا يسمون أقنان الأرض –مرتبطين بالأرض–وبالتالي يملكهم ويملك كل مقدراتهم، فالمنظومة لدى المسلمين مختلفة اختلافًا جذريًا فليس لدينا هذا الأمر، فكان التفوق العلمي العربي وتفوق العمران العربي بدأ يغير تدريجيًا من خلال هذا النقل وهذا الاختلاط في تحطيم أوثان الجهل والجاهلية الموجودة في أوروبا ابتداءً من القرن الثاني عشر، وفي هذه الفترة بدأ ملوك وأمراء سواء بريطانيا أو أوروبا في إرسال البعثات.. حتى أنه في رسالة من الملك هنري الثالث في بريطانيا يرسل لأمير الأندلس برسالة يطلب منه: قد علمنا مدى تقدمكم ونحن نريد لأبنائنا أن يستقوا من هذا العلم لعلهم يستطيعون أن ينقلوا إلينا بعضه، فبدأ يرسل البعثات من بريطانيا ومن ألمانيا ومن مناحي مختلفة من أوروبا إلى الدول الإسلامية للتعلم ولنقل معالم الحضارة العربية لدرجة أن بعض الأوروبيين ينقلون كيف أن الطلاب أو الباحثين في جامعة أوكسفورد التي كانت قائمة في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر بدأوا في الاستخفاف بأي أستاذ يخطئ في الترجمة من العربية أو اللاتينية أو لا يُحسن قراءة الكتب العربية فكانوا يستخفون به لأن هذا كان شرط أساسي لأنه من أجل أن تبدأ في التخصص في علم لابد عليك تعلم اللغة العربية لكي تستطيع قراءة المراجع العربية التي تتكلم عن هذا العلم، وفي هذا الإطار تم نقل مجموعة ضخمة فمثلًا في كتاب ابن سينا "القانون في الطب" ظل مرجعًا أساسيًا في أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر، ظل الطب الأوروبي يدين للطب الإسلامي على مدار مائة وعشرون عامًا، وبالتالي بدأ هذا المنحى لنقل العلوم العربية تدريجيًا إلى أوروبا، هذا جانب النقل وقد قلنا أن الاحتكاك الحربي في الفترات السلمية بدأ ينقل كثير من العلوم العربية وعادات العرب وطبائع العرب حتى أن الزخارف في عصور الفنون أو متخصصي الفنون، الزخارف التي ظهرت في أماكن مختلفة في أوروبا كانت بدأت تنقل زخارف لا يفهمونها فوصل بهم الأمر أن ينقلوا (بسم الله الرحمن الرحيم) دون فهمٍ لها، هناك كتاب لروجر بيكون يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم وهو لا يفهمها، لأنه يرى أن هذه الكلمة توجد في مطلع أي كتاب إسلامي فوضعها كما هي، ففي هذا الإطار بدأوا في عمل زخرفة يسمونها شبيه

الكوفي هذه الزخرفة التي بدأوا في تسميتها بأسماء أخرى كالباروك وغيرها في عهد ما يعرف باسم النهضة الأولى الأوروبية، كانت هذه النهضة الأولى في القرن الحادي عشر والثاني عشر وكان هناك النزعة اسمها النزعة الإنسانية وهي أن تُفتح ثقافته على كل العلوم والتي كانت سابقة أو تعلو على ما هو موجود حوله وهي بالتالي كانت العلوم والآداب العربية، كانت هذه هي المرحلة التي يتم الانتقال فيها بشكل سلس من خلال عمليات ترجمة ومن خلال عمليات الاحتكاك المباشر.

مع القرن السابع عشر والثامن عشر بدأت تتسع دائرة الاحتكاك العسكري بمعنى أن قطاعات كبيرة واسمحوا لي والشيء بالشيء يُذكر تسمعون عن ما يسمى القرصنة التي تظهر في الأفلام، بداية القرصنة الحقيقية كانت بناءً على قرار من ملك بريطانيا أن السفن البريطانية لها الحق في ملكية كل ما تحمله البحار كان قرارًا بريطانيًا من ملك بريطانية والأكثر تنفيذًا له كانت الملكة فيكتوريا والذي يأمر بأن كل ما يحمله البحر ملك بريطانيا مُستحل أن يهاجموه ويأخذوه لأنه ملك بريطانيا، وبالتالي بدأت عمليات القرصنة والتي كانت تتم للسرقة.. ليس فقط للسفن الإسلامية بشكل أساسي بل لسرقة السفن الإسبانية، استطاعت القوات الإسبانية احتلال مناطق شاسعة في أمريكا الجنوبية، وهناك وجدوا مناطق شاسعة أو مدن مصنوعة من الذهب والفضة.. مدن بها أعمدة القصور مصنوعة من الذهب والفضة، فبدأوا سرقة كل هذا ولذلك اندثرت حضارات ولا يُعلم عنها شيء مثل حضارة الإنكا والتي كانت في البرازيل وجنوب أمريكا الجنوبية وقد اندثرت لأنها دُفنت وسُرق كل ما فيها وقتل سكانها، أما القوات البريطانية البرية لم تسمح لهم أن يحاربوا الإسبان أو يذهبوا لهذه المناطق، فكان الاستحلال أو القوة التي بدأوا في بناءها قوة بحرية وبدأوا في استخدام تقنيات جديدة في المدافع التي فوق المراكب وبدأوا في سرقة السفن الإسبانية لكي يتحول ميزان القوة لديهم للقوة الاقتصادية وقد تحقق هذا بالفعل، وهذا الأمر جعل القوة البحرية البريطانية تبدأ في اجتياح مناطق كبيرة جدًا وأصبحت القوة الكبرى ابتداءً من القرن السابع عشر في البحر واستطاعوا احتلال مناطق مختلفة في العالم لذلك أصبحت الإمبراطورية البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس وتبعتها في هذا الملكية الفرنسية والتي جاءت بعدها الثورة الفرنسية والتي لم تغير استراتيجيتها –استراتيجية الاحتلال– لأن هذا كان بعد الثورة والتي كانت سنة ١٨٨٩، وفي ١٨٩٨ وصل نابليون إلى مصر فبالتالي استراتيجية الاحتلال ليس معنى ذلك أنهم سينظروا للبشر بمنظور الإخاء والمساواة، الإخاء والمساواة كان على مستوى الفرنسيين فيما بينهم أما الباقين بالنسبة لهم لا يمثلون شيء يحتلونهم ويسرقونهم.

القوة الفرنسية –ولذلك أقول لكم أن هذه المرحلة العسكرية الثانية هي مرحلة سرقة العلوم الإسلامية، وكان المثال الفج لهذا الأمر في مصر عندما جاءت الحملة الفرنسية وكان على رأسها

نابليون بونابرت، كان في ١٨٠١ القوات الإنجليزية والقوات العثمانية استطاعوا هزيمة القوات الفرنسية الموجودة على أرض مصر وأبلغوهم كل ما سنفعله معكم أن تتركوا كل شيء لديكم وتخرجوا بأرواحكم سالمين عائدين إلى فرنسا، فوافق الفرنسيين وافقوا على ترك أسلحتهم وملابسهم وترك كل شيء إلا شيء واحد ألا وهي المخطوطات التي سرقوها من مصر، عدد مهول يكاد البعض يصفه بالآلاف من المخطوطات العلمية سواء التي حُمّلت مع الحملة الفرنسية ليس فقط الآثار –حجر رشيد سرقته بريطانيا وليس الفرنسيين– الفرنسيين أخذوا المخطوطات سرقةً وكان هذا سمت لكل قوات تدخل إلى أي معقل من المعاقل الإسلامية التي يوجد بها مخطوطات ليس لترجمتها بل أخذها، لذلك هناك آلاف آلاف المخطوطات موجودة الآن في أوروبا وكانت هذه هي مرحلة سرقة العلم يسرقوه ويتعلموا ويبدأوا يخرجوه لنا، وتظهر كل فترة مخطوطة مُحققة من هولندا وأخرى من ألمانيا، ونحن نعجب لماذا تُترك هذه المخطوطات لديهم والتي سُرقت أثناء حركات أو التحرك العسكري للقوات الأجنبية داخل العالم الإسلامي.

هذا الأمر أدى إلى أن العلوم بدأت تنتقل من خلال المعابر التي ذكرناها ابتداءً من القرن ما بين العاشر والثاني عشر وبدأت حركة ترجمة وبدأت حركة بعثات منهم إلينا حتى إن قنصل فرنسا أرسل لهم وطلب منهم الحضور إلى مصر وكان ذلك أثناء حالة ارتباك في مصر لكي تأتي بعدها الحملة الفرنسية، وكان هذا القنصل تلميذًا عند الشيخ حسن الجبرتي وكان يتعلم على يديه بعض العلوم التي كان يُدرّسها للطلبة الوافدين سواء من أفريقيا أو من أوروبا لكي يتعلموا، وكان قنصل فرنسا واحد من هؤلاء الطلبة الذين تعلموا على يديه وهو الذي أرسل إليهم ليبلغهم أن الظرف مناسب للإتيان أو الدخول إلى مصر.

نحن لا نحكي قصة الاستعمار وإن كان هذا جزءًا مهمًا لابد من التعرض له سريعًا، أنا فقط أود أن أذكر لكم الكارثة التي حدثت من الملك الكامل كان الملك فريدريك توطدت صداقته مع الملك الكامل لأنه كان يتكلم العربية وكان بينهم مراسلات فوقعت أزمة لأن الإمبراطور فريدريك كانت نزعته العربية عالية جدًا فوقع في محادة بينه وبين كبير الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان أو إيطاليا، وكلفه وأعلن أنه يجب عليه أن يقود حملة صليبية لاستعادة بيت المقدس والذي كان قد أخذها صلاح الدين من قبل، فطبعًا هو على صداقة قوية مع الملك الكامل وكان محب للعربية ومقدر جدًا للأمة الإسلامية، فكان في حيرة من أمره كيف يقود حملة لتدمير هذه الأمة المتحضرة؟ وهو يعلم جيدًا عن البربرية التي يتعامل بها الجنود الصليبيين والتي تكلمنا عنها من قبل مع المسلمين ومع كل سكان الأراضي الإسلامية، فما كان من الإمبراطور فريدريك إلا أن أرسل للملك الكامل يحاول معه أن يعطيه نصرًا مزيفًا لكي يُسكت به هذا الشخص لعدم دخول معارك حقيقية تسيل فيها الدماء وتُحطم فيها المدن ويزول فيها العمران، فقام الملك

الكامل وبكل أريحية بإعادة بيت المقدس مرة أخرى وبالتالي دخل إلى بيت المقدس أربعمائة جندي بدون قتال وضاع بيت المقدس مرة أخرى، أينعم قد عاد بيت المقدس بعد فترة قصيرة في معارك تالية مباشرةً لكن أنا أتكلم فقط كيف للملك الكامل أن يفعل ذلك ويعطيه بيت المقدس حتى لا يكون هناك حُجة عند كبير الكنيسة الكاثوليكية أن يطرد أو يزيل مُلك فريدريك أو يزيله عن العرش، كان هذا أحد الأسباب القوية أن يستمر الملك فريدريك واستمرت حركته التي تعمل على ترجمة العلوم العربية ونقل العلوم العربية إلى أوروبا بشكل قوي جدًا.

كانت هذه المعابر التي نقلت الحضارة الإسلامية ومعالم الحضارة الإسلامية مثل كتاب القانون وكتاب النفيس لابن النفيس وكتب الطب الخاصة بابن النفيس التي تتكلم عن الدورة الدموية والكتب التي تتكلم عن الطب للزهراوي والكتب التي تتكلم عن الفلك ونقصد هنا بالفلك ليست قراءة الطالع وحظك اليوم بل هي أماكن الأبراج لأن الفلك في العلم الإسلامي هو الذي مهّد إلى ما يعرف بالإسطرلاب، هذا الإسطرلاب عبارة عن آلة تستطيع من خلالها أن تحدد شكل النجوم التي ترشدك في البحر فتبدأ من خلال النجوم ومن خلال هذا الجهاز الذي كان وراؤه علم الفلك أن تستطيع معرفة الاتجاهات وتستطيع تحديد مسارك شمالًا أم جنوبًا أو شرقًا أو غربًا، وأود التوضيح ولكن للأسف لا يحضرني الاسم أن مخترع الإسطرلاب كان امرأة مسلمة، هي ليست فقط كانت متخصصة في الفلك بل تمكنت من صنع آلة يستطيع من خلالها البحارة في وسط البحر يسترشدوا بالنجوم ويصححوا مساراتهم وكانت هذه الآلة هي التي غيرت منظومة البحرية بدايةً الإسلامية ثم البحرية في العالم.

هذا على الجانب العلمي، الجانب الآخر والذي لم يستطيعوا نقله وهو العلوم الشرعية ولكنهم أخذوا فحوى هذه العلوم، بمعنى أن كتب الفقه المالكي تم ترجمتها بالكامل في فرنسا وتم استغلالها في صناعة القانون الفرنسي وهناك أكثر من باحث من خلال حوالي خمسين عام حتى اليوم هناك بحوث محترمة جدًا أعدت مقارنات كيف أن القانون الفرنسي في مرجعياته الأساسية هو الفقه المالكي، لأن أهل المغرب وأهل الأندلس كان الفقه السائد هناك وحتى اليوم هو الفقه المالكي وأن كثير من معالم الفقه المالكي هي التي أصبحت من مرجعيات ومن أصول القانون الفرنسي حتى الموجود ليومنا هذا، وبالتالي المنظومات القانونية استفادت من المنظومة الفقهية الإسلامية، عندما ننظر للقانون الإنجليزي فهم ليس لديهم دستور ولكن لديهم القواعد المرعية بمعنى أنه ليس لدينا نصوص بل يوجد قضايا تم الحكم فيها فبالتالي نسترشد بهذا الحكم هو الأساس الذي نحكم به فيما بعد لأنهم يرون أنه عادل، هذه هي المنظومة الفقهية الإسلامية، هذا هو الفقه الإسلامي والقضاء الإسلامي لا يوجد فيه منظومة قانونية بل فيه مرجعيات فيه قضايا مماثلة وبالتالي نسترشد بها ونسميها قياس، فبالتالي المنظومات القانونية التي بنيت

داخل أوروبا استرشدت في كثير من ملامحها بمنظومات الفقه الإسلامي والتي طردناها واستبدلناها بالقانون الفرنسي ووضعناه لكي نتطور ونكون مثل أوروبا.

كانت هذه ملامح نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا لكن الأمر الذي نريد إثارته بشكل سريع.. من أين أتى تخلفنا؟ نحن نتكلم على أننا كنا في قمة الحضارة والرقي في العلوم والعمران ومنظومة القانون الإسلامي ومنظومة الفقه الإسلامي الحاكمة والمجتمع الفاعل كل هذا تراجع للخلف وبدأنا في استيراد كل شيء منهم، كانت لدينا منظومات الحرف والتجارة وكل هذا كان هو الأعلى، فما الذي جعلنا نتقلص حتى أصبحنا في ذيل الأمم؟ ما الذي جعلنا بهذا الشكل؟ الحقيقة هذا السؤال الذي ظل يسأله المجددين والمصلحين الإسلاميين بدايةً من القرن التاسع عشر حتى اليوم هو لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ وتحت هذا العنوان يمكن أن أكتب مكتبة لكن نتكلم سريعًا عن بعض الملامح ما الذي جعل التخلف يسكن عندنا والتقدم ذهب لهم؟

كما قلنا أن الاستعمار الأوروبي استعمار ذكي الاستعمار المعاصر غير الحملات الصليبية البربرية التي كانت تقتل البشر، الاستعمار المعاصر بدأ خصوصًا في النصف الثاني من القرن العشرين لكن بدايته كانت اجتياحًا للعالم لأن جذوره كانت الثورة الصناعية، هذه الثورة الصناعية بدأت في بريطانيا وانتقلت إلى العالم العربي فزادت من عجلة الإنتاج بحيث أنه كان من قبل كانت الحرف يقوم عليها أفراد فكان مثلًا عند صناعة حذاء يصنعها كاملة، مع الثورة الصناعية ظهر ما يسمى بالعامل .. ما معنى هذا الكلام؟ قبل ذلك كان هناك الحرفي هذا الحرفي يمكن أن يصنع لك قميص بالكامل أو حذاء أو بدلة كاملة، هذا اسمه الحرفي لكن المصانع بدأت تعمل على أن العامل يصنع قطعة واحدة فقط، يقوم بتصنيع النعل مثلًا فيصنع عشرة آلاف قطعة مثلًا، يأتي الذي يليه يصنع واجهة الحذاء والتالي يجمعهما، وبالتالي هذا العامل لا يستطيع إنتاج قطعة كاملة، فتواجد عامل لا يستطيع الاستقلال عن المصنع لأنه لا يستطيع فعل أي شيء بمفرده، أما الحرفي كان صاحب ورشة صغيرة حتى لو كانت في بيته ويستطيع أن يصنع قطعة كاملة، هذا العامل خُلق أو أصبح موجود مع ما يعرف باسم الثورة الصناعية، هذه الثورة الصناعية بدأت تكون هناك خطوط إنتاج وفير هذا الإنتاج الوفير يحتاج لمادة أولية كثيرة وفي نفس الوقت يريد أن يوزع على عدد كبير من الأفراد، من أين تتوفر هذه المادة الكثيرة والأفراد الكثيرين؟ الحرفيين كانوا يغطون المجتمع المحلي، والإنتاج الوفير لكي يتم تسويقه كان يحتاج إلى أسواق، وهذا الإنتاج الوفير لكي يتواجد يحتاج إلى توفير المادة الأولية بأرخص ما يمكن، فبدأت تظهر الشركات، هذه الشركات هي التي تصنع سياسات الحكومات فتظهر شركة تسمى الهند الشرقية في بريطانيا والشركة الفرنسية العابرة للبحار في فرنسا، والشركة الهولندية المتحدة إلى آخره.. هذه الشركات

هي التي تحرك الحكومات، فتفرض عليهم إرادتها في وضع يدها على منطقة معينة لأنه تتوافر فيها المادة الأولية التي نحتاجها، بريطانيا مثلًا تحتاج القطن لمصانع الغزل خاصتها التي تنتج القماش الإنجليزي المشهور فأين القطن وأين الصوف؟ موجود في الهند وجنوب شرق آسيا وفي الوسط كان يزرع أيام محمد علي القطن، والكتان، والسودان نفس الشيء وبالتالي يبدأ في وضع يده على المناطق التي تخدِّم على هذه الشركات، لأن هذه الشركات بدأت تصنع ميزانيات هذه الدول، وبالتالي بدأت هذه الشركات في تمويل الدولة فيصبح لديها قوة عسكرية والقوة العسكرية تقوم على خدمة الشركة، فتبدأ تحتل بالقوة الجبرية أو العسكرية هذه المناطق وتخُضعها لمقدراتها وأخذ خيراتها وتعطيها لمصانع الثورة الصناعية أصحاب رؤوس الأموال الذين يبدأوا في تصنيع وبيع في هذه الأسواق، هو أخذ منك القطن ويعطيه لك منتج كامل ويبيعه بالسعر الذي يراه.

منظومة الطمع هذه بدأت تحرك الآلة العسكرية وكما قلنا من قبل أن بريطانيا بدأت لتأخذ ذهب إسبانيا أصدرت قرار أن كل ما على البحر حلال لهم، فتبدأ عمليات القرصنة وسرقة السفن الإسبانية، والحروب ما بين بريطانيا وإسبانيا حتى لا تستطيع أن تحطم كثير من مراكبها وأساطيلها وبالتالي تنتقل هذه القوة الاقتصادية والقوة العلمية التي تكونت على مدار أربع قرون من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر إلى الدولة البريطانية والتي تمثل القوة الصاعدة في العالم وقتها.

في نفس الوقت الذي كانت فيه الناحية الإسلامية بدأ يكون لديها نوع من أنواع التراخي والتراجع ونستطيع أن نقول أنهم فقدوا السبق في مواكبة ما يحدث في العالم، وبالتالي يبدأ ما يغير مجرى التاريخ وهو ما يسمى بالكشوف الجغرافية، الكشوف الجغرافية هذه هي التي وجدوا من خلالها طرق جديدة ليصلوا إلى مناطق لم يكونوا يستطيعون الوصول إليها إلا بشق الأنفس، الطرق الجديدة جميعها بحرية، من هم قادة البحر؟ كانوا في فترة من الفترات أسبان، حتى تجدون كثير من أسماء قادة الكشوف الجغرافية أسبان لكن من احتل مكان الأسبان بعد ذلك البريطانيين والفرنسيين من خلال حركة الأساطيل وبالتالي التجارة القديمة كانت تأتي على طريق البحر الأحمر تعبر مصر برًا ثم تدخل إلى البحر المتوسط وتتجه إلى أوروبا، الطريق الثاني كانوا حتى اليوم يحاولون إحياؤه اسمه طريق الحرير القديم كان من وسط آسيا ويدخل بعد ذلك على منطقة الشمال –منطقة شمال القرم المعروفة اليوم فيها الصراعات– إلى منطقة الدولة العثمانية في الشمال هذا كانوا يسمونه طريق الحرير كانوا يُقيمون فيه قطارًا لكي يخرج من الصين يصب في أوروبا، طريق الحرير هذا كان يأخذ التجارة فكانت تمر على الدول الإسلامية سواء في وسط آسيا أو في الدولة العثمانية في منطقة إسطنبول أو تمر على مصر أو تمر على الشام فبالتالي كل هذه الطرق كانت تمر على العالم الإسلامي فيحصّلوا منها منافع وبالتالي

انسحاب القوى الأوروبية لأنهم لم يعودوا يحتاجون له لأنه يوجد لديهم طريق بحري خاص بهم فاتجهوا إليه هو طريقٌ طويل لكن أصبح بعيد عن مناطق الصراعات سواء مع الدولة العثمانية أو في الأندلس تدخل في معارك مع المناطق الجنوبية سواء في المغرب أو الجزائر أو غيرها فبالتالي بدأوا من خلال عمليات الكشوف الجغرافية يحققون مكاسب اقتصادية ضخمة خصوصًا أنه عن هذا الطريق اكتشفوا قارتين قارة أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، هذه القارة بشمالها وجنوبها كانت أرضًا بكر مواردها ضخمة جدًا وكما قلت إسبانيا وجدت هناك الذهب متوفر بكثرة سواء الذهب أو الفضة فبالتالي مقادير هذه الثروات بدأت تغير ميزان القوة، فاكتشاف العالم الجديد بدأ يصب كثير من الثروات داخل أوروبا وبدأ يأخذ كثير من المنبوذين إلى هذه المناطق، لذلك كان المجرمين والمعتّقين وإلى آخره كانوا في عملية نفي إلى أمريكا، بالإضافة إلى طبعًا مسألة العبيد الذين تم تهجيرهم من أفريقيا إلى هذه المناطق لاستصلاحها واستثمارها والعمل فيها بالسخرة.

هذا التغير في ميزان القوة بدأ يُعطي أفضلية لأوروبا ثم بعد ذلك لأمريكا حتى وصلنا إلى أنهم بدأوا يضعوا أيديهمعلى الدول الإسلامية في الشرق الأقصى، بدايةً من الفلبين لأنهم وقت أن ما داروا حول العالم، كانت أول الدولة بدأوا يحتلوها بعد العالم الجديد سواء أمريكا الشمالية أو الجنوبية، فكانت الفلبين أول دولة إسلامية استولوا عليها، فبدأوا بها ثم أندونيسيا ثم ماليزيا ثم دخلوا إلى جنوب شرق آسيا فبالتالي دخلوا من المنطقة البعيدة، كان الصراع قبل ذلك كله موجه إلى قلب العالم الإسلامي، القلب كان نابضًا حيًا قويًا، وهي منطقة الشام من فلسطين والحجاز ومصر إلى آخره.

انتقال القوة هذا صنع عالمًا جديدًا بدأت تغرب فيه شمس الحضارة الإسلامية والمقدرات الاقتصادية انكمشت فبدأت الصراعات على ما تبقى من ثروات موجودة ما بين القبائل وما بين العائلات وما بين القوى الموجودة داخل هذه المنطقة.

الدولة العثمانية حقيقةً بدأت تفقد السيطرة تحت بند أن مقدراتها الاقتصادية تأثرت بشكل كبير فبدأت تفقد السيطرة على مقدراتها وبدأت تفقد حتى حيويتها أنها تصنع تجديدًا من منطلقاتها هي، بل بدأت تستورد –كتجربة محمد علي– من أوروبا نماذج جاهزة لكي تعمل عملية إحلال لنماذجها الخاصة أو النابعة من حضاراتها ومقدراتها، هناك فيلسوف أو مؤرخ مشهور اسمه توينبي له كلمة مشهورة في هذا الإطار يقول: إنك عندما تستورد نظامًا تستورد معه أمراض المجتمع الذي نشأ فيه، فبالتالي عندما بدأوا استيراد النظام كانوا يستوردونه ومعه الخبراء ليطبقونه، هؤلاء الخبراء يأتون بنسائهم، ومعهم تقاليدهم وأيضًا البعثات التي كانت تُرسل بدأت تتشبع بمنظومة حياة جديدة أو غريبة تنقلها إلى العالم الإسلامي

فبدأنا نرى هذا الأمر في مجتمعاتنا وهي النماذج الأوروبية تبدأ في العيش معنا ما بين أهالينا وفي نفس الوقت يأتي بمقدرات علمية أعلى فبدأ يحتقر المنطق وأهله والنماذج القديمة التي كان يراها في مجتمعه.

الشيء الآخر هي الإرساليات الأجنبية التي كانت تعمل داخل مجتمعاتنا، هذه الإرساليات كان كثير منها يعمل في المجال التعليمي، في أول الأمر كانوا يقتصروا على أبناء ديانتهم ثم يتوسعوا إلى المجتمع ككل فبدأوا في تغيير ثقافة الناس، وهناك كلمة مشهورة لقسيس أمريكي مشهور اسمه زويمر فقال: ليس علينا أن نقوم بتحويل المسلمين إلى مسيحيين، هذا بعد تجارب كثيرة في أنهم يحولوا المسلمين.. كانوا بدايةً يحاولوا تحويل الأرثوذكس إلى كاثوليك أو بروتستانت حسب الاتجاه المبشر أو المنصِّر بمعنى أدق، فبدأ زويمر يضع فلسفة جديدة والتي بدأت تسود من خلال المؤسسات الإرسالية كلها، ولكن علينا أن نجعلهم يتركوا إيمانهم ولا يدخلوا في إيماننا –أخرجهم من دينهم وأوقفهم في المنتصف– كان هذا دور إرساليات العمليات التعليمية التي تحدث في المجتمعات الإسلامية، وهذا الذي يخلق في النهاية مجتمع بلا هوية ليس له طعم ولا لون ولا رائحة، لا ينتمي إلى مجتمعه ولا تاريخه ولا حضارته وفي نفس الوقت لا ينتمي إلينا ولا ينتمي إلى الحضارة الغربية يقف في المنتصف فيصبح تائهًا وهذا هو المطلوب.

هذه الحركات الاستعمارية وهذه الحركات الإرسالية من عمليات التنصير أو عمليات التحويل الديني بدأت تدخل في عمليات صراعات ما بين هذه الدول وبعضها وبعض على المستعمرات، وفي بداية القرن العشرين حدث ما بينهم ما يسمى معاهدات الوفاق ما بين عام ١٩٠١ و١٩٠٢ و١٩٠٤ استطاعوا أن ينفذوا عمليات وفاق ما بينهم وأن يقسموا التركة وكانوا يسمون الدولة العثمانية الرجل المريض، وبدأوا في تقسيم التركة خاصتهم ولذلك انتهوا إلى أن الباقي من الدولة العثمانية والتي لم تقع تحت الاحتلال كانوا يضعون لها اتفاقية تسمى اتفاقية سايكس –بيكو وتم تعديلها في فرنسا في سان رينو في مؤتمرات الصلح بعد الحرب العالمية الثانية.

هناك اتفاقية مهمة جدًا وهي ما سنختم بها الحديث، كانت هذه الاتفاقية كانت نتاج مؤتمر استمر ٣ سنوات، وهو مؤتمر استمر ما بين مجموعات خبراء كانت تجتمع بشكل دوري ما بين الدول الاستعمارية كانت تجتمع في بريطانيا، وكانت هذه الوثيقة ظهرت في النهاية باسم رئيس وزراء بريطانيا في ١٩٠٧ اسمه بانرمان (وثيقة كارل بانرمان)، بانرمان وقتها كان تولى السلطة في الحكومة البريطانية وقبلها كان وزيرًا ثم أصبح رئيس وزراء، هذه الوثيقة تقول: أن الحضارة الغربية أو الحضارة الأوروبية أو حضارة الرجل الأبيض كما يسمونها قد بدأت مرحلة الانحدار، بدأوا يشعرون أنهم قد أنهكوا بعد سحب ٣

قرون من الصراعات خاصةً الصراعات التي بينهم وبين بعض، وبالتالي لابد أن ندرك هذه الحقيقة لأن هذه حقيقة تاريخية لا مفر منه، والمنطقة المرشحة لكي ترث حضارة الرجل الأبيض هي المنطقة الممتدة في الشمال الأفريقي إلى شرق البحر المتوسط وهي منطقة العالم العربي، لأنها تمتلك من الخصائص التي تجعل منها منطقة متماسكة في اللغة والتاريخ المشترك والديانة المشتركة، ما المشكلة؟ ولكن هذه المنطقة تتسم بالعداء التاريخي مع حضارة الرجل الأبيض، فهم أعداؤنا منذ أن وُجدنا، فما الحل؟ الحل: (١) نحافظ على تخلف هذه المنطقة وبعدها عن مقدرات التقدم ونعمل على تقسيمها تقسيمًا بحيث يكون بينها تنافر وبالتالي تجد جزء فرنسي على جزء إنجليزي على جزء إيطالي (ليبيا إيطالية، مصر بريطانية، الجزائر فرنسية، تونس فرنسية وهكذا)، (٢) ترشيح مناطق أخرى لترث الحضارة الأوروبية والمنطقتين التي تم ترشيحهما (العالم الجديد شمالًا لأن الجنوب كان لديهم مشكلة لأنهم حضارات قديمة إنما شمالًا هم من سكنوا واحتلوا المنطقة أمريكا وكندا واليابان).

من يتكلم عن الحرب العالمية وهيروشيما ونجازاكي في اليابان ليقرأ تاريخ اليابان في الثلاثينيات وأواخر العشرينيات ما الذي فعلته في الصين وآسيا كلها؟ اليابان تحولت إلى وحش عندما نُقلت إليها معالم الحضارة دخلت إلى الصين وتغتال مدن بأكملها وكان شعار قائد المعركة لا أسرى، يدخل فيُبيد مدن أكملها في الصين، ومدن الصين كما كانت اليوم ليس بها ألف وألفين ليست كحرب أوكرانيا، بل كان فيها على أقل تقدير مليون، اليابان دخلت هذه المناطق لكي تحتلها بعمليات إبادة لذلك عندما دخلت تريد التوسع في كل منطقة المحيط الهادي كان المنافس لها أمريكا، لذلك قامت بالضربة التي قامت بها ضد أمريكا وهي لم تكن تدرك مدى قوة أمريكا في هذا الصراع.

وبالتالي هذه الوثيقة ترشح منطقتين وهذا بالفعل الذي بدأوا فيه من نقل للتكنولوجيا لذلك بدأوا في مد طرق قطارات والمصانع ونقل التقنيات الحديثة التي كانت في هذا التوقيت إلى المناطق العالم الجديد لكي تكون هذه المنطقة هي الوارثة لحضارة الرجل الأبيض الأوروبي الذي بدأت هذه المناطق وكما يقولون تشيخ أو تُستهلك حضريًا، وبالتالي بدأ هذا الأمر ولذلك نجد أن بعد الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تعمل على تسليم الراية إلى أمريكا بشكل واضح لا جدال فيه، ولكي تفعل ذلك زرعوا إسرائيل في المنطقة والتي استثمرت هذه الوثيقة لكي تقنع الدول الأوروبية بأنها التي تُعينها على تنفيذ أول بند وهو الحفاظ على تمزق هذه المنطقة وتخلفها.

تجولنا سريعًا في عملية نقل الحضارة الإسلامية ثم انتقال عوامل القوة من المنطقة الإسلامية إلى أوروبا ثم عملية الاستعمار والانتقال الحضاري أو انتقال المستوى الحضاري إلى منطقة أوروبا وتخلف العالم الإسلامي بسبب صراعاته وبسبب أن الذين كانوا قائمين على المسؤولية لم يكونوا على قدر المرحلة التي كانوا فيها.

الكلام بعد هذه المرحلة سيكون كلامًا في السياسة وبالتالي نحن لا نريد الكلام في السياسة.

نحن استقللنا وطردنا المحتل، فلماذا ما زلنا متخلفين؟ هذا سيكون كلام له عواقبه فلا نريد إغضاب أحد، وحقيقةً الكلام في هذا الموضوع يظل مهمًا لكن الأهم أن ندرك أن مقدراتنا أن نملك مقدرات القوة وأن الصراع على الحفاظ على تخلفنا مسألة حيوية جدًا بالنسبة للغرب، وأن المسألة الآن أصبحت واضحة للكل، لماذا نحن متخلفين ومن الذي يعمل على تخلفنا سواء موجودين بداخلنا أو من خارجنا، كيف نخرج من هذا؟ هذا هو السؤال كيف نخرج من هذه الكوارث؟ هو السؤال الذي يجب أن نسعى للإجابة عليه.

فبهذا نصل إلى ختام هذه المقرر، الذي نأمل أن نكون قد ألمحنا إلى ملامح أساسية في تاريخنا بدايةً من أول الخليقة إلى وضعنا الراهن الذي نعيشه أو قريبٌ منه.

وفي النهاية نتمنى لكم كل التوفيق في حياتكم، وأرجو الاستمرار في الاستيعاب، لأنك كي تستوعب واقعك لابد أن تستوعب تاريخك، ولكي تستوعب ما يحدث لابد أن تستوعب الماضي بشكل كامل، وإلا لن تستطيع أن تفهم ما يجري حولك.

وبالله التوفيق، ومنه وحده السداد.

هذا الكتاب

يتعرض هذا الكتاب لعنصرين:

أولاً: قصص الأنبياء من داود عليه السلام لنهاية قصة عيسى عليه السلام، ومن خلال ذلك نتعرض لطرفٍ من أحوال بني إسرائيل مع أنبيائهم، لنتعرف على أحوال الأنبياء وما كابدوه في دعوة الناس للتوحيد، ومنها نتعلم ما يجب أن يكون عليه الداعية من صبر.

ثانيًا: لمحة عامة عن تاريخ الأمة الإسلامية من بعد الراشدين وحتى زماننا المعاصر، ونتناول هذه الحقبة الطويلة زمنيًا من خلال أربعة أقسام. القسم الأول خاص بالجانب السياسي الدعوي وهو المتعلق بانتشار الإسلام مع نظرة عامة على أبرز الدول الإسلامية والنظام السياسي فيها. القسم الثاني يتناول الجانب العلمي وأبرز العلماء في بعض العلوم وفضل علمائنا على الحضارة المعاصرة. القسم الثالث نتعرض فيه إلى الحديث عن العمران سواء المدن التي بنيت في ظل الحضارة الإسلامية وأبرز المؤسسات التي بناها نظام الوقف مثل المستشفيات ودور الرعاية الاجتماعية. أما القسم الرابع فيتعلق بسقوط العالم الإسلامي تحت السيطرة الغربية وحركات التحرر ضده وبروز عالمنا المعاصر

التعريف بالمؤلف

دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب جامعة عين شمس بالقاهرة، عضو لجنة إحياء تراث الفكر الإسلامي المعاصر – مكتبة الإسكندرية (مصر)، ليسانس الشريعة من كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر، الدبلوم العالي في الدراسات الإسلامية - معهد الدراسات الإسلامية - القاهرة، دبلوم عالٍ في التربية - كلية التربية - جامعة الإسكندرية، ليسانس تاريخ - كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، نائب رئيس الموقع ومدير العلاقات الخارجية بموقع بيليواسلام - الموقع الأكاديمي لشبكة إسلام أون لاين.نت، مدير مشروع بانوراما التاريخ الإسلامي في مركز دراسات العالم التركي

Caulfield Cres., Mississauga, ON L5M 6J7 - Canada 3054
Tel . : +1 (647)633-3491
E-mail : info@ayaatacademy.ca
ميساساجا - أونتاريو - كندا
www.ayaatacademy.ca
أكاديمية آيات
Ayaat Academy